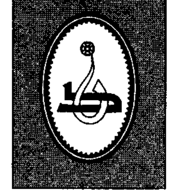
القرآن الكريم
في دراسات المستشرقين

دراسة في تاريخ القرآن: نزوله وتدوينه وجمعه

الدكتور مشتاق بشير الغزالي

دار النفائس



القرآن الكريم
في دراسات المستشرقين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.

[الحجر/ ٩]

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

[فصلت/ ٤١، ٤٢]

القرآن الكريم في دراسات المستشرقين

(دراسة في تاريخ القرآن : نزوله وتدوينه وجمعه)

تأليف

الدكتور مشتاق بشير الغزالي

دار النفائس

القرآن الكريم في دراسات المستشرقين

تأليف: الدكتور مشتاق بشير الغزالي

الطبعة الأولى: 1429 هـ - 2008م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 458 - 6

نشر

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع

ص.ب ١٣٠٦٦

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٧٧٠٣١٢

فاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٢٧٦١٠٩٩

دمشق - سوريا





دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان - بناية الصباح

وصفي الدين. ص.ب ٥١٥٢ - ١٤

الرمز البريدي: ٢٠٢٠ - ١١٠٥

فاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٨٦١٣٦٧

هاتف: ٠٠٩٦١ ١ ٨١٠١٩٤ - ٨٠٣١٥٢

بيروت - لبنان

Web Site: www.alnafaes.com

Email: alnafaes@alnafaes.com

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثاني

تنزيل القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي

الموضوع **الصفحة**

الفصل الثالث

تدوين القرآن الكريم وجمعهُ في عهدي النبوة والخلافة الراشدة في المنظور الاستشراقي

الموضوع **الصفحة**

الفصل الرابع
طعون المستشرقين في النص القرآني

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسل الله أجمعين وعلى خاتمهم الرسول الأمين محمد بن عبد الله وآل بيته الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين ممن تمسَّك بالدين، وبعد...

فإن الله عز وجل أرسل نبيه محمداً ﷺ بالهدى والحق، وأنزل عليه القرآن ليكون الحجة على خلقه، وليكون نوراً منيراً لهم، وحافظاً لدينهم. وكما كتب سبحانه وتعالى لدين الإسلام أن يكون آخر الأديان وخاتمها، فقد كتب للقرآن أن يكون آخر الكتب وخاتمها، ولهذا تعهَّد، وتكفَّل بحفظه وصونه من الضياع إذ قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر/ ٩].

منذ أكثر من ثماني سنوات وأنا أبحث في دراسات المستشرقين ورؤاهم، أحاول الإطلاع على نظرتهم للإسلام، للدين الإسلامي، للقرآن، ولنبي الإسلام ﷺ، محاولاً تحديد التطورات الإيجابية التي جرت على نطاق فكرهم بشأن الإسلام، وقد لاحظت أن أكثر ما يركِّز هؤلاء المشترقون فيه من الموضوعات الإسلامية، هما موضوعا القرآن الكريم، والسيرة النبوية الشريفة، وكان لي شرف تناول الموضوع الثاني في رسالة الماجستير تحت عنوان (تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة).

ولقد أدركت تماماً ما يمثله القرآن الكريم، كتاب المسلمين الأول، من أهمية كبيرة عند المستشرقين، وأدركت أيضاً بحثهم وتقصِّيهم بشأن جميع الروايات الإسلامية المتعلقة بموضوع القرآن، سواء أكانت تلك الروايات ضعيفة عند المسلمين أم قوية، فوجدت أن ما أهمله المسلمون في دراساتهم وبحوثهم تحت حجة حساسية الموضوع وتجنُّب الخوض فيه، كي لا يزيد الخلاف اختلافاً، كان بمثابة الأرض الخصبة التي لم تزرع بعد، انهال عليها عدد من المستشرقين بالبحث والدراسة والتحليل، فراح بعضهم يعلن عن

توصله إلى ما عبَّر عنها بأنها نظريات في إعادة ترتيب النص القرآني، وراح بعضهم الآخر يستغل ما حصل عليه من روايات إسلاميةٌ ولو كانت ضعيفة ليقول في إثر ذلك بأن القرآن هو كتاب مُحرَّف.

من هنا تولَّد لدينا الدافع لدراسة هذا الموضوع، ولأن المستشرقين قد تناولوا القرآن الكريم من عدة جوانب، لغوية وتاريخية وتفسيرية، فقد ارتأينا أن لا نخوض إلا بما يتعلق بالجانب التأريخي للقرآن، لكون الموضوع واسعاً لا يمكن لدراسة جامعية أو علمية واحدة أن تفي بكل جوانبه، ولذلك جاء عنوان الأطروحة على النحو الآتي (القرآن الكريم في دراسات المستشرقين ـ دراسة في تاريخ القرآن، نزوله وتدوينه وجمعه).

إن الغاية من دراسة رؤى المستشرقين وبيانها بما يتعلق بتاريخ القرآن الكريم هو لأجل أن نتعرف حقيقة موقفهم من القرآن وأسباب هذا الموقف، كذلك لكي نستطيع أن ندافع عن كتاب الله، ونبيِّن كونه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو صادر من حكيم حميد. ولكي نبين ذلك لا بد من أن نكون مطلعين تماماً على رؤية المستشرقين والنقاط الجوهرية التي يثيرونها، وإلا فكيف نستطيع أن نبين للآخرين أنه قرآن مجيد محفوظ بأمر العزيز القدير من دون أن نتعرف نقاط الضعف التي يثيرها هؤلاء المستشرقون؟

وبناءً على عنوان الأطروحة، فقد قسمناها أربعة فصول تتبعها خاتمة مع قائمة للمصادر. فقد جاء الفصل الأول بعنوان (التطور التأريخي لعلاقة الاستشراق بالقرآن الكريم) والذي حاولنا فيه أن نتعرض للجذور الأولى لعلاقة الغرب بالشرق، من خلال طبيعة نظرة الغرب الأولى للشرق، ثم الاتصال الأول بين العالمين، وهو اتصال كان ثقافيّاً من دون شك قبل أن يكون عسكريّاً؛ وتناولنا أيضاً موقف الكنيسة المسيحية (الكاثوليكية) من الإسلام المتمثل بالرفض، والعداء، وتغذية العقلية القروسطية[١] بكل ما من شأنه المساهمة في حرب الدين الإسلامي، ثم بداية العمل الاستشراقي والتوجه نحو ترجمة القرآن الكريم، ودراستهِ مع بيان أهمِّ الدراسات

(١) نسبة إلى القرون الوسطى.

المتخصصة بتاريخ القرآن، مثل كتاب تاريخ القرآن للمستشرق الألماني نولدكه، وهو من أهم روادها، بل الأساس الذي اعتمدت عليهِ جميع الدراسات الاستشراقية اللاحقة في تاريخ القرآن، ولم نغفل في هذا الفصل عن أن نبحث في دوافع هؤلاء المستشرقين إلى دراسة القرآن الكريم.

أما الفصل الثاني الذي كان بعنوان (تنزيل القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي) فأول ما أبتدأنا بهِ هو موضوع الوحي المحمدي، والرؤى الاستشراقية التي تناولتهُ، وحاولنا أن نقف على الرؤية الاستشراقية الأخيرة للوحي المحمدي، مع بيان للأدلة الإسلامية في هذا الموضوع.

بعدها بحثنا في التتابع الزمني لنزول القرآن وما مثَّلهُ هذا من أهمية كبيرة لدى المستشرقين الذين يحاول بعضهم طرح ما عبَّروا عنه بالنظريات في إعادة ترتيب السور القرآنية مستندين في ذلك إلى أفكار متعددة، ولقد استعرضنا تفصيليّاً نظرية المستشرقين الألماني تيودور نولدكه، والمستشرق الإنكليذي إدوارد سيل. بحثنا أيضاً ضمن هذا الفصل موضوع النص القصصي القرآني في المنظور الاستشراقي، ونوع علاقة هذ النص بالنص القصصي التوراتي.

ثم جاء الفصل الثالث الذي وُسِمَ بـ(تدوين القرآن الكريم وجمعه في عهدي النبوة والعصر الراشدي في المنظور الاستشراقي) وحاولنا فيهِ أن نبحث الحقيقة في دور النبي ﷺ في تدوين القرآن وجمعه، وما هي رؤية المستشرقين في ذلك، وكذلك حقيقة دور الخلفاء، ولا سيما الخليفة الأول، والخليفة الثاني في عملية جمع القرآن، وأيضاً رؤية المستشرقين لطبيعة أدوارهم.

إن جمع القرآن من الموضوعات الحساسة، التي لا تنال في ثنايا المؤلفات الحديثة والمعاصرة الاتفاق التام، والرؤية الواحدة، ولذلك ركز فيه المستشرقون المتخصصون بتأريخ القرآن بشكل كبير، وطرحوا عدة تساؤلات منها ما هو منطقي ومشروع، ومنها ما هو غير مقبول ومرفوض رفضاً قاطعاً.

وأعتقد أن هذهِ التساؤلات على الرغم من كونها لا تمثل حقيقة عقيدة

المسلمين، إلا أنها قد تكون مفيدة في طَرْق نقاط مهمة من شأنها المساهمة في الوصول إلى الحقيقة التأريخية.

أما الفصل الرابع والأخير فقد حمل عنوان (طعون المستشرقين بالقرآن الكريم) الذي حاولنا فيهِ استعراض طعون المستشرقين في القرآن الكريم، التي تركزت بشكل كبير على دور الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ في جمع المصاحف وتوحيدها، تلك المهمة التي على أثرها نسب المستشرقون إلى هذا الخليفة القيام بتحريف النص القرآني، وتركزت طعونهم أيضاً في موقف الطائفة الشيعية من النص العثماني للقرآن، وقد أورد هؤلاء المستشرقون مجموعة من الإشارات الصريحة بالتحريف التي نسبوها إلى لسان الشيعة. وقد حاولنا في هذا الفصل أيضاً الوقوف على حقيقة هذهِ الطعون وتبيان ما إذا كانت فعلاً تمثل جانباً عقائديّاً عند الطائفة الشيعية أم لا؟.

ثم ختمنا الأطروحة بعرض موجز لأهم ما توصَّلنا إليهِ من نتائج في ضوء هذهِ الدراسة، ثم أتبعنا هذهِ النتائج ببعض التوصيات التي نأمل من زملائنا الباحثين أن ينظروا إليها بعين الاهتمام؛ لأن هذهِ الموضوعات ما زالت تحتاج إلى كثير من البحث والتقصي، وصولاً إلى الحقيقة التأريخية، وخدمةً للمبادىء الحقة التي جاء بها ديننا الإسلامي الحنيف.

إن من أكثر الصعوبات التي يواجهها الباحث في مثل هذه الدراسات، هي تعدد لغات المستشرقين، فلأجل الاطلاع بشكل واضح على رؤى المستشرقين لا بد أن تترجم مؤلفاتهم، وتكمن الصعوبة في أن مؤلفات هؤلاء بلغات متعددة.

أما بشأن مصادر هذه الدراسة، فقد اعتمد الباحث على مجموعة كبيرة ومتنوعة من المصادر العربية والأجنبية المتخصصة بموضوع الدراسة. ففي ما يتعلق بالمصادر الأجنبية تقصَّى الباحث عن مؤلفات المستشرقين المتعلقة بتأريخ القرآن، واستطاع الوصول إلى مجموعة مهمة من تلك المؤلفات يقوم على رأسها كتاب (تأريخ القرآن) للمستشرق الألماني تيودور نولدكه، وهو كتاب بثلاثةِ أجزاء كان ولا يزال يمثل أساس الدراسات الاستشراقية في هذا التخصص، وكتاب (التطور التأريخي للقرآن) للمستشرق الإنكليزي إدوارد

سيل، وكتب المستشرق الفرنسي بلاشير (القرآن نزولهُ، تدوينهُ، ترجمته وتأثيره)، و(المدخل إلى القرآن)، فضلاً عن دراسات المستشرق الأمريكي آرثر جفري المتخصص بهذا المجال الذي خرجت على يديهِ مخطوطات مهمة مثل كتاب المصاحف وغيرها، أضف إلى هؤلاء المستشرق جون جلكرايست صاحب كتاب (جمع القرآن) وهو من المتخصصين البارزين بهذا الموضوع، ويمثل وجهة نظر الاستشراق المعاصر، لكونه صاحب أحدث مؤلفات استشراقية رجع إليها الباحث.

ويضاف إلى مؤلفات هؤلاء المستشرقين، اعتمادنا على مؤلفات آخرين غيرهم، أمثال (جولدتسهر ووليم ميور ومونتجمري وات وهاملتون جب وغيرهم)، فضلاً عن دوائر المعارف التي تكتب أساساً بأقلام أعلام المستشرقين كدائرة المعارف البريطانية، ودائرة معارف الأديان، ودائرة المعارف الإسلامية، والموسوعة الإسلامية الميسَّرة.

وأعتقد أن هذا القدر من الدراسات الاستشراقية قد وفَّر للباحث رؤية واضحة لطبيعة الموقف الاستشراقي من موضوع تأريخ القرآن.

كما أن الباحث قد اعتمد على مصادر عربية مهمة، يتصدرها جميعاً كتاب الله المجيد (القرآن الكريم) والعهد القديم من الكتاب المقدس (التوراة)، فضلاً عن كتب الحديث، التفسير القرآني، كتب السيرة، التاريخ، ودراسات عربية حديثة احتوت معلومات وتفسيرات قيمة أفادت الباحث كثيراً، ولا سيما تلك الدراسات التي حملت عنوان (تاريخ القرآن) لأبي عبد الله الزنجاني، والدكتور محمد حسين علي الصغير، والدكتور عبد الصبور شاهين، ومحمد صبيح، وخالد عبد الرحمٰن العك.

وبعد... فإن هذه الدراسة ما هي إلا محاولة لتتبُّع الرأي الغربي في كتاب الله تبارك وتعالى، والوقوف على أهم النقاط التي يثيرها الغرب، وبغية دفع طعون المستشرقين في النص القرآني من خلال تعرُّف نقاط اعتراضهم بدقة، ومناقشتها بأسلوب علمي يستند إلى الأدلة العقلية والنقلية الدالة على أن القرآن الكريم هو كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه.

ولا يسعني في هذا المقام، وبعد إنجاز هذا العمل، إلا أن اسأل

الله ـ جلت قدرته وعلا شأنه ـ أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم الدين، يوم يقوم الناس بين يدي رب العالمين ﴿... رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة/ ٢٨٦].

الفصل الأول

التطور التاريخي لعلاقة الاستشراق بالقرآن الكريم

نشوء العلاقة بين الغرب والشرق

نظرة الغرب إلى الشرق قديماً

إن كلمة (الشرق)، على الرغم من كثرة استعمالها منذ ألفي سنة على الأقل، ليس لها مفهوم واضح محدد وثابت، وهي لا تدل على الجهة التي تشرق منها الشمس، فكل بقعة من الأرض هي شرق وغرب في وقتٍ واحدٍ بحسبما يكون موقع الشخص الذي يتحدث عن هذه البقعة.

ويبدو أن (هيرودوت) كان يدرك مفهومي الشرق والغرب، ففي كتاباتهِ أطلق مفهوم الشرق على منطقة آسيا، ومفهوم الغرب على منطقة أوروبا، وعلى ما يبدو فإن هذا الإدراك جاء متأثراً بالحرب (الفارسية ـ اليونانية)، التي تركت تأثيراً عميقاً على اليونانيين، فجعلتهم ينظرون بأهمية بالغة إلى الرقعة الجغرافية الواقعة شرق بلادهم ويعبرون عنها بمفهوم الشرق[١].

وفي عهد الرومان، عندما كانت مدينة روما تمثل المركز الأهم في العالم الغربي، عُني بمفهوم (الشرق) البلاد الواقعة شرق إيطاليا، وتجلّى هذا الفهم بشكل واضح بعد انقسام الامبراطورية الرومانية عام (٣٩٥م) إلى الامبراطورية الغربية والامبراطورية الشرقية، وتبعهُ الخلاف المذهبي بين البابوية في روما وبين البطريركية في القسطنطينية ما أدى إلى قيام الكنيسة الشرقية (الأرثوذكسية) إلى جانب الكنيسة الغربية (الكاثوليكية)[٢].

ثم تطور الفهم الغربي للشرق، فصار بعد ظهور الإسلام، وتوسع دولة المسلمين، يطلق عموماً على البلاد الإسلامية. وأثناء الحروب الصليبية أصبح الدين الإسلامي رمزاً للشرق، وأوروبا المسيحية رمزاً للغرب. وهنا لا

---

(١) ينظر: محمد كامل عياد، «صفحات من تاريخ الاستشراق»، بحث منشور في مجلة المجمع العلمي العربي السوري، (سوريا ـ ١٩٦٥)، مج ٤٠، جـ ١، ص ١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٦٢، ١٦٣.

بد من الاعتراف بأن نظرة العالم الغربي للشرق، على الرغم من قدمها، إلا أنها لم تكن إلا مزيجاً من الشعور بالخوف، وعدم الاطمئنان من الشرق، وبأنهُ الآخر الذي لا بد من التغلب والتفوق عليهِ. ونتيجةً لهذا الشعور الذي ترسَّخ في أذهان الغرب بفعل عوامل تعددت على امتداد العصور الطويلة لهذهِ العلاقة، نظر الغرب إلى الشرق نظرة عداء وتعالٍ لم تستطع إزالتها من الذهنية الغربية حتى الأقلام المنصفة، والمؤثرة في القارىء الغربي، وكأن هذا الشعور أضحى شعوراً مكتسباً عند الغرب، كما يكتسب الوليدُ بالفطرةِ فن الرضاعة من صدر أمهِ.

بداية الاتصال الثقافي الغربي بالإسلام

يقول المستشرق الإنكليزي برنارد لويس[١]: «إن العرب وبعد أن فتحوا شمال أفريقيا، ساروا بانتصاراتهم إلى أوربا، واستعمروا إقليمين مهمين (إسبانيا وصقلية) مدةً طويلة، وأسسوا فيهما مدنية زاهرة أرقى بكثير من أية مدنية معاصرة لها آنذاك في البلاد المسيحية». إذن فالمدنية العربية التي أُقيمت في إسبانيا وصقلية، والتي سبقت قيام الحملات الصليبية، كانت بداية الاتصال الغربي ثقافيّاً بالإسلام، ذلك أن العالمين (الشرقي المسلم، والغربي المسيحي) لم يكونا بمستوىً واحد من النهوض والازدهار الفكري، إذ خيمت الظلال الدكناء والجهل المطبق على حياة الغرب، على عكس ما كان يمر بهِ العالم الإسلامي؛ ولذلك توجه طلاب العلم المسيحيون من بلادهم قاصدين الأندلس الإسلامية حيث مراكز العلم، فانكبوا على تعلم العربية على يد المعلمين المسلمين، حتى صارت العربية هدفاً لكل طالب علم غربي، وكان المسيحيون الذين تعلموا العربية يحظون بالاهتمام والتقدير بين أقرانهم[٢]. وقد عبَّرَ أحد المستشرقين عن فضل هذهِ اللغة وأهميتها بالنسبة لهم قائلاً: «في القسم الأول من القرن السابع التهب العرب حماسةً بدين جديد وبهرهم أمل الفتح في سبيل الله، فانقذفوا من جزيرتهم الماحلة الجدباء وانتشروا من إسبانيا إلى الهند وما وراءها، وقد حملوا معهم لغةً

(١) برنارد لويس: تأريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية، ط ٢، (بيروت ـ لا ـ ت)، ص ٣، ٤.

(٢) المصدر نفسهُ، ص ٤.

قُدِّر لها أن تصبح أداة أدب عظيم، لغةً كان من فخارها أنها صارت الواسطة التي نُقل بها أرسطو وجالينوس، اللذان كانا قد آلا إلى النسيان، نُقلا بها على قرون متعددة حتى استكشفا من جديد في لغتهما الأصلية[١].

إن اتصال الغرب بعلوم المسلمين، جعلهم يتعرفون مؤلفات يونانية ورومانية قديمة ولا سيما في مجال الفلسفة، قام العلماء المسلمون بنقلها إلى العربية والزيادة فيها، وبذلك عثروا على جزء مهم من حضارتهم كان العرب قد حافظوا عليهِ من الضياع، وهذا الأمر كان دافعاً آخر ومهمّاً لمواصلتهم الاتصال، والتعلم في مراكز العلم العربية.

وبينما كان بعض طلاب الغرب يتعلمون العربية، كانوا ينقلون ما تعلموه إلى اللغة اللاتينية التي لم تكن آنذاك أداة الطقوس الكنسية فحسب، بل كانت أداة العلم ووسيلة التخاطب بين المثقفين في عموم أوربا[٢]. وسرعان ما تأسست مراكز مهمة للترجمة من العربية إلى اللاتينية، كان من أبرزها مجمعٌ للمترجمين في مدينة طليطلة التي كانت من أكبر مراكز العلم عند العرب المسلمين في الأندلس، وكان هذا المجمع قد تأسس على يد رئيس أساقفة طليطلة ريموند (Raymond) في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي، فعهد ريموند برئاستهِ إلى شخص يدعى دومنيك كونديسالفي (Gondisalvi Dominic) وأسند إليهِ مهمة إعداد ترجمات لاتينية لأهم الكتب العربية في الفلسفة والعلوم. وكانت الطريقة المتبعة في هذا المجمع، بل الطريقة السائدة في العصور الوسطى، هي الاستفادة من خدمات المترجم الذي كان يضع الكلمة اللاتينية فوق الكلمة العربية التي في الأصل، وفي آخر مرحلة يراجع كبير المترجمين النص اللاتيني الذي كان يحمل اسم مراجعيه[٣]. ومن إسبانيا انتقلت حركة الترجمة هذهِ إلى إيطاليا واستمرت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي[٤].

---

(١) Arberry, A. J, British Orient lists, (London - 1946), P. 12.

(٢) أوليري دي لاسي: الفكر العربي ومركزهُ في التأريخ، ترجمة إسماعيل البيطار، دار الكتب اللبناني، (بيروت ـ ١٩٧٢)، ص ٢٣٣، ٢٣٤.

(٣) أوليري دي لاسي: الفكر العربي، ص ٢٣٤.

(٤) محمد كامل عياد: صفحات من تأريخ الاستشراق، ص ١٦٦.

وعلى ما يبدو فإن عملية التعلم على يد المسلمين، والترجمة من كتبهم، كانت قد بدأت عملية فردية غير منظمة خاضعة لرغبة كل فرد، وإمكانياته ورغبتهِ في التعلم، ثم تطورت إلى عملية منظمة تساهم فيها الدول الأوربية ورجال الكنيسة، تمثَّل ذلك في إرسال البعثات العلمية إلى الأندلس الإسلامية لدراسة العلوم، والفنون، والصناعات في معاهدها الكبرى، كالبعثة الفرنسية برئاسة الأميرة إليزابيث، ابنة خالة لويس السادس عشر ملك فرنسا، والبعثة الإنكليزية ترأستها الأميرة دوبان، ابنة الأمير جورج صاحب مقاطعة ويلز، والبعثة الإسبانية التي جمعت الطلاب من مقاطعات سفوا، والبافر، وساكسونيا، والراين، وقد بلغ عدد أفرادها سبعمائة طالب وطالبة، وتوالت البعثات على الأندلس من إنكلترا وفرنسا وإيطاليا ومناطق أخرى من أوربا وامتلأت بهم معاهد غرناطة وإشبيلية[١].

موقف الكنيسة المسيحية (الكاثوليكية) من الإسلام

لقد تمتعت الكنيسة[٢] المسيحية بسلطة كبيرة وواسعة على الفكر والثقافة في داخل المجتمع الأوربي خلال العصور الوسطى، وكانت الكنيسة أكبر بكثير من أية دولة في الغرب لا تسمح بأن تتدخل قوة في شؤونها، وكانت هي القابضة على زمام التعليم والفكر يومذاك، تضطهد كل من يخالفها في معتقدها أشد الاضطهاد، ولا سيما بعد أن أصبح السلطان والسلطة لها في عموم أوربا[٣].

---

(١) علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتأريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، (القاهرة ـ ١٩٨٨)، ص ٢٩.

(٢) كان نشوء الكنيسة المسيحية في الأيام الأخيرة من حياة الامبراطورية الرومانية، بعد أن امتدت رسالة المسيح ﷺ إلى أوربا واصطدمت بالمعتقد الروماني القديم «المعتقد الوثني»، فقامت بعد ذلك الكنيسة المسيحية التي قاست ألم الاضطهاد حيناً من الزمن، وتمكنت في أوائل القرن الرابع الميلادي من ضم الامبراطور قسطنطين إلى المسيحية فانتشرت في عموم أوربا. ينظر:

Painter, A History of the middle ages, (New york - 1954), PP. 11 - 20.

ينظر كذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٩، (القاهرة ـ ١٩٨٣) جـ ١، ص ٤٧ ـ ٦٩؛ علي حيدر سليمان: تأريخ الحضارة الأوروبية، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، (بغداد ـ ١٩٩٠)، ص ٢٥.

(٣) علي حيدر سليمان: تاريخ الحضارة الأوربية، ص ٢٤ ـ ٢٨.

فلما أقبل المسيحيون على دراسة اللغة العربية وعلوم المسلمين بشغف كبير، ظهرت علامات الخوف والفزع على علماء الدين المسيحيين ورجاله، وقد تبين هذا الأمر من خلال قول أحد الأساقفة لمعاصريه: «إن كثيراً من المسيحيين يقرؤون الشعر العربي، والقصص العربية، ويدرسون فلسفة المسلمين وفقههم لا لدحضها بل لإتقان العربية والتعبير بها ببلاغة وعذوبة، ولكنك لا تكاد تجد من يقرأ باللغة اللاتينية الكتب المقدسة أو من يدرس الإنجيل والأنبياء والرسل... إن الشباب المسيحيين الأذكياء لا يعرفون سوى اللغة العربية وآدابها، ويقولون بملء أصواتهم على مسمع من الكل إن هذهِ الآداب تستحق الإعجاب»[١].

لقد بدأ خوف الكنيسة من اهتمام أبنائها بالعربية والعلوم الإسلامية يزداد، وكان هذا الخوف أولى بذرات العداء المسيحي للإسلام، هذا العداء الذي قُدرَ لهُ أن يكون عداءً تأريخيّاً متواصلاً غير منتهٍ حتى يومنا هذا.

ونتيجةً لهذا الخوف والعداء تبنت الكنيسة سياسة صارمة، ومتشددة، اتخذت من محاربة الإسلام وإضعافه شعاراً لها، ووضعت كل إمكانياتها وطاقاتها في سبيل تحقيق هذا الهدف. فقد عملت على إبقاء المواطن الأوربي جاهلاً بحقيقة الدين الإسلامي، بعدما كانت تسيطر وتوجه كل معلومة تصل إلى أوربا، وتتحكم بالحركة الفكرية في المجتمع، وأفضل من وصفَ هذا الجهل المستشرق سذرن (Southern)[٢] عندما قال: «إذا ما نظرنا إلى الجهل المرتبط بالمكان المغلق، هذا هو نوع الجهل لرجل في سجن يسمع الشائعات عن أحداث خارجية ويحاول أن يشكِّل ما يسمعهُ بمساعدة أفكارهِ السابقة. الكُتَّاب الغربيون قبل (١١٠٠م) كانوا في هذا الوضع بما يخص الإسلام، لم يعرفوا شيئاً عن دين الإسلام، كان الإسلام بالنسبة لهم واحداً من عدد كبير من الأعداء الذين يهددون الدولة المسيحية من كل اتجاه».

---

(١) لمزيد من التفاصيل ينظر: إسحاق موسى الحسيني: الاستشراق نشأتهُ وتطورهُ وأهدافه، (بيروت - ١٩٦٧)، ص ٣؛ كراتشوفسكي: دراسات في تأريخ الأدب العربي، ط ٢، (موسكو - ١٩٦٥)، ص ٥٩.

(٢) Southern, R. W, Western Views of Islam in the Middle Ages, (Harvared - 1962), P. 14.

وفي الوقت نفسه توجهت أقلام بعض رجالها المتعصبين لتشويه صورة الإسلام الحقيقية، وبدأوا يروجون لفكرة أن دور الإسلام هو الظهور، والدعوة ضد المسيح ﷺ، وأن للإسلام أثراً مدمراً للأخلاق يمكن ملاحظته لو وُضِعَ جنباً إلى جنب مع الأخلاق المسيحية(١).

هذا الموقف المتعصب، قد تشكل، كما أسلفنا، نتيجة القلق والخوف من انتشار الإسلام في أوربا، فشعر بعض رجال الدين أن من واجبهم أن ينبهوا إخوانهم إلى الخطر الداهم، وهكذا لم يكن من الصعب عليهم أن يجدوا في الإسلام ومؤسسهِ آثار مؤامرة مدبرة ضد المسيحية(٢).

كيف تعرَّفَ الغرب على الإسلام

إن أهم الطرق التي تعرَّف من خلالها الغرب الإسلام، هي اتصالهُ بالأندلس، والتعلم في مدارسها العربية، والاختلاط بمعلميها وطلابها المسلمين، وقد تعرضنا لهذا الموضوع، وذكرنا أن هذا الاهتمام كان يزعج ويفزع الكنيسة المسيحية في أوربا، ثم قامت الحملات الصليبية، وحصل الاحتكاك المباشر بين الصليبيين والمسلمين، هذا الاحتكاك الذي استمر قرابة قرنين من الزمن، تخللتها أوقات للحرب وأخرى للسلم، ومما لا شك فيه أن هذا الاحتكاك أدى إلى تعرُّف الغرب الإسلام أكثر، لا بل والتأثر بعادات المجتمع الشرقي المسلم وتقاليدهِ وحياتهِ(٣)، ولكن هذه المعرفة لسوء الحظ لم تكن في ظروف إيجابية، بل في ظل حروب، وتنافس شديد بين احتلال صليبي، وتحرير إسلامي، ومن الطبيعي أن تكون الرؤية المسيحية في ظل مثل هذه الأجواء مليئة بالحقد والكراهية، ولا سيما أن رجال الدين كانوا يساهمون كثيراً في تغذية هذا التيار المعادي.

وعلى ما يبدو فإن بيزنطة أو المصادر البيزنطية قد ساهمت في نقل

---

(١) Southern, Western Views of Islam, P. 22.

(٢) Ibid, P. 25.

(٣) للتفصيل عن الحملات الصليبية وتأثر الصليبيين بالشرق الإسلامي ينظر: ستيفن رنسيمان: تأريخ الحروب الصليبية، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت ـ ١٩٦٧)، جـ ١، ص ٨٨؛ سعيد عبد الفتاح عاشور: أوربا العصور الوسطى، جـ ١، ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

معلومات غير صحيحة عن الإسلام إلى غرب أوربا، جاء ذلك نتيجةً لنظرة العداء البيزنطي للإسلام، التي تشكلت بعد أن انتزع المسلمون من الدولة البيزنطية (أي الدولة الرومانية الشرقية) بعض المدن والأراضي المهمة، كما أن عقيدة الإسلام التوحيدية تعارض عقيدة البيزنطيين التي تدعو إلى التثليث، ولهذا عدَّ البيزنطيون الإسلام خطراً يهددهم، فتوجهوا إلى تجريح عقيدتهِ ونقل صورة غير صادقة عنهُ إلى غرب أوربا(١).

المستشرقون ودراسة القرآن الكريم

بداية العمل الاستشراقي

بدايةً لا بد من تعريف دقيق يوضح مفهوم الاستشراق، هذا المفهوم الذي تعددت وتنوعت عبارات المفكرين والكُتَّاب في بيان معناه(٢). فالاستشراق هو التخصص في دراسة الشرق سواء أكانت الدراسة تتعلق بعلوم المجتمع الشرقي أم بفنونه أو تراثه أو تأريخه أو ديانته أو عاداته، مع ضرورة توفر أداة الدراسة، وهي (إتقان اللغات الشرقية). ومع أن هذا التعريف لا ينطبق تماماً على كل من مارس العمل الاستشراقي في العصور الوسطى، إذ افتقرَ الكثير منهم إلى ذلك التخصص العلمي أو إتقان تلك اللغات الشرقية.

ومن الصعب جدّاً تحديد تأريخ معيَّن لبداية العمل الاستشراقي، ولكن

---

(١) ينظر: صلاح الدين خودابخش: الحضارة الإسلامية، ترجمة علي حسني الخربوطلي، (بيروت ـ ١٩٧١)، ص ٣٩؛ كذلك: Southern, Western Views of Islam, P. 29.

(٢) للاطلاع على هذهِ التعريفات ينظر: رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية في الجامعة الألمانية، ترجمة مصطفى ماهر، (القاهرة ـ ١٩٦٧)، ص ١١؛ عمر فروخ: المستشرقون ما لهم وما عليهم، مجلة الاستشراق، (العراق ـ ١٩٨٧)، العدد الأول، ص ٥٤؛ محمد فتح الله الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها، (ليبيا ـ ١٩٨٣)، ص ٥٥؛ سالم حميش: الاستشراق بين أفق انسداده، (الرباط ـ ١٩٩١)، ص ٩٣ ـ ٩٦؛ عبد المنعم محمد حسنين: الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوتهِ، مجلة الجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة ـ ١٩٧٧)، العدد الثاني، ص ٨٠؛ مالك بن نبي: إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، (القاهرة ـ ١٩٧٠)، ص ٢٥؛ محمد غلاب: نظرات استشراقية في الإسلام، (القاهرة ـ لا . ت)، ص ٨.

بإمكاننا الاعتماد على مجموعة من المعطيات للوصول إلى المدة التي فيها بدأ العمل الاستشراقي، ومن تلك المعطيات:

أولاً: إن المؤلفات الاستشراقية الأولى التي وصلت إلينا، أو إشارات المصادر الحديثة إليها، غلب عليها الطابع العدائي الحاقد على الإسلام، ونبيهِ الكريم محمد ﷺ[(١)]، وأعتقد أن هذهِ الدرجة من العدائية ما كانت لتظهر بهذا المستوى لو أن هذهِ المؤلفات كتبت في ظل الظروف الطبيعية. وعليهِ فلا بد من القول إنها كُتبت خلال حملات الصليبيين على الشرق الإسلامي وفي ظل احتدام الصراع المسيحي ـ الإسلامي، إذ النظرة العدائية المسيحية إلى الإسلام.

ثانياً: سبق قيام الحروب الصليبية، إذ ظهر منذُ القرن الثامن الميلادي توجه مسيحي نحو بلاد الأندلس الإسلامية للدراسة والتعلم على يد المعلمين المسلمين، وكان من ثمار هذ التوجه أن أُعجب الطالب المسيحي بلغة العرب وعلومهم، ولكننا في الوقت عينه لا نجد هذا الإعجاب مسطراً في إحدى المؤلفات الاستشراقية القديمة، ومن ثَم نستطيع القول إن العمل الاستشراقي لم يبدأ إلا في ظل ظروف الحروب الصليبية.

إذن، العمل الاستشراقي نشأ في ظل الحروب الصليبية وكان خاضعاً لتوجيه رجال الدين المسيحيين ورقابتهم، وقد ذكرت بعض المصادر التأريخية أن القرن الثاني عشر الميلادي شهد ظهور كتب تناولت الإسلام ونبيه الكريم ﷺ، حفلت بالاتهامات والشتائم، ومن بين أولى الكتابات، كانت كتابات بيتر فينيرايبل (Peter Venerable) وهو من أشهر رجال الدين المتعصبين، قام بحملة واسعة لمحاربة الإسلام، وآراؤه أن تكون نقطة البداية في هذهِ الحرب هي القرآن الكريم، فكانت مؤلفات بيتر المنبع الذي استقى منهُ كُتَّاب العصور الوسطى كتاباتهم عن الإسلام[(٢)].

وممن أساء إلى الإسلام والرسول الكريم ﷺ من مستشرقي العصور

---

(١) ينظر: خودابخش: الحضارة الإسلامية، ص ٤٦ ـ ٤٩؛ علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتأريخ الإسلامي، ص ٥٦ ـ ٥٨.

(٢) علي حسني الخربوطلي: المستشرقون والتأريخ الإسلامي، ص ٥٧.

الوسطى أيضاً، جيبرت أوف نوجنت (Guibert of Nogent) الذي جمع ما كان شائعاً بين مجتمع العصور الوسطى من أساطير وقصص ليؤلف منها نسيجاً واحداً لحياة الرسول ﷺ، فكانت مجموعة من الأساطير الوضيعة، نطلع على جزء منها لنرى رؤية الغرب للإسلام ونبيهِ الكريم خلال تلك العصور. فقد زعم جيبرت في كتاباتهِ هذهِ: «إن ناسكاً مشكوكاً في عقيدتهِ وأخلاقهِ حاول عبثاً أن يصل إلى منصب بطريرك الإسكندرية، فلما فشلت محاولاته أراد الانتقام من الكنيسة، ولجأ إلى العزلة، واستطاع شيطان أن يتقمص روحه المريضة ونصحهُ أن يستخدم من أجل تحقيق أغراضهِ الشريرة شابّاً ما لبث أن قدَّمهُ إليهِ، ولم يكن هذا الشاب سوى محمد. واستطاع الناسك أن يُسخِّر محمداً لتحقيق أغراضه الشريرة وساعدهُ في الزواج من خديجة، وما لبث محمدٌ أن أُصيب بنوبات من الصرع مما جعل خديجة تشعر بالخوف فأسرعت إلى ذلك الناسك لتجد تفسيراً لمرضهِ، فأكد لها أن ما تظنهُ نوبة صرع ما هو في الحقيقة إلا صورة لنزول الوحي، وما لبث أن ذاعت شهرة محمد باعتباره نبيّاً، وما لبث هذا الراهب أن اقترح على محمد أن يجعل تعاليمهُ على شكل كتاب سماوي ويعززهُ بمعجزة، وأمر محمد المؤمنين بهِ أن يصوموا ثلاثة أيام، ثم أعلن في هدوء أنهُ سيريهم كيف ينزلُ الوحي، وفجأةً ظهرت بقرة وانتزعت من بين قرنيها كتاباً منزلاً وركعت البقرة أمام النبي»[١]. ومنذُ ذلك الحين كما يقول جيبرت لم يشك أحد في صدق نبوة محمد، وانتشرت الدعوة الجديدة بين الناس[٢].

ولسنا بحاجة للرد على مثل هذهِ الكتابات الساذجة التي إن دلت على شيء إنما تدل على تفاهة منشئيها، وخرافية من يتداولها قبل دلالتها على أهدافها وبواعثها العدوانية، ناهيك عن اعتراف صاحبها (جيبرت) بأنهُ لم يعتمد على مصدرٍ مكتوب فيما كتبهُ عن الرسول محمد ﷺ، وإنما اكتفى بما كان شائعاً في الأدب الشعبي القروسطي[٣]، هذا الأدب الذي نظر إلى

---

(١) Southern, Western View of Islam, P. 31, 32.

(٢) ينظر كذلك: Ibid, P. 32. خودابخش، الحضارة الإسلامية، ص ٤٦ ـ ٤٧.

(٣) أي: القرون الوسطى Ibid, P. 31.

المسلمين على أنهم وثنيون، وإلى النبي محمد ﷺ على أنهُ ساحرٌ وشخصٌ فاسدٌ وزعيم شعب فاسد[١].

وقد صدق الدكتور عرفان عبد الحميد[٢] في تصوير هذهِ النظرة بقولهِ: «وصوَّروا النبي محمداً ﷺ أبشع تصوير.. بأنهُ كاردينال منشق على البابوية طمع في كرسيها فلما خابت آمالهُ ادَّعى النبوة، وصوَّروهُ لصّاً، وقاتلاً وزير نساء وساحراً، ودجالاً، وخائناً، وفاجراً، وشيطاناً وإرهابيّاً يشيع الموت وينشر الدمار، وداعية إباحية اتخذ من شيوعية المرأة وسيلة لهدم الكنيسة المسيحية وفضائل الأخلاق». هذهِ الصورة المشوهة للإسلام ونبيهِ الكريم، تكونت بسبب المعلومات غير الصحيحة التي وصلت إلى أوربا بواسطة الطرق التي ذكرناها، وبتأثير الكنيسة المسيحية الكاثوليكية وتوجيه رجالها المتعصبين في ظل الاعتقاد الأوربي آنذاك بأن الشرق الإسلامي هو العدو الأول للمسيحية والغرب.

وفي ظل هذا التشوية كان الاهتمام الغربي بالقرآن الكريم ومحاولة استكشاف ما فيه مهمة على قدر كبير من الأهمية بالنسبة للكنيسة، وقد حاول شخص يدعى (نيكولاس القوسي) أن يجزىء القرآن أجزاء، واعتقد أنهُ اكتشف أن هناك ثلاثة خطوط رئيسة قد أدت إلى تشكيل القرآن الكريم:

الأول: معلومات أخذت عن المسيحية النسطورية.

الثاني: مشاعر ضد المسيحية قدَّمها أحد المستشارين اليهود إلى محمد ﷺ.

الثالث: التشويهات التي حدثت بعد موت محمد ﷺ على يد المصححين[٣].

وهذهِ المحاولة التي وصفت (بالاكتشاف) قد فتحت المجال ليتسع فيما

---

(١) هشام جعيط: أوربا والإسلام صِدام الثقافة والحداثة، دار الطليعة للطباعة والنشر، (بيروت ـ ١٩٩٥)، ص ١٢.

(٢) عرفان عبد الحميد فتاح: المستشرقون في الإسلام، (بغداد ـ ١٩٦٩)، ص ٦.

(٣) Southern, Western Views of Islam, P. 93, 94.

بعد اتساعاً كبيراً، ولا سيما ما يخص منها تناول المواضيع التي فصلت الإسلام عن المسيحية[١].

الترجمة الأولى للقرآن الكريم

لقد أدرك رجال الدين المسيحيون أهمية القرآن الكريم، وضرورة التعرُّف على ما فيهِ، منذُ بداية احتكاك العالم الغربي بالإسلام، ولكن عدم إتقان الغالبية العظمى منهم العربية، عطل عليهم هذا القصد حتى جاء بيتر فينيرايبل (Peter Venerable) وهو راهب، ولاهوتي فرنسي تولى رئاسة دير كلوني في الثلاثين من عمرهِ عام (١١٢٢م)، وفي رحلتهِ الثانية إلى إسبانيا سنة (١١٤١م)، اهتم كثيراً بأحوال المستعربين الكاثوليك القاطنين في إسبانيا والذين يتكلمون العربية، واعتقد بأنه يستطيع أن يقدم خدماتهِ للعالم المسيحي بوساطة ترجمتهِ القرآن الكريم إلى اللاتينية[٢]، ومن أجل هذا لجأ إلى مجمع للمترجمين في طليطلة أنشأه (ريموند) أسقف طليطلة، وكلف بهذا العمل الهام بطرس الطليطلي وشخصين آخرين ذوي معارف شاملة، هما هرمن الدلماشي (Hermann de Dalmatie)، والقس الإنكليزي روبرت كنت (Robert Kennet) وأشرك معهم شخصاً عربيّاً مسلماً اسمهُ «محمد»، ولا يعرف لهُ لقب ولا كنية ولا أي اسم آخر، ومهمته هي مراجعة الترجمة على النص الأصلي، وكذلك أن يترجم من العربية إلى الإسبانية الشعبية، ويتولى الآخرون باقي أعمال الترجمة، ولا نعرف بالضبط مهمة كل واحد منهم، كذلك أشرك مع هؤلاء الأربعة سكرتيرهُ الشخصي ويدعى (بطرس) لمراجعة الترجمة في شكلها اللاتيني بعد الانتهاء منها[٣].

وهكذا أنجزت أول ترجمة للقرآن الكريم في سنة (١١٤٣م)[٤] إلا أن هذهِ الترجمة لم يسمح بالاطلاع عليها إلا لبعض رجال الكنيسة الكاثوليك، ويبدو أن السبب في هذا الحرص على عدم إطلاع عموم المسيحيين عليها، هو

---

(١) Southern, Western Vieus of Islam, P. 94.

(٢) عبد الرحمٰن بدوي: موسوعة المستشرقين، ط ٣، (بيروت ـ ١٩٩٣)، ص ١١٠.

(٣) المرجع السابق: ص ١١٠.

(٤) أبو عبد الله الزنجاني: تأريخ القرآن، مطبعة لجنة التأليف، (القاهرة ـ ١٩٣٥)، ص ٦٩.

الخوف من أن يكون ذلك الاطلاع عاملاً من شأنهِ أن يسهل في تعرُّف الإسلام، وانتشار هذا الدين بدلاً من أن تخدم هذهِ الترجمة الهدف الذي سعت إليهِ الكنيسة أصلاً، وهو محاربة الإسلام وتشويه صورتهِ فكرياً[١].

وعلى الرغم من أن هذهِ الترجمة لم تكن بمستوى عالٍ من الدقة والجودة، بل كانت أقرب إلى التلخيص الموسَّع، ولم تلتزم بالنص دقةً، وحرفية، ولم تلتزم بترتيب الجملة في الأصل العربي، وإنما هي تستلخص المعنى الشامل في أجزاء السورة الواحدة وتُعبِّر عن هذا بترتيب من عند المترجم، وعلى الرغم من هذا العيب الكلي، والأخطاء الجزئية في فهم بعض الآيات[٢]، فإن هذهِ الترجمة ظلت معتمداً عليها لدى الكنيسة الكاثوليكية مستفيدةً منها في الرد على الإسلام، وكان بيتر هذا من أوائل أولئك الذين ألفوا الكتب في إطار هذا التوجه، وكان مؤلفهُ هذا يقع في أربعة كتب:

الأول: يبحث في حفظ اليهود والنصارى لكتبهم المقدسة.

الثاني: يبحث في حياة النبي ﷺ والقرآن للطعن فيهما.

الثالث: يتناول خلو حياة النبي ﷺ من المعجزات.

الرابع: يستمر في هذهِ المطاعن وفيما يزعمهُ في أصولها المبتدعة[٣].

وبقيت مخطوطة الترجمة الأولى ضمن محفوظات دير كلوني، تحت رقابة الكنيسة التي لم تسمح بطبعها، ونشرها على مدى أربعة قرون من تأريخ ترجمتها[٤]. وقد نشرت أول مرة في سنة (١٥٤٣م) بعد أن عثر الطباع ببلياندر (Bibliander) على نسخة من المخطوطة في منطقة بازل بـ (سويسرا)، فبادر إلى طبعها ليعتمد عليها أساساً للترجمات اللاحقة في عدد من اللغات الأوربية[٥]. ومما ذكر أيضاً أن البابا بولص الثالث قام بحملة لإتلاف النُّسخ

---

(١) محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، (بيروت ـ ١٩٨٠)، ص ٩٥.

(٢) عبد الرحمٰن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٤٤٢..

(٣) المرجع السابق: ص ١١١.

(٤) محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص ٩٥.

(٥) George, Sale, The Koran, (London - 1921), P. ix.

المطبوعة من القرآن ولم يسمح بمعاودة طباعة ترجمة القرآن باللاتينية إلا في عهد البابا ألكسندر السابع (١٥٥٥ ـ ١٥٦٧م)[١].

ثم توالت الترجمات الكثيرة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر باللغات اللاتينية، والفرنسية، والإنكليزية[٢]. فبالنسبة للترجمات اللاتينية، كانت الترجمة التي أنجزها مراتشي (Marracci)[٣] ونشرت في Padua عام (١٦٩٨م) من أهم الترجمات الأوربية الأولى؛ لكونها قد اعتمدت على النص الأصلي العربي للقرآن، فضلاً عن ذلك الشروح التفسيرية التي أخذت أيضاً من الكُتَّاب العرب، كما صاحَبَ هذهِ الترجمةَ مجلدٌ أسماه (Prodromus) احتوى معلومات مهمة عن النبي محمد ﷺ ودين الإسلام[٤].

أما الترجمات الأخرى باللغات الأوربية، فهي ترجمات متعددة، وكثيرة[٥]، تقف في مقدمتها ترجمة جورج سيل الإنكليزية للقرآن الكريم، وهي من أوائل الترجمات الأوربية وأهمها، فمنذُ أن نُشرت أول مرة في لندن عام (١٧٣٤م) وهي تحظى بانتشار واسع منذُ ذلك التأريخ وحتى الآن، ومما يدلل على هذهِ الأهمية، والقبول لدى القارىء الغربي، أنها طبعت لأكثر من ست وعشرين مرة، وأن الكثير من الطبعات الأوربية قامت على غرارها. ويبدو أن السبب في هذهِ الشهرة، والقبول الواسع راجع إلى الأسلوب الواضح الذي تمتعت بهِ هذهِ الترجمة في ترجمة الآيات القرآنية الكريمة، فضلاً عن تزويدها بالتفاسير والملاحظات التوضيحية، مما جعل منها مادة أساساً عند طالب العلم الإنكليزي والغربي في دراستهِ التمهيدية للإسلام، كما أنها قد حفلت بفصل تمهيدي يستعرض تأريخ العرب قبل ظهور الإسلام، وبعد ظهورهِ، وعن القرآن الكريم، وسيرة النبي ﷺ اعتماداً على كتاب (المختار من تأريخ العرب) للمستشرق الإنكليزي إدوارد بوكوك

---

(١) محمد صالح البنداق، المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص ٩٦.

(٢) George, Sale, The Koran, p. v.

(٣) هو لودوفكو مراتشي (Ludovico Marracci) راهب ألماني. لمزيد من التفاصيل ينظر: عبد الرحمٰن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٣٥٨.

(٤) George, Sale, the Koran, P. ix.

(٥) للاطلاع على جميع الترجمات الأوربية للقرآن الكريم يمكن مراجعة جدولٍ بذلك: ينظر: محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ملاحق الكتاب.

(E. Pocoke)[١] وصاحب هذهِ الترجمة الشهيرة هو المستشرق الإنكليزي جورج سيل (George Sale)[٢].

التوجه الاستشراقي إلى دراسة تأريخ القرآن الكريم

لقد أدى النشاط الاستشراقي المتمثل بترجمة القرآن الكريم للغات الأوربية، إلى تعريف الباحث والقارىء الغربي بمضمون القرآن، ولعل هذا التعريف قد أثار في الفكر الاستشراقي تساؤلات كثيرة تخص القرآن وعلومه، تساؤلات تبحث في مصدر القرآن هل هو إلهي أم بشري؟ وتبحث في الترتيب النزولي لآياتهِ وسورهِ، وتبحث في جمع القرآن وتدوينهِ، وتبحث في تعدد القراءات وكل ما يتعلق بتأريخ القرآن وعلومهِ، ولذلك ظهرت في العصر الحديث مجموعة من الدراسات الاستشراقية المهمة سلطت الضوء على هذهِ التساؤلات وحاولات أن تبحث لها عن إجابات. وبغض النظر عن نتائج هذهِ الدراسات التي قد لا تتوافق بعضها مع الفكر الإسلامي، فإنها كانت دراسات علمية اعتمدت على المصادر الإسلامية وناقشت رواياتها بنفس علمي في أحيان كثيرة. ولعل ما يفيدنا في هذا البحث أن نعتمد على الدراسات الاستشراقية القريبة من الروح العلمية الصادرة من المتخصصين العلميين أو الجامعيين أكثر من اعتمادنا على الدراسات المتعصبة.

ويبدو أن هذا النوع من الدراسات الاستشراقية قد ظهر في القرن التاسع عشر الميلادي استجابةً لمتطلبات الفكر الاستشراقي وما وصل إليهِ من تصور ورؤى متعلقة بالإسلام، وقد يكون لبعض الدراسات السابقة ذات

---

(١) ينظر: محمد صالح البنداق: المستشرقون وترجمة القرآن الكريم، ص ١٦١؛ عبد الرحمٰن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٤٤٤؛ كذلك ينظر:

George, Sale, The Koran, P. 1x.

(٢) ولد المستشرق الإنكليزي جورج سيل في لندن عام (١٦٩٧م) وفيها توفي عام (١٧٣٦م)، وكان قد التحق عام (١٧٢٠م) بجمعية تنمية المعرفة المسيحية، وفي (١٧٢٦م) أصبح أحد المصححين للترجمة العربية للعهد الجديد، ثم صار المسؤول عن هذا العمل، ومما يذكر أنهُ تعلم العربية على يد اثنين من العرب الذين كانوا قد قدموا إلى بريطانيا آنذاك. ينظر: نجيب عقيقي: المستشرقون، ط ٤، (القاهرة ـ ١٩٤٦)، جـ ٢ ص ٤٧؛ عبد الرحمٰن بدوي: موسوعة المستشرقين، ص ٣٥٨.

الموضوعات المرتبطة بالقرآن الأثر الكبير في هذا الظهور، فعلى سبيل المثال: ـ ثناء المستشرق الألماني تيودور نولدكه المتخصص بتأريخ القرآن على كتاب[1] المستشرق إبراهام جايجر (ماذا اقتبس محمد من اليهودية؟) وتصريحهُ بالاستفادة من الملاحظات الذكية التي وردت فيه[2].

إن أول من تخصص في دراسة تأريخ القرآن الكريم من المستشرقين هو المستشرق الفرنسي بوتيه (١٨٠٠ ـ ١٨٨٣م) الذي عكف على هذهِ الدراسة وبحث تأثير القرآن بما يقدمه من معرفة عن الديانات السابقة، والظروف التي أحاطت بنزولهِ وغايتهِ، والعقائد الموافقة، والمضادة لهُ في غيره من الأديان، كما بحث المذاهب التي نشأت عنهُ لدى المسلمين، وكانت دراسة بوتيه هذهِ قد نشرت في باريس سنة (١٨٤٠م)[3].

وجاء بعد بوتيه المستشرق الألماني جوستاف فايل (١٨٠٨ ـ ١٨٨٩م) صاحب كتاب (مدخل تأريخي نقدي إلى القرآن)، الذي تناول هذا الموضوع بصورة أكثر شمولية وسعة، كما يعد فايل أول من طبق في كتابهِ فكرة تقسيم السور المكية إلى ثلاث مجموعات[4] فكانت هذهِ الفكرة بدايةً لمشروع كبير طبقهُ نولدكه فيما بعد.

ثم جاء المستشرق الألماني تيودور نولدكه (Theodor Noldeke) (١٨٣٦ ـ ١٩٣٠م) ليتخصص في موضوع تأريخ القرآن، فكان الأبرز والأهم بين من تخصص في الدراسات القرآنية من المستشرقين، بفضل الدراسات المهمة التي نشرها، ولا سيما مؤلفه الأول (حول نشوء وتركيب السور القرآنية) الذي أنجزهُ عام (١٨٥٦م) فعُدَّ أطروحةً للدكتوراه، ولكنهُ سرعان ما حكم عليهِ بأنهُ عمل غير ناضج، ولذلك قام بإبدال العنوان إلى (تأريخ القرآن)

(١) Geiger, Abraham, was hat Mahammad aus dem Judentum aufgenommen, (Leipzig - 1902).

(٢) عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، (مالطة ـ ١٩٩١)، ص ٨٥.

(٣) محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (لبنان ـ ١٩٨٣)، ص ٢٧.

(٤) المصدر نفسهُ، ص ٢٧، ٢٨.

وأدخل فيه تعديلات جوهرية[١]، ثم قام بترجمتهِ من اللاتينية إلى اللغة الأم (اللغة الألمانية) ونشرهِ عام (١٨٦٠م).

وتكمن شهرة هذا الكتاب وأهميته بفضل محاولة نولدكه وبمنهج علمي أن يعالج مشكلة تأريخ السور، والآيات القرآنية، وأن يتوصل من خلال مجموعة من المعطيات إلى تأريخ كل سورة وآية قرآنية. وبغض النظر عن طبيعة النتائج العلمية التي توصل إليها صاحب الكتاب، والتساؤلات التي لم تحسم بإجابات قاطعة أحياناً، (مثلما صرح بذلك نولدكه قبل وفاتهِ بوقت قصير، بعد أن سئل: هل يشعر بالندم لأنهُ قضى معظم سنوات حياتهِ في هذا التخصص، ولم يعكف على دراسة علم يعود بالفائدة العلمية على الجنس البشري، كدراسة الطب أو الزراعة أو أي فرع غير الدين واللغات والفلسفة؟ فأجاب: إذا كان من ندم فلأنني درستُ علوماً لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة)[٢]. عُدَ هذا الكتاب الأساس الذي بنى عليهِ من جاء بعدهُ من الباحثين المستشرقين في تأريخ القرآن.

فقد جدد المستشرق الألماني (شواللي) طبع كتاب نولدكه بعد تحقيقهِ والتعليق عليه ونشره في جزأين عام (١٩١٩م). وفي عام (١٩٣٥م) نشر المستشرقان (براجشتراسد وبرتسل) الجزء الثالث منه[٣]، فجاء الكتاب في ثلاثة أجزاء، أي إن نولدكه لم يكمل العمل وحده.

كان عنوان الجزء الأول (حول نشوء القرآن) الذي تناول حياة الرسول الكريم محمد ﷺ ورسالته، بدءاً من نزول الوحي على النبي، ثم تتبع نزول الآيات والسور مقسّماً إياها أربع مراحل:

المرحلة الأولى: ويحدد لها زمنيّاً من السنة الأولى لنزول الوحي وحتى السنة الخامسة من البعثة.

---

(١) ينظر: عمر لطفي العالم: المستشرقون، ص ١٤٩، ١٥٠.

(٢) وردت هذهِ العبارة في مقالة للمستشرق الهولندي سنوك هورجرونين نشرت في مجلة جمعية المستشرقين الألمان في الذكرى الأولى لوفاة نولدكه، نقلاً عن: عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن، ص ٧.

(٣) ينظر: محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، ص ٢٨.

المرحلة الثانية: من السنة الخامسة إلى السنة السادسة من البعثة.

المرحلة الثالثة: من السنة السابعة من البعثة إلى الهجرة النبوية الشريفة إلىٰ مدينة يثرب سنة (٦٢٢م).

المرحلة الرابعة: من الهجرة النبوية حتى وفاة النبي ﷺ التي يعبَّر عنها بالسور المدنية، في حين أن المراحل الثلاث السابقة يعبَّر عنها بالسور المكية[١].

فيما يتناول الجزء الثاني من الكتاب، موضوعات تتعلق بجمع القرآن الكريم أهمها:

- كيف حفظت مواد جمع القرآن في عهد النبي محمد ﷺ.
- حَفَظة القرآن «الحفظ في الصدور».
- جمع القرآن كتابةً (الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام جامعاً للقرآن).
- زيد بن ثابت والمواد الموروثة عن النبي ﷺ وكيف جمع القرآن أول مرة.
- أُبَيُّ بن كعب ونسخته في جمع القرآن.
- عبد الله بن مسعود ونسخته في جمع القرآن.
- توحيد النص القرآني في خلافة عثمان بن عفان.
- التحريف المزعوم لنص القرآن في عهد أبي بكر وعثمان.
- موقف المذاهب الإسلامية من عمل عثمان[٢].

وتناول الجزء الثالث الموضوعات الآتية:

- أخطاء النص العثماني للقرآن.
- مميزات خط كتابة النص القرآني (العثماني).
- القراءات والقُرَّاء الأوائل.

---

(١) Noldeke, Theodor, Geschichte des Qorans, (Germany - 1909), Vol - 1; L. W. Winter, Der Koran, (Munchen - 1964), P. 8.

(٢) Noldeke, Geschichte des Qorans, Vol. 2.

- التطور التأريخي للقراءات وأنواعها.
- حول التجويد، وحول التوقف في القراءة.
- حول عدد الآيات، وموضوعات أخرى كثيرة[١].

وعلى ما يبدو أن المستشرق الإنكليزي السير وليم ميور (Sir William Muir) قد زامن نولدكه عندما وضع كتابه الشهير (حياة محمد)[٢] عام (١٨٦١م)، الذي تناول فيه أيضاً مشكلة التسلسل الزمني لنزول آيات القرآن وسورهِ، وموضوع حفظهِ وتدوينه، وأثار تساؤلات كثيرة بهذا الشأن، ومن الطبيعي أن يؤكد ميور في كتابهِ هذا على القرآن الكريم لكونه أهم مصادر سيرة النبي محمد ﷺ، المصادر التي حاول ميور أن يشكك في مصداقيتها ويعيب على المسلمين التأخر في تدوينها. ويصف أحداث السيرة التي حوتها بأنها أسطورية لاحتوائها على عدد من الأساطير، مثل سطوع ضوء محمد وتطهير قلبهِ، وأنها تراثية طالما أن المادة الرئيسة لها يرويها الترتيل الشفوي الذي لم يتم تدوينهُ إلى أن بلغ الإسلام نضجهُ التام[٣].

كما أن ميور كانت لهُ مؤلفات مهمة أُخرى تخص القرآن، والدولة العربية الإسلامية، منها كتاب (شهادة القرآن على الكتب اليهودية والمسيحية) الذي حاول فيه أن يبين أن على المسلمين الإقرار بشهادة القرآن في آياتهِ على صحة التوراة والإنجيل كما هما في نصوصهما الحالية[٤].

ومن المفيد القول بأن ميور كان ممن يحظون باحترام الأوساط الاستشراقية وقبولها، كما أن كتاباتهِ كانت تُعد من المراجع الإنكليزية المهمة في تأريخ الإسلام، ويرجع إليها طلاب الجامعات الإنكليزية[٥].

ولم تمض سنوات طويلة على أعمال نولدكه وميور، حتى نشر المستشرق الإنكليزي إدوارد سيل (Edward Sell) كتابهُ المهم والمُعزز للدراسات القرآنية

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, Vol. 3.

(٢) Sir william Muir, The life of Mohammed from original sources, (Edinburgh - 1923).

(٣) Ibid, P. XIII.

(٤) Ibid, P. XIV.

(٥) برنارد لويس: تأريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية، ص ٣٠.

بعنوان (التطور التأريخي للقرآن)[١] عام (١٨٩٨م)، الذي حاول فيه أن يعيد ترتيب الآيات والسور القرآنية بترتيب تعاقبي بحسب تأريخ نزولها، مستنداً في هذا العمل إلى مقارنة الحقائق التأريخية في حياة النبي ﷺ مع ما جاء في القرآن الكريم، وصولاً إلى توضيح الطريقة التدريجية التي ظهر بها القرآن[٢].

وبالانتقال إلى بدايات القرن العشرين، نجد أن المستشرق الفرنسي ريجيس بلاشير (Regis Blachere) المولود سنة (١٩٠٠م)، الذي أخذ يبحث في موضوع تأريخ القرآن، وأصدر مجموعة من الدراسات المهمة في هذا المجال، فكان على رأسها كتاب (القرآن. نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره)، وقد ترجمهُ إلى العربية رضا سعادة، وكتاب آخر غير مترجم هو (المدخل إلى القرآن)[٣]، إذ ركز فيهما على عدة موضوعات في تأريخ القرآن، كتدوين الآيات والسور القرآنية خلال العهد النبوي، وتقسيم القرآن أجزاءً وسوراً، وناقش الروايات الإسلامية المتعلقة بجمع القرآن الكريم، كما استعرض أبرز جامعي القرآن على عهد النبي ﷺ، وتطرق بالتفصيل إلى التحريفات المزعومة في القرآن. وعلى ما يبدو فإن بلاشير لم يخرج في كتاباته خارج نطاق التأثر بالمتخصص الأول نولدكه، فقد سايرهُ واتفق معه في كثير من آرائه وتحليلاته، كما سنلاحظ ذلك في الفصول اللاحقة من الدراسة.

وكان للمستشرق الأمريكي آرثر جفري بصمات واضحة، ومهمة في تطور الدراسات القرآنية، من خلال تحقيقه، ونشره عدداً من المخطوطات الإسلامية المهمة، كان من بين أبرزها مخطوطة كتاب (المصاحف) لابن أبي داود السجستاني، ولا يخفى ما لهذه المخطوطة من أهمية، إذ تُعدُّ أول كتاب قديم مُخصَّص بالمصحف الشريف، يصل إلينا كاملاً وفيه بيان لنسخ جامعي القرآن الكريم، كما أنهُ حقق مخطوطتين مهمتين ونشرهما تحت عنوان (مقدمتان في علوم القرآن) وهما مقدمة كتاب المباني، ومقدمة ابن عطية. ومن بين أبرز المستشرقين المتخصصين بتاريخ القرآن المستشرق جون

---

(١) Edward Sell, The historical development of the Quran, (Midras - 1898).

(٢) Ibid, P. 1.

(٣) Regis Blachere, Introduction au Coran, (Paris - 1947).

جلكرايست صاحب كتاب (جمع القرآن)، وهو من أحدث ما وصل إلينا من النتاجات الاستشراقية المتخصصة بالقرآن، ولعل ما فيه من نقاط مثيرة ومهمة تنم عن فهم واستيعاب كبيرين من قبل هذا المستشرق بتاريخ القرآن، تجعلنا نعده من أبرز المؤلفات الاستشراقية وأهمها بعد كتاب نولدكه.

ولعل تأريخ القرآن الكريم، قد نال قدراً كبيراً من الأهمية لدى عدد من كبار المستشرقين فضلاً عمَّا ذكرناه، من بينهم: (المستشرق المجري جولدتسهر، المستشرق الألماني بروكلمان، والمستشرق الإنكليزي مونتجمري وات).

فالمستشرق المجري جولدتسهر تناول هذا الموضوع من خلال كتابيه (مذاهب التفسير الإسلامي) و(العقيدة والشريعة الإسلامية)، فيما تعرَّض المستشرق بروكلمان لتأريخ القرآن ضمن الفصل الثاني من كتابهِ (تأريخ الأدب العربي). أما المستشرق الإنكليزي مونتجمري وات، فمن خلال تخصصهِ في مجال السيرة النبوية الشريفة ودراساته المتعددة ضمن هذا التخصص، تناول تأريخ القرآن الكريم ولا سيما في كتابهِ (محمد في مكة).

على أن لا يفهم من ذكرنا هؤلاء المستشرقين ممن تخصصوا أو اهتموا بتأريخ القرآن أنهم مثلوا كل الدراسات الاستشراقية المتعلقة بالقرآن الكريم، فهناك عددٌ كبيرٌ ممن جعل القرآن موضوعاً لدراستهِ، وسيأتي ذكر بعضهم ضمن فصول الدراسة.

دوافع المستشرقين إلى دراسة القرآن الكريم

لقد كان القرآن الكريم على رأس الموضوعات التي شغلت بال المستشرقين وتفكيرهم منذُ اللحظات الأولى للاتصال الثقافي، والفكري ما بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي، ولا ريب في هذا، فالقرآن هو الأساس الذي تقوم عليهِ العقيدة الدينية والشريعة الإسلامية، وبالنسبة للمسلمين هو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفهِ.

ولعل المستشرقين قد أدركوا أهمية القرآن جيداً، ولا سيما بعد أن ترجموه واستوعبوا ما جاء فيه. وقد تعددت دوافعهم في دراسة القرآن تبعاً لاختلاف الأزمنة والعصور التأريخية، ولاختلاف العلاقات السياسية

والدولية، وتنوع المستويات الحضارية إلى جانب الفروق الفردية، فليس كل المستشرقين صنفاً واحداً، فهم يختلفون في عقلياتهم، ونفسياتهم، وصفاتهم، فمن المستشرقين من أبدى إعجاباً، وإقبالاً على حياة الشرق وتحمس للحضارة العربية الإسلامية تحمساً كبيراً، وانعكست هذهِ الميول، والاتجاهات في كتاباتهِ وأبحاثهِ، ومن المستشرقين من اتصف بالتعصب الأعمى ضد الإسلام فكانت كتاباته كلها سهاماً مسمومة، ومن المستشرقين من تأثر بسياسة دولته التي ينتمي إليها، فأصبحت أبحاثه صورة لاتجاهات هذهِ الدولة وأهدافها السياسية والاستعمارية، وبين كل هؤلاء من المستشرقين من اتصف بالعمق العلمي، والفهم الحقيقي والإنصاف الواقعي، يدرس العلم للعلم ويبحث الحقيقة أينما كانت[١]. وعلى أية حال يمكن أن نحدد ثلاثة دوافع رئيسة (دينية، استعمارية، علمية)، قد ساهمت بشكل كبير في دفع الدراسات الاستشراقية نحو موضوع القرآن الكريم.

أولاً: الدافع الديني إلى دراسة القرآن الكريم: سبق أن ذكرنا أن أول ترجمة لاتينية (غربية) للقرآن الكريم قد أُنجزت عام (١١٤٣م)، ومن خلالها اضطلع رجال الكنيسة على ما قالهُ القرآن بشأن عقيدة النصارى، إذ بيَّن: «في حكم واضح، وصريح أسس المسيحية الحقة التي نادى بها المسيح عليه السلام ودعا إليها وعرَّف بها.. فأثبت أن عيسى بشر، وأنهُ رسول مؤيد بكتاب إلهي وبوحي سماوي، وأنهُ نادى بعقيدة التوحيد، فدعا إلى عبادة الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن لهُ كفؤاً أحد، وقرر أنهُ لم يقتل ولم يصلب، بل توفاهُ الله ورفعهُ إليهِ»[٢].

وعن عقيدة التثليث في المسيحية، أوضح القرآن هذهِ القضية وعرض زيفها وزعمها، ودعا أهلها دعوة منطقية بأن لا يغلوا في دينهم ولا يشتطوا في عقيدتهم. وعقيدة التثليث: «تزخر بمزاعم وأضاليل وأباطيل، فهي تزعم أن الله ثالث ثلاثة، وأنهُ ثلاثة أصول (أقانيم) متساوية: الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس، فالمسيح إله، وهو ابن الله، وفي الوقت نفسه

---

(١) علي حسني الخربوطلي: المستشرقون التأريخ الإسلامي، ص ٥٤.

(٢) محمود بن الشريف: الأديان في القرآن، دار المعارف، (القاهرة - ١٩٧٠)، ص ٢١٤.

هو بشر وإله، هو لاهوت وناسوت، هو الله وابن الله، وأصل من الأصول الثلاثة المكونة لله»، تعالى الله عما يعتقدون(١).

وقد أصدر القرآن الكريم حكمهُ على هذهِ العقيدة المُحرَّفة، وحكم على من اعتنقها أو اعتقدها بالكفر(٢)، ولهذا قامت الكنيسة المسيحية بحملة واسعة ضد القرآن الكريم ودين الإسلام. كان من بين أوجه هذهِ الحملة هو «التبشير» الذي عرَّفهُ المستشرق الألماني رودي بارت(٣) بأنهُ: «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام، واجتذابهم إلى الدين المسيحي».

وضمن سياق هذهِ الحملة، انبرى مجموعة من المستشرقين إلى الغض من مكانة القرآن والإسلام، والتقليل من أهميتها عند المسلمين وزعزعة النفوس عنهما، من خلال الترويج لكل ما يثير الشكوك فيهما، وإسدال ظلال كثيفة قاتمة لخداع البسطاء والمترددين بصحتهما، فعمد قسم من المستشرقين إلى

---

(١) محمود بن الشريف: الأديان في القرآن، ص ٢١٤، ٢١٥.

(٢) لاحظ حكم القرآن الكريم من خلال الآيات الآتية: ـ قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة/ ١٧].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة/ ٧٢ ـ ٧٥].

وكذلك قولهُ تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم/ ٣٠ ـ ٣٦].

(٣) رودي بارت: الدراسات العربية والإسلامية، ص ١١.

طرح أفكار وتصورات ما أنزل الله بها من سلطان، ليؤوِّلوا حقيقة الوحي الإلهي المنزل على النبي محمد ﷺ، فتارةً يقولون عنهُ، إنها نوباتُ الصرع كانت تُصيب النبي فيغيب عن صوابهِ ويسيل العرق منهُ وتعتريه التشنجات، فإذا أفاق ذكر أنهُ أوُحي إليهِ[١]، وتارةً أخرى يفسرونهُ حدساً أو إلهاماً أو أوهاماً كان النبي يتصورها وحياً إلهيّاً، وينقلها لأصحابهِ على هذا الأساس[٢]، وعمدَ قسم آخر إلى القول بأن القرآن حُرِّف وبُدِّلَ بعد وفاة النبي ﷺ[٣]، فيما لم يتنازل المستشرقون عن فكرة استقاء النبي ﷺ تعاليم كتابهِ (القرآن) من كتب اليهود والنصارى[٤].

ويصف المستشرق الإنكليزي مونتجمري وات[٥] الموقف الكنسي من القرآن والإسلام، ولا سيما بعد أن أوضح القرآن الكريم موقفهُ من العقيدة المسيحية وما جرى عليها من تحريف، ويقول: «سيطرت مفاهيم الكتاب المقدس خلال القرون الوسطى على نظرة الأوربيين عن الطبيعة، الله والإنسان، بحيث لم تمكنهم من أن يتصوروا أن هناك طريقاً بديلة للتعبير عن هذهِ العلاقة، وكانت النتيجة أن حكم على تعاليم الإسلام بالكذب حين اختلفت مع المسيحية».

نعم، لقد تبلور العداء المسيحي للإسلام، وازداد عنفاً فكريّاً، بعد أن وجد رجال الكنيسة أن عقيدتهم الحالية لم يُقرَّ بصحتها القرآن، ولذلك لم يكتف المستشرقون ـ كما يعترف أحدهم ـ بالقول: «بأن القرآن قد تضمن الأكاذيب وأن محمداً لم يكن رسولاً. فقد روَّج بطرس الجليل أفكار بعض

---

(١) ينظر: غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة الحلبي، (مصر ـ ١٩٦٤م)، ص ١١٤.

(٢) ينظر: مشتاق بشير الغزالي: «نظرة تحليلية في كتاب حياة محمد» للمستشرق وليم ميور، بحث منشور في مجلة السدير، كلية الآداب جامعة الكوفة، (النجف ـ ٢٠٠٣)، العدد الأول، ص ١٥٤.

(٣) ينظر: محمد حسين علي الصغير: المستشرقون والدراسات القرآنية، ص ٣٩، ٤٠.

(٤) ينظر: عبد القهار العاني: الاستشراق والدراسات الإسلامية، مطبعة العاني، (بغداد ـ ١٩٧٣)، ص ١٠.

(٥) مونتجمري وات: تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى، جامعة الموصل، (الموصل ـ ١٩٨٢)، ص ١١٩.

المفكرين الإغريق والقائلة بأن الإسلام لم يكن سوى هرطقة مسيحية، وقال بأن الإسلام كان أسوأ من ذلك، وأن بالإمكان اعتبار المسلمين وثنيين. لقد جاءت نواة الاعتقاد المسيحي في هذا الصدد من أنهُ ما دام محمد لم يكن رسولاً وما دام قد أقام ديناً، فلا بد إذن من أنهُ قد شجع الشر، وبذلك فإنهُ يجب أن يكون أداةً أو وكيلاً للشيطان، وبهذه الطريقة وضع الإسلام على طرفي نقيض مع المسيحية»[١].

إن فكرة أن النبي محمد ﷺ لم يكن نبيّاً حقيقيّاً صادقاً، تجذرت من دون أن يصدَّها الشك عند أغلب مفكري القرون الوسطى، فأصبح لديهم أن رسالته مبنية على المصالح الدنيوية والشخصية، أما القرآن فما هو إلا مجموعة من الخرافات المستعارة من التوراة بشكل مشوَّه[٢]. «إن جريمة النبي لم تكن فقط في استغلاله سذاجة الجماعات، بل لأنهُ قدَّم أيضاً خلال حياته المثل على الشهوانية وعلى العنف واللاأخلاقية... وينبغي فقط البرهان على خطئه من خلال ضوابط الكنيسة، وتجريد محمد من ادعائهِ بالنبوة الحقيقية، وأن كلام الله من خلال القرآن لم يكن فعلاً كلام الله.. لكنهُ - أي الله تعالى - لم يُنزِّل وحياً على محمد»[٣].

لذا، فإن الدين الإسلامي في التقليد المسيحي، عُدَّ ديناً مشوشاً وزائفاً ادعى الوقوف على الأرضية ذاتها مع المسيحية[٤].

ولعل الأحكام القروسطية هذه، قد أُدخلت في اللاوعي الجماعي للغرب في مستوى متجذر عميق، يصعب مع كل المحاولات الجادة الخروج من تأثيره، وكما يقول الدكتور عرفان عبد الحميد فتاح[٥]: «ما يفكر الغربيون فيه ويشعرون بهِ نحو الإسلام اليوم، متأصل من انفعالات، وتأثيرات ترجع إلى خبرات سابقة عميقة الجذور في الفكر الأوربي... وقد يبدو من سخرية

---

(١) مونتجمري وات: تأثير الإسلام على أوربا، ص ١٢٣.

(٢) هشام جعيط: أوربا والإسلام، ص ١٣.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٣.

(٤) المصدر نفسهُ، ص ١٣، ١٤.

(٥) عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الجيل، (بغداد - ١٩٩١) ص ١٣٣، ١٣٤.

التأريخ أن يظل هذا الحقد القديم ضد الإسلام قائماً بطريقة لاشعورية في زمن خسر فيه الدين القسم الأكبر من تأثيره في مخيلة الأوربي».

وحقيقة الأمر أن أفضل من اندفعَ ضمن هذا التوجه الديني لدراسة القرآن والدين الإسلامي، هم رجال الدين المسيحيون، وكان طبيعيّاً أن تبتعد دراساتهم عن منهج البحث العلمي، وعن الحقيقة التاريخية، لأن ما يرجوه من هذه الدراسة أو تلك، خدمة المصالح الكنسية في ظلٍّ ما يُعتقد بأنهُ مواجهة ضد التهديد الإسلامي بالانتشار على حساب المسيحية.

ثانياً: الدافع الاستعماري إلى دراسة القرآن الكريم: يرى بعض المفكرين، أن قسماً كبيراً من الدراسات الاستشراقية الحديثة كانت تمول المصالح الاستعمارية بما تقدمهُ من نتائج بحثية، وأن الدوائر الاستعمارية كانت تُزوَّد بالمعلومات المختلفة، والاستشارات المهمة التي تمكنهم من تحقيق خططهم، وأهدافهم في الشرق، والسيطرة عليهِ[١]، ويمثل محمود حمدي زقزوق جزءاً من هذهِ الرؤية العربية عندما يقول: «كان التراث الاستشراقي بمثابة دليل للاستعمار في شعاب الشرق وأوديته من أجل فرض السيطرة الاستعمارية عليهِ وإخضاع شعوبه وإذلالها»[٢]، وقد يشفي الغليل هذا الاعتراف الصادر من المستشرق فرانسيسكو غابرييلي إذ يقول: «إذا كان لوم الاستشراق على دورهِ المتواطىء مع الاستعمار ليس عارياً من الصحة، فإنهُ قد بولغ فيهِ وضُخِّم وأُفسدَ»[٣].

ولأن القرآن الكريم هو وحي إلهي ومصدر التشريع الأول عند المسلمين، فقد توجهت عناية المستشرقين المرتبطين بدوائر استعمارية لدراسته محاولةً منهم، بدافع استعماري موجه، إضعاف العقيدة والشريعة الإسلامية القائمة أساساً عليهِ وتوهينها، فتناولوا من بين ما تناولوه، موضوع (الجهاد) الركن

---

(١) ينظر: عبد الباسط عبد الصمد الشاوي: الغزو الأوربي للفكر العربي الإسلامي، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة بغداد، ١٩٨٧، ص ١١٥.

(٢) محمود حمدي زقزوق: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، ط ٢، (قطر ـ ١٩٨٣)، غلاف الكتاب.

(٣) محمد آركون وآخرون: الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ترجمة هشام صالح، (بيروت ـ ١٩٩٤)، ص ٢٣.

الإسلامي العظيم الذي أكَّده القرآن، وبذلوا جلَّ جهدهم للقضاء على هذا المبدأ العظيم، من خلال إصدارهم عدداً من الدراسات التي تصوِّر حروب المسلمين تصويراً سيئاً مشوهاً للحقيقة التأريخية، فهذا جون هيجل يقول: «كان الإسلام دائماً وسيبقى دائماً دين السيف لأنهُ لا يمكن العثور على أي فكرة للحب في القرآن»[1]. وهكذا يثير المستشرقون هذهِ الشبهات ليتوصلوا إلى:

أولاً: التشكيك في قوة العقيدة الإسلامية من الناحية البرهانية وملاءمتها الفطرة السليمة من أجل دفع المسلمين إلى التخلي عن هذا المبدأ[2]، ومن ثمَّ التخلي عن دينهم «الإسلام».

ثانياً: تشويه تأريخ الدين الإسلامي وحقيقته، وسيرته على مر العصور.

ثالثاً: لإبراز مبادىء الدين الإسلامي، بصورة تجعلها مناقضة مبادىء الدين المسيحي، وفي مرتبة دنيا بعيدة عن القبول الإنساني، فتمجد الدين المسيحي ومبادئه ولا سيما ما يتعلق منها بطبيعة الزواج، والعلاقات الإنسانية القائمة على التسامح، والعفة، والأخلاق، وبالوقت عينه تصوِّر الإسلام وكأنهُ يحارب هذهِ المبادىء الإنسانية السامية[3].

وتحقيقاً للمصالح الاستعمارية، فقد ركزت مجموعة من الدراسات الاستشراقية جُلَّ همها على إنكار أصالة الحضارة العربية الإسلامية ومميزاتها، وادَّعت بأن الإسلام دين منافٍ للحضارة والمدنية والعلم[4]، ولن يرقى المسلمون في سلم الحضارة والتمدن إلا بعد أن يتركوا دينهم، ويتوجهوا إلى الحضارة الغربية، تلك الحضارة التي يصفونها، بأنها حضارة متقدمة وهي منسوبة إلى الديانة المسيحية.

ولعل من بين أخطر الأهداف الاستعمارية محاولة المستشرقين القضاء على اللغة العربية، فلقد تعرضت هذهِ اللغة إلى محاولات متعددة كادت أن

---

(١) محمد فتح الله الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام، ص ١٧١.
(٢) عبد الباسط عبد الصمد الشاوي: الغزو الأوربي للفكر العربي الإسلامي، ص ١١٩.
(٣) هشام جعيط: أوربا والإسلام، ص ١٣، ١٤.
(٤) عبد الباسط عبد الصمد الشاوي: الغزو الأوربي للفكر العربي الإسلامي، ص ١٢٣.

تعصف بها وتطمسها في أجزاء كثيرة من بقاع العالم العربي، ولا سيما في تونس، والجزائر، والمغرب في محاولات الفرنسة المعروفة، وفي مراحل لاحقة تبنّى المستشرقون ما هو أكثر خطورة، من خلال توجيه الدراسات العليا في كثير من الجامعات العربية والغربية من دراسة العربية الفصحى إلى دراسة العامية، وتعميق البحث في اللهجات المحلية التي يتعامل بها كل قطر، ورفض أي اتجاه يرمي إلى تعميق البحث في الفصحى بالجامعات الغربية، أو محاولة تجديد طرائق تدريسها، وتشجيع كل دراسة تقوم في الاتجاه المقابل[١].

إن المصالح الاستعمارية في الشرق الإسلامي، طالما نظرت إلى الدين الإسلامي متمثلاً بسيرة النبي محمد ﷺ والقرآن الكريم، على أنهما الخطر الذي يهددها، ولذلك لا نستغرب قول الوزير البريطاني جلاستون، أيام الامبراطورية الاستعمارية البريطانية عندما حدَّد خطورة القرآن الكريم على أوربا في قوله: «ما دام هذا القرآن موجوداً، فلن تستطيع أوربا السيطرة على الشرق، ولا أن تكون هي نفسها في أمان»[٢].

ثالثاً: الدافع العلمي إلى دراسة القرآن الكريم: ومن بين ما ذكرناه من دوافع، كانت الحقيقة التأريخية والنتائج البحثية المستندة إلى منهج علمي صحيح، ديدن مجموعة من المستشرقين الذين تخصصوا بالقرآن الكريم وتأريخه، واهتموا به.

وهؤلاء بالطبع كانوا قليلي الأخطاء، إذا ما قيسوا بجمهرة المستشرقين الآخرين، والسبب في قلة أخطائهم أنهم أقبلوا على البحث بروح علمية بعيدة عن الأهواء السياسية، والتعصبات القومية والدينية، ولعل هذهِ الأخطاء إن وجدت لم تصدر عن سوء قصد، بل هي أخطاء طبيعية تقع إما بسبب نقص في الفهم أو عدم استيعاب التعبير اللغوي للعربية. وعلى أيةِ حال، فإن هذهِ الأخطاء لم تصل إلى درجة الدس، والتحريف التي امتازت بها

---

(١) محمد فتح الله الزيادي: ظاهرة انتشار الإسلام، ص ٨٢، ٨٣.

(٢) مشتاق بشير حمود الغزالي: تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ٢٠٠١، ص ٥٤.

أقلام المغرضين من أقرانهم، وإننا لنجد في عدة أحيان مستشرقاً توجه لدراسة القرآن أو السيرة النبوية الشريفة دراسة جدية نزيهة، فانتهى منها وهو معتنق الدين الإسلامي ومدافعٌ عنه، وكاشف كل ما يحاك ضده من مؤامرات فكرية[١].

وأرى هنا ضرورة الإشارة إلى رأي المشترق الألماني (رودي بارت) الذي حدد منتصف القرن التاسع عشر الميلادي موعداً، أصبح الاستشراق فيهِ علماً ويعمل بدوافع علمية بحتة في عموم أوربا، مدَّعياً أن المستشرقين قد تخلصوا من الآراء القديمة وأنهم يجهدون أنفسهم لنقل صورة موضوعية عن الشرق، وتنقية الاستشراق من الشوائب الدينية والاستعمارية[٢].

إن أي باحث في تأريخ الاستشراق، قد لا يتفق مع هذا الرأي غير الدقيق، فساحة الاستشراق لا تخلو طبعاً من أقلام منصفة علمية على الرغم من التأثيرات والمخططات المغرضة، وإن بعض هذهِ الأقلام قد سبقت بكثير القرن التاسع عشر[٣]، فضلاً عن المغالطة الواردة في قول بارت، بأن الاستشراق بدأ يتخلص من شوائبهِ منذُ منتصف القرن التاسع عشر، إن هذا القول ينطوي على كثير من المبالغة لأننا نجد الدوافع القديمة ولا سيما الدينية منها، ما زال لها تأثير في دراسات قسم من المستشرقين حتى يومنا هذا، ولم تنقطع أبداً.

وعليهِ، فإن دوافع المستشرقين في دراسة القرآن الكريم والدين الإسلامي، هي دوافع متعددة ومستمرة مع استمرار الدراسات الاستشراقية، ذلك لأن هذه الدراسات لا يخوضها أُناس يحملون الصفات نفسها في العقلية والقابلية العلمية، وفي النفسية الإنسانية، والظروف والبيئات التي يعيشون فيها.

---

(١) مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون ما لهم وما عليهم، (الكويت ـ ١٩٦٨)، ص ٢١.

(٢) رودي بارت: الدراسات العربية، ص ١٧.

(٣) Arberry, A. J. British Orient alists, (London - 1946), PP. 28 - 56.

كذلك ينظر: مصطفى السباعي: الاستشراق والمستشرقون، ص ٢١.

الفصل الثاني

تنزيل القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي

- الوحي الإسلامي في المنظور الاستشراقي.

- مفهوم الوحي.
- صور الوحي الإسلامي.
- رؤية المستشرقين للوحي الإسلامي.
- الأدلة الإسلامية على كون الوحي الإسلامي إلهيّاً لا بشريّاً.
- نزول القرآن وأهمية التتابع الزمني لنزول سوره عند المستشرقين.

نزول القرآن الكريم.

الحكمة من تعدد النزول.

- التتابع الزمني للسور القرآنية عند المستشرقين.

أولاً: محاولة تيودور نولدكه في إعادة ترتيب سور القرآن.

ثانياً: محاولة إدوارد سيل في إعادة ترتيب سور القرآن.

- تقييم الباحث محاولات المستشرقين في إعادة ترتيب النص القرآن.
- النص القصصي القرآني في المنظور الاستشراقي.
- جوهر العلاقة بين النص القصصي القرآني في كتب العهدين.
- جزء من قصة يوسف عليه السلام بين النصين القرآني والتوراتي.
- الغرض من القصة القرنية.

الوحي الإسلامي في المنظور الاستشراقي

مفهوم الوحي

لم تنحصر كلمة الوحي بمعنى واحد، بل تعددت وكثرت معانيها، وأشار ابن منظور[1] إلى أن كلمة الوحي تعني الإشارة، والرسالة، والإلهام، والكلام الخفي، وكل ما ألقي إلى الآخر. فيقال: وحيت إليه الكلام وأوحيت. ووحى وحياً وأوحى، أي: كتب. وأوحى إليه، أي: بعثه. وأوحى إليه، أي: ألهمه. ويقال: وحى إليه وأوحى، أي: كلّمه بكلام يخفيه عن غيره. ووَحى إليه وأوحى، بمعنى: أومأ[2].

كما يبدو أن للوحي مداليل كثيرة، يمكن أن نقف عليها من خلال التحديد الذي جاء في النص الآتي: «أولاً: إن أصل الوحي في اللغة كلها إسرار وإعلام في خفاء.. ثانياً: إن اشتقاق الوحي بمعنى السرعة لأن الوحي يجيء بسرعة ويتلقى بسرعة.... ثالثاً: إن أصل المادة السرعة والخفاء معاً. فالوحي: الإعلام السريع الخفي... رابعاً: إن أصل المادة هو إلقاء الشيء إلى الغير...»[3].

فالوحي إذن هو الإعلام الخفي السريع مثلما أكد ذلك القرآن الكريم في عدة آيات. ففي الإلهام الفطري للإنسان قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ

---

(١) محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت: ٧١١هـ/ ١٣١١م): لسان العرب، دار صادر (بيروت ـ لا. ت)، جـ ١٥، ص ٣٧٩؛ محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، (ت: ٧٢١هـ/ ١٣٢١م): مختار الصحاح، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، (بيروت ـ ١٩٩٥)، ص ٢٩٧.

(٢) لمزيد من التفاصيل في المعنى اللغوي للوحي ينظر: ستار جبار الأعرجي: الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ٢٠٠١)، ص ٩ ـ ١٤.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٤.

أَرْضِعِيهِ﴾[١] وقولهُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾[٢]، وفي الإلهام الفطري للحيوان كالذي في قولهِ تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[٣]. وفي الإلهام الإلهي الخاص بالأنبياء، وهو ما يتعلق بالأوامر الإلهية التي لا تأتي دائماً على صورة واحدة وإنما تتعدد وتختلف من صورة إلى أخرى، كما سنلاحظ ذلك لاحقاً.

ولقد تشرَّف سيدنا ونبينا الكريم محمد ﷺ بالوحي الإلهي على مدى بعثتهِ وإبلاغ رسالتهِ، وبذلك التشريف الإلهي، فقد اشترك مع من سبقهُ من الأنبياء بهذه الميزة الشريفة، فلم يكن وحي الأنبياء مخالفاً الوحي الإسلامي، بل ظاهرة الوحي هي متماثلة عند جميع الأنبياء، بدءاً من نبي الله نوح عليه السلام وانتهاءً بالنبي محمد ﷺ، هذا التماثل النابع من مصدر واحد، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾[٤]. ولذلك حرص القرآن الكريم على تسمية ما نزل على قلب محمد ﷺ وحياً، ليشابه مدلول الوحي عند جميع النبيين تشابه اللفظ الدال على نفس المعنى[٥]، وقوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾[٦].

صور الوحي الإلهي المنزل على النبي محمد ﷺ

لم يكن الوحي الإلهي على صورة واحدة، بل تعددت، واختلفت صور الإيحاء إلى النبي ﷺ، شأنهُ في ذلك شأن باقي الأنبياء، ولقد حدد القرآن

---

(١) سورة القصص، الآية (٧).

(٢) سورة المائدة، الآية (١١١).

(٣) سورة النحل، الآية (٦٨).

(٤) سورة النساء، الآيتان (١٦٣، ١٦٤).

(٥) صبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن، ط ١٠، دار العلم، (بيروت ـ ١٩٧٧)، ص ٢٢.

(٦) سورة النجم، الآيات (١ ـ ٤).

الكريم هذه الصور تحديداً دقيقاً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٞ﴾[1]. الآية الكريمة توضح بجلاء عدة صور للوحي الإلهي. فمن مصاديق كلامه تعالى ما يتلقاه الأنبياء عليهم السلام منه جل وعلا بالوحي، وعلى هذا لا موجب لعدِّ الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا وَحۡيًا﴾ منقطعاً (كما يرى الطباطبائي)[2] بل هو الوحي، والقسمان المذكوران بعده «ما كان من وراء حجاب»، «وما كان بإرسال رسول» نوع من تكليمه للبشر.

ثم إن ظاهر الآية الكريمة هو تقسيم الوحي إلى عدَّة صور، إذ ظهر القسمان الأخيران بقيد الحجاب والرسول الذي يوحي إلى النبي، في حين لم يقيد القسم الأول بشيء. والظاهر أنهُ أُريد بهِ التكليم الخفي من دون أن يتوسط واسطة بينهُ تعالى وبين النبي أصلاً، وأما القسمان الآخران ففيهما قيد زائد، وهو الحجاب أو الرسول الموحي، وكل منها واسطة، غير أن الفارق أن الواسطة الذي هو الرسول يوحي إلى النبي بنفسهِ، والحجاب واسطة ليس بموح، وإنما الوحي من ورائهِ. وعليهِ فإن القسم الثالث: ﴿أَوۡ يُرۡسِلَ رَسُولٗا فَيُوحِيَ بِإِذۡنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ وحي بتوسط الرسول الذي هو مَلَك الوحي فيوحي ذلك المَلَك بإذن الله ما يشاء اللَّهُ سبحانهُ، قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[3]. والموحي مع ذلك هو الله سبحانهُ وتعالى كما قال: ﴿بِمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ﴾[4]. وإن القسم الثاني: ﴿أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ وحي مع واسطة، وهي الحجاب، غير أن هذهِ الواسطة لا توحي كما في القسم الثالث، وإنما ليبتدىء الوحي مما ورائهِ، وليس وراء بمعنى خلف، وإنما هو الخارج عن الشيء المحيط بهِ، كقولهِ تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ﴾[5]، ومن هذا الباب ما أوحي إلى الأنبياء في مناماتهم. وإن القسم الأول تكليم إلهي للنبي من غير واسطة بينهُ

---

(١) سورة الشورى، الآية (٥١).

(٢) سيد محمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، دار الكتب الإسلامية، ط ٣ (طهران ـ ١٩٧٦م)، مجلد ١٨، ص ٧٥.

(٣) سورة البقرة، الآية (٩٧). (٤) سورة يوسف، الآية (٣).

(٥) سورة البروج، الآية (٢٠).

وبين ربهِ من رسول أو أي حجاب مفروض، وإن الوحي في جميع هذهِ الأقسام لا يخرج عن كونهِ صادراً عن الذات العليا، الله جلَّ جلالهُ وتعالى قدرهُ[١].

إن أول صور الوحي الإسلامي كان الرؤيا الصادقة، وهي جانب مهم من جوانب التلقي الغيبي في نبوات الأنبياء، لأن تلقي الوحي عن طريق المنامات وجهٌ من وجوه الوحي التي كانت للكثير من الأنبياء عليهم السلام، قد ذكر القرآن الكريم هذا الأمر بوضوح في الإشارة إلى رؤيا إبراهيم عليه السلام[٢]، وكذلك إلى رؤيا يوسف عليه السلام[٣]، ومن الطبيعي أن لا يختلف نبينا محمد ﷺ في هذا التشريف والتكريم الإلهي عن غيرهِ من الأنبياء، إذ إن الرؤيا في نبوتهِ ﷺ مثَّلت أحد الجوانب المهمة التي شهدتها عملية تلقيه الوحي، وهي أيضاً أحد العوامل التمهيدية التي هيأت لبزوغ نبوتهِ ﷺ وبداية رسالتهِ[٤].

وبشأن الرؤيا الصادقة التي رافقت النبي ﷺ قبل مبعثهِ، ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أول ما بدىء بهِ رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح...»[٥].

والصورة الثانية للوحي الإسلامي، هي الوحي بواسطة المَلَك، وفي هذهِ الصورة، نجد الأمين جبريل عليه السلام قد تكفل بنقل الكلام الإلهي وتبليغهِ إلى النبي الكريم ﷺ، وقد عبَّر القرآن الكريم عن الوحي بوساطة المَلَك في قولهِ تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾[٦]. وقوله جَلَّ وعــــلا: ﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ...﴾[٧].

---

(١) الطباطبائي: الميزان، مجلد ١٨، ص ٧٥.

(٢) سورة الصافات، الآية (١٠٢).

(٣) سورة يوسف، الآية (٤).

(٤) ينظر: ستار جبر الأعرجي: الوحي ودلالاته في القرآن، ص ١٣٤.

(٥) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري (ت: ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م): صحيح البخاري، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٨٦)، جـ ١، ص ٦؛ أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م): البداية والنهاية، مكتبة المعارف، (بيروت ـ لا. ت)، جـ ٣، ص ٢، ٣.

(٦) سورة الشعراء، الآيتان (١٩٣، ١٩٤).

(٧) سورة البقرة، الآية (٩٧).

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾[١]. واتخذ الوحي بوساطة المَلَك إلى النبي ﷺ عدة أشكال قد أجملها صاحب كتاب (الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي)[٢] بالآتي:

أولاً: مواجهة جبريل عليه السلام النبي ﷺ في صورتهِ الملكية الحقيقية التي خلقهُ الله عليها، وقيل إنهُ ما من نبي رآه على تلك الصورة إلا الرسول ﷺ، وقد حدث ذلك مرتين.

ثانياً: تمثُّل جبريل عليه السلام في صورة بشرية، فيراه النبي ﷺ في صورة إنسانية، ويتحدث معهُ، وهذا ما أكدتهُ الرواية المنقولة عن السيدة عائشة رضي الله عنها: «أن الحارث بن هشام سأل رسول الله قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال ﷺ: . . . وأحياناً يتمثل لي المَلَك رجلاً يكلمني فأعي ما يقول»[٣].

ثالثاً: تمثُّل جبريل عليه السلام للنبي محمد ﷺ في النوم، وذلك بأن يأتيه المَلَك جبريل عليه السلام في النوم بصورة بشرية غير معروفة لديهِ، ليبلغهُ بما أمر الله تعالى بهِ.

أما الصورة الثالثة من الوحي الإسلامي، فهي الوحي المباشر، الذي يتم من دون أي شكل من أشكال الوسائط، عندما يكون الوحي منهُ تعالى مباشرةً إلى النبي ﷺ. على الرغم من أن هذهِ الصورة من الوحي لا يوجد ما يؤكد تكرارها، إلا أنها قد تمت فعلاً، وأكد ذلك قول الله تعالى في كتابهِ الكريم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ﴾[٤]. وتظهر الإشارة بوضوح في هذهِ الآيات لتكليم الله سبحانهُ وتعالى نبيهُ محمداً ﷺ من دون أية واسطة[٥].

---

(١) سورة التكوير، الآيتان (١٩، ٢٠).
(٢) ستار جبر الأعرجي، ص ١٤١، ١٤٢.
(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٢١.
(٤) سورة النجم، الأيات (٨ ـ ١٠).
(٥) ستار جبر الأعرجي: الوحي ودلالاته في القرآن، ص ١٥١.

رؤية المستشرقين للوحي الإسلامي

الوحي ظاهرة ارتبطت بالنبوة، وعلى هذا الأساس، فمن مقومات تصديق نبوة أي نبي، هي حقيقة المصدر الإلهي للوحي، ولما كان الوحي الأساس الأول، والجوهر الحقيقي لمعنى النبوة، والرسالة، والواسطة للأخبار الغيبية والأوامر الإلهية في قضايا العقيدة والشريعة، فقد اهتم المستشرقون منذُ وقتٍ مبكر، يعود إلى العصور الوسطى الأوربية بدراسة الوحي ومحاولة إيجاد تفسير يلائم هذهِ الظاهرة، يتوافق مع التوجيهات الاستشراقية الهادفة إلى إبعاد الوحي الإسلامي عن حقيقة صدورهِ الإلهي، وجعلهِ نابعاً من ذات النبي (عليه أفضل الصلاة والسلام).

فكانت التصورات الأولى، تصورات ساذجة بعيدة عن الواقع متأثرة بتيار الكره والحقد الكبيرين خلال حقبة العصور الوسطى، فضلاً عن قلة المعلومات عن رسالة النبي ﷺ وتشويه ما وصل منها بواسطة المصادر البيزنطية. فمن أوائل من تناول هذا الموضوع هو جيبرت أوف نوجنت، الذي صوَّر النبي محمداً ﷺ على أنهُ استعملَ بقرةً قام بتدريبها، لتظهر أمام الناس بأنها تحمل إليهِ الوحي من الله تعالى، وهذا مثال مما جاء في تلك الكتابات: «وأمر محمد المؤمنين بهِ أن يصوموا ثلاثة أيام، ثم أعلن في هدوء أنهُ سيريهم كيف ينزل الوحي، وفجأة ظهرت بقرة وانتزعت من بين قرنيها كتاباً منزلاً وركعت البقرة أمام النبي»[١]، في حين أن الأسقف هيلدبرت (Hildbert) قد ذكر في كتاباتهِ عن حياة النبي ﷺ أنهُ استعان في تأكيد صدق دعوتهِ بثور دربهُ سرّاً، فأصبح قادراً على توجيهه كيف شاء، فكان الثور يركع أمام النبي كلما أمرهُ بذلك[٢]. وعلى هذهِ الشاكلة كانت تنسج الافتراءات، والمزاعم لتجعل منها تارة بقرة، وأُخرى ثوراً، وثالثاً جملاً[٣]. وعلى أية حال فإن مستشرقي العصور الوسطى لم ينظروا إلى الوحي الإسلامي، إلا على أنه نوع من الاحتيال تمت ممارسته لإقناع الناس

---

(١) Southern, Western Views of Islam, P. 31.

(٢) خودابخش: الحضارة الإسلامية، ص ٤٦ ـ ٤٨.

(٣) المصدر نفسهُ، ص ٤٨.

بالدين الجديد (الدين الإسلامي)، وإبعاد الشك عن قلوبهم باستعمال هذهِ الحيوانات المدرَّبة.

والحقيقة أن ظاهرة الوحي الإسلامي لم تُطرح عند المستشرقين برؤية واحدة، بل حملت كتاباتهم رؤىً متعددة خلال العصر الحديث يمكن أن نقف عليها حسب ترتيب تداولها زمنيّاً.

أولاً: الوحي الإسلامي بمعنى نوبات من الصرع: على ما يبدو فإن اطلاع بعض المستشرقين على مصادر السيرة وهي تصف ما يصيب النبي محمداً ﷺ من أعراض أثناء تلقيهِ الوحي، من الأمارات الخارجية التي تبدو على وجههِ، وعينهِ، وجبينهِ، من شحوب، أو احتقان، أو تصبب عرق، أو ما يرافق ذلك من أصداء أو أصوات، مثلما تذكر الروايات الإسلامية[١]، فعن السيدة عائشة رضي الله عنها قولها: «ولقد رأيته ينزل عليهِ الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنهُ وإن جبينهُ ليتفصد عرقاً»[٢]. وعن عبد الله بن عمر: (قلت: يا رسول الله هل تحس بالوحي؟ قال: نعم أسمع صلاصل ثم أثبت عند ذلك، وما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تَفيض مني)[٣].

إن الأعراض الخارجية هذهِ، التي وصفت عن النبي ﷺ، ولكونها مشابهة أعراض مرض الصرع جعلت من بعض المستشرقين يتصورون أو يصورون أن ما كان يصيب النبي ﷺ من أعراض خارجية ما هي إلا نوبات من الصرع، وأن تلك النوبات حينما تُصيبهُ كان يغيب عن صوابهِ ويسيل العرق منه وتعتريه التشنجات، فإذا ما أفاق من الغيبوبة ذكر أنهُ أوحي إليهِ، وتلا على أتباعهِ ما يزعم أنهُ من وحي ربهِ[٤].

---

(١) ينظر: النسائي، أحمد بن شعيب (ت ٢٠٣هـ/ ٩١٥م): فضائل القرآن، تحقيق فاروق حمادة، دار إحياء العلوم، ط ٢، (بيروت ـ ١٩٩٢)، جـ ١، ص ٥٩.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٢١.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٢٢.

(٤) Emile Dermengham, The life of Mohammed, N. Y. Dial Press - 1930, P. 135, 136.

كذلك ينظر: رونالد فكتور بودلي: حياة محمد الرسول، ترجمة عبد الحميد جودة السحَّار ومحمد محمد فرج، (القاهرة ـ ١٩٦٤)، ص ٥٢، ٥٣.

وقد كفانا بعض المستشرقين الرد على هذهِ الرؤية الخاطئة، ومنهم المستشرق الإنكليزي وليم ميور الذي قال: «وتصوير ما كان يبدو على محمد في ساعات الوحي على هذا النحو الخاطىء من الناحية العلمية خطأٌ كبير. فنوبة الصرع لا تترك عند مَنْ تُصيبهُ أي ذكر لما مرَّ بهِ أثناءها، بل يصاب بالنسيان خلال هذهِ المدَّة من حياتهِ بعد أن يفيق نسياناً تاماً، ولا يذكر شيئاً مما صنع أو حل بهِ خلالها؛ لأن حركة الشعور، والتفكير تتعطل عندهُ تمام العطل. وهذهِ أعراض كما ثبتها العلم، ولم يكن ذلك ما يصيب النبي العربي أثناء الوحي، بل كانت تتنبه حواسهُ المدركة في تلك الأثناء تنبهاً لا عهد للناس بهِ، يذكر بدقة كل ما يتلقاه بعد ذلك على أصحابهِ. ثم إن نزول الوحي لم يك مقترناً دوماً بالغيبوبة الحسية مع وجود الإدراك الروحي، بل كثيراً ما يحدث الوحي والنبي في تمام يقظتهِ العادية»(١).

ثانياً: الوحي الإسلامي بمعنى الحدس، والهوس، والأوهام، والخداع:
لقد اتفقنا على أن ظاهرة الوحي الإسلامي قد أخذت من مخيلات المستشرقين مأخذاً واسعاً، فتعددت، وتنوعت رؤاهم وتصوراتهم عنها، حتى ظهر التضارب والاختلاف في كتاباتهم، فبينما نجد المستشرق وليم ميور يفند مزاعم من يقول: إن ما كان يصيب محمداً ﷺ ما هو إلا نوبات من الصرع، مستعيناً بالأدلة العلمية في طرح الحقيقة، من المضحك جدّاً أن نجدهُ في الكتاب نفسه يفقد الروح العلمية، عندما يصور الوحي الإسلامي وكأنهُ شيء من الوهم، أو الحدس الصادر من الذات البشرية، كان النبي ﷺ قد تبناه على أنهُ وحي إلهي.

ولعل المستشرق ميور قد استفاد من أحداث رحلتي(٢) الرسول الكريم إلى

---

(١) The Life Mohammad, PP. 14 - 29.
كذلك ينظر: بودلي: حياة محمد الرسول، ص ٥٢، ٥٣.

(٢) الرحلة الأولى التي قام بها النبي محمد ﷺ مع عمهِ أبي طالب إلى الشام كان بعمر تسع سنين، وقد أتاحت هذهِ الرحلة الطويلة للنبي ﷺ، على الرغم من صغر سنهِ، أن يشاهد مجموعة من القرى والمدن الواقعة على الطريق التجاري بين مكة والشام، كما أنهُ قد شاهد رهباناً ونصارى يقيمون في تلك الأماكن. أما رحلتهِ الثانية، وهي إلى الشام أيضاً، فكانت عندما كلفتهُ السيدة خديجة رضي الله عنها القيام برحلة تجارية، وقد أرسلت =

الشام ليؤكد تأثيرهما في عقلهِ، وتأملاتهِ اللاحقة التي سبقت نزول الوحي الشريف، من خلال الآثار، والرموز القديمة، والأساطير اليهودية وتأثيرها فيهِ وهو يشاهدها أول مرة، ومن خلال أداء المجتمع المسيحي والكنائس بكل طقوسها والتجمعات المسيحية المتكررة لأجل العبادة، وكل هذهِ المشاهدات يراها ميور قد استولت على انتباههِ واهتمامهِ، فأثرت تأثيراً عميقاً في نفسهِ(١).

والمتتبع كتاب ميور (حياة محمد من مصادرها الأصلية) يجد المؤلف فيهِ يحاول أن يجعل من تلك المشاهدات، وقد أثرت في نفس النبي ﷺ، فجعلتهُ ينصرف إلى التأمل، والتفكير المنعزل، والطويل بحثاً عن الدين الحقيقي، وفي غمرة هذهِ الظروف توهم النبي بأنهُ يتلقى وحياً من الله(٢). ولكي يدعم فرضيتهُ هذهِ يقدم ما يعتقدهُ دليلاً، فيشير إلى أن النبي ﷺ قد استعان بالوحي لتحقيق أهداف، وغايات دنيوية لمصلحتهِ، ويستدل على ذلك بالآية (٣٧) من سورة الأحزاب(٣)، التي أمرهُ الله سبحانهُ وتعالى فيها بالزواج من السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها. وعلى أساس هذا (الدليل الصارخ) يرفض ميور أن ينظر إلى الوحي الإسلامي على أنهُ صادر من الله تعالى، ويؤكد كونهُ حدساً محضاً أو وهماً لا يتعدى في صدورهِ عن ذات النبي ﷺ(٤).

= برفقتهِ غلاماً لها يدعى ميسرة، فخرج رسول الله ﷺ في إحدى القوافل المتجهة لبلاد الشام فباع بضاعته واشترى ما أراد، ثم أقبل راجعاً إلى مكة، فكانت تلك التجارة رابحة موفقة، ويبدو أن عمرهُ ﷺ لم يكن قد تجاوز الخامسة والعشرين في رحلتهِ الثانية. ينظر: محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ/ ٩٢٢م): تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٨٦م)، جـ ١، ص ٥١٩ ـ ٥٢١.

(١) Muir, The Life of Mohammad, P. 11, 12.

(٢) Ibid, P. 54.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾.

(٤) Ibid, P. 54 - 55.

وليس بعيداً عن طروحات ميور، نلاحظ المستشرق الفرنسي غوستاف لوبون يقتفي النهج نفسه في نفي تهمة الصرع عن النبي محمد ﷺ، ولكنهُ في الوقت نفسه يصف الوحي الإسلامي بالهوس، وخيرٌ لنا أن نقتطف نصّاً من كتاباتهِ يقول فيه: «وقيل إن محمداً كان مصاباً بالصرع ولم أجد في تواريخ العرب ما يبيح القطع في هذا الرأي، وكل ما في الأمر هو ما رواه معاصرو محمد، وعائشة منهم، من أنهُ كان إذا نزل الوحي عليهِ اعتراه احتقان وجهي فغطيط فغشيان. وإذا عَدوت [تجاوزت] هوس محمد ككل [كإنسان] مفتون وجدتهُ حصيفاً سليم الفكر، ويجب عَدُّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية، كما هو واضح، وذلك كأكثر مؤسسي الديانات... فأهل الهوس وحدهم... هم الذين ينشئون الديانات»[(١)].

وعلى هذهِ الشاكلة تتسابق خيالات المستشرقين لتفسير الوحي الإسلامي، غير أن هذهِ التفاسير لا تريد أن تقترب من حقيقة هذا الوحي، بل وكأنها لا تريد إلا إثبات المرجعية الناشئة في صدوره من النفس البشرية، ونفي حقيقتهِ الإلهية.

كما لم يفُت بعض المستشرقين من أن يوجهوا لشخص النبي الكريم ﷺ تهمة خداع المسلمين في قضية الوحي بقولهم: «إن محمداً لم يكن يؤمن بما يوحى إليهِ، وإنهُ لم يتلقَّ الوحي من مصدر خارجي عنهُ، بل إنهُ ألّف الآيات عن قصد ثم أعلنها للناس بصورةٍ خدعهم بها وجعلهم يتبعونهُ، فضمنَ لِنفسهِ بذلك من السلطة ما يُرضي طموحهُ وحبه للمتعة»[(٢)]. ولقد كان الأديب الإنكليزي توماس كارليل أول من انبرى لدحض هذهِ السخافات، مصرحاً بأنهُ من العار على أي متمدن أن يصغي إلى هذهِ التهمة، وأن يصغي إلى من يظن أن محمداً كان خدّاعاً ومزوراً[(٣)].

ومن اللطائف الإلهية أن يتوجه من بين المستشرقين من يفند بأدلة منطقية

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ص ١١٤.

(٢) ينظر: مونتجمري وات: محمد في المدينة، ترجمة شعبان بركات، المكتبة العصرية، (بيروت ـ ١٩٥٢)، ص ٤٩٥.

(٣) توماس كارليل: الأبطال، ترجمة محمد السباعي، (بيروت ـ ١٩٦١)، ص ٥٨.

تلك الادعاءات بالقول الآتي: «ومثل هذهِ النظرة للأمور غير معقولة، وذلك لأنها لا تفسر لنا بصورة مرضية لماذا كان محمد في الحقبة المكية مستعدّاً لتحمل جميع صنوف الحرمان، ولماذا فاز باحترام رجال شديدي الذكاء ذوي أخلاق مستقيمة، كما أن ذلك لا يجعلنا نفهم كيف نجح في تأسيس ديانة عالمية أنجبت رجالاً قداستهم واضحة للعيان، لا يفسر كل ذلك بصورة مرضية إلا إذا افترضنا صدق محمد، أي أن نعتقد بأنهُ كان مقتنعاً حقّاً بأن القرآن ليس ثمرة خيالهِ بل إن كل ما نزل عليهِ كان من الله»[١].

ثالثاً: الرؤية الاستشراقية الأخيرة للوحي الإسلامي: بين مجموعة كبيرة من دراسات المستشرقين، التي لا تخرج في نظرتها إلى الوحي الإسلامي عما ذكرناه، نقف على رؤية المتخصص الأول بين الغربيين في سيرة النبي ﷺ، المستشرق الإنكليزي مونتجمري وات الذي يعدُّ ممثلاً بكتاباتهِ لوجهة نظر الغرب في السيرة النبوية، ويؤكد هذا الأمر المستشرق فرانسسكو غابريلي بقولهِ: «إن مؤلفات وات التي امتد تأليفها بين سنوات (١٩٥٠ - ١٩٦٠) تمثل آخر وجهة نظر علماء الغرب بالنسبة إلى نبي الإسلام»[٢].

لقد نال الوحي الإسلامي اهتماماً كبيراً من لدن هذا المستشرق، إذ أفرد الفصول والمباحث لمناقشتهِ، ووصل بهِ الأمر أن أصدر كتاباً مستقلاً بموضوع الوحي حمل عنوان: (الوحي الإسلامي في العالم الحديث)[٣]، فكان من بين أواخر مؤلفاتهِ عن الشرق الإسلامي.

عدَّ المستشرق وات أن النبي محمداً ﷺ كان صادقاً في القول مخطئاً بالاعتقاد بشأن الوحي[٤]، بمعنى أن النبي ﷺ لم يسع لخداع أتباعه عندما ادعى بأن الله تعالى أنزل الوحي عليهِ، ولذلك فهو صادق في القول لأنهُ لم

(١) وات: محمد في المدينة، ص ٤٩٥.

(٢) Gabrieli, Muhammad and conquests of Islam, (London - 1968), P. 20.

(٣) Montegomry Watt, Islamic revelation in the modern world, (London - 1969).

(٤) ينظر: وات: محمد في المدينة، ص ٤٩٥، ٤٩٦؛ كذلك ينظر:

The Encyclopedia of religion, (New York - 1987), vol - 10, P - 138.

The Encyclopedia Britannica, (Chicago - 1986), vol - 22, P. 2.

يشأ ممارسة الخداع، ولكنهُ في الوقت نفسه مخطىء بهذا الاعتقاد، لأن الله سبحانهُ وتعالى لم ينزِّل الوحي عليهِ كما اعتقد هو.

ثم يفسر نشوء هذ الاعتقاد الخاطىء، الذي يراه قد بدأ عندما أخذ النبي ﷺ يتصور أموراً غريبة لا يعرف حقيقتها، فلجأ إلى ورقة بن نوفل، وما لبث الأخير أن فسرها لهُ على أنها وحي صادر من الله كما هو حال الأنبياء، فاعتقد النبي ﷺ بذلك وآمنَ وعمل بموجبهِ[١]، ولذلك فهو لم يسع إلى الخداع والتحايل، على حد قول وات: «فالقول بأن محمداً كان صادقاً لا يعني أن القرآن وحي حق وأنهُ من صنع الله، إذ يمكن أن نعتقد، بدون تناقض، أن محمداً كان مقتنعاً بأن الوحي ينزل عليهِ من عند الله وأن نؤمن في الوقت نفسه بأنهُ كان مُخطئاً»[٢].

الأدلة الإسلامية على كون الوحي الإسلامي إلهيّاً لا بشريّاً

القرآن الكريم هو كلام الله تعالى، المنزَّل على خاتم أنبيائهِ محمد بن عبد الله ﷺ، وبالوحي نزل القرآن، فكان خير رفيق للنبي ﷺ على مدى ثلاث وعشرين سنة.

ولم يكن ﷺ منفرداً بشرف نزول الوحي عن باقي الأنبياء، بل شاركهم في هذهِ الظاهرة. وعلى الرغم من أن الوحي قد نزل على جميع الأنبياء وهو نابع من مصدرٍ واحد، إلا أن كثيراً من المستشرقين لم يحاولوا أن يشككوا أو يُجرِّحوا الوحي الذي نزل على سيدنا عيسى عليه السلام باسم المنهج العلمي، بل صانوه وأقاموا على أنهُ بديهي التسليم وبعيد عن مجال الجدل العقلي أو العلمي التجريبي[٣].

وفي الوقت نفسه كان الوحي الإسلامي موضوعاً مهمّاً بالنسبة لهم، إذ لم ينظروا إليهِ على أنهُ بدهي وبعيد عن مجال الجدل العقلي أو العلمي التجريبي كما هو حال وحي سيدنا عيسى عليه السلام. أفلا يقضي النطق السليم

---

(١) The Encyclopedia Britannica, p. 2.

(٢) وات: محمد في المدينة ص ٤٩٦.

(٣) ينظر: عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر، ص ١٤٨.

إذن أن تكون النظرة إلى وحي الأنبياء نظرة واحدة مثلما هي طبيعة الوحي ومصدره واحدة.

إن كل ما توصَّل إليهِ المستشرقون من تفسيرات لظاهرة الوحي الإسلامي هي لا تطابق حقيقة الوحي، فقد عبَّر عنها بعضهم بالحالات النفسية أو الإلهامية أو المكاشفة[١]، وبالإمكان إدراك الفرق بين هذهِ الحالات التي ابتدعها المستشرقون وبين طبيعة الوحي الإلهي من خلال هذا النص: «وإذا كان الوحي فعلاً مميزاً، فهو صادر عن فاعل مُريد، وهذا الفاعل المُريد هو الله تعالى، وليس الكشف والإلهام كذلك. إن مرد الإلهام يعود عادةً إلى طبيعة الميدان التجريبي لعلم النفس، ونزعة الوحي النفسي في انقداحها تعتمد على التفكير في الاستنباط، والمكاشفة تتأرجح بين الشك واليقين، أما الوحي فحالةٌ فريدة مخالفة لا تخضع إلى التجربة أو التفكير ومتيقنة لا مجال معها للشك، فضلاً عن أن حالات الكشف والإلهام والإيحاء النفسي لاشعورية ولاإرادية، والوحي ظاهرة شعورية تتسم بالوعي والإدراك التامين»[٢].

ثم إن مصدر الإلهام والحدس الواقع، هو باطني (داخلي) ومتأثر بالتجربة البشرية، في حين أن مصدر الوحي هو خارجي غير متأثر بنفسهِ الداخلية أو أي تجربة بشرية، وغير ملتزم بالحدود الطبيعية للعقل البشري، لأنهُ ينقل للإنسان حقائق تتجاوز نطاق إدراكه العقلي، زد في ذلك أن القرآن الكريم ظلَّ ينزل على النبي ﷺ ما يقارب الثلاث والعشرين سنة، فهل يعقل إذن أن يلازم الحدس أو الإلهام، أو أي حالة أُخرى ابتدعها المستشرقون على مدى هذهِ السنين، ويكون معهُ في كل ما مرَّ من أحداث صغيرة، وكبيرة شهدها الإسلام؟ وهل يعقل أن تحمل هذهِ الحالات النفسية كل هذهِ الحكمة والأحكام، وكل ما في القرآن من إعجاز؟.

---

(١) المقصود بها: الوحي النفسي الصادر من النفس البشرية ويعبَّر عنهُ بـ (Intuition). ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (لبنان ـ لا. ت)، ص ١٦٧.

(٢) محمد حسين علي الصغير: «ظاهرة الوحي والمستشرقون» بحث منشور في كتاب «المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي»، (النجف ـ ١٩٨٦)، ص ٩٦، ٩٧؛ مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، ص ١٦٧، ١٦٨.

ولعل مما يفند طروحات المستشرقين بشأن مصدر الوحي الإسلامي، هو الفارق الكبير بين النص القرآني (الكلام الإلهي) وبين الكلام النبوي، فكلاهما تلقاهما المسلمون مباشرةً من النبي ﷺ، ومن ثم فالفارق كبير جدّاً بين النصَّين، الأول كلام إلهي، والثاني كلام بشري، فكيف إذن لشخص مهما بلغت إمكانياتهُ التعبيرية أن ينطق في وقتٍ واحد بأسلوبين مختلفين، ويصف الأول بأنهُ قرآن من عند الله، ويصف الثاني بأنهُ حديث نبوي صادر منهُ (عليهِ أفضل الصلاة والسلام)؟. وكيف يتسنى لهُ التمييز، والتفريق بين نوعين من الكلام لكل منهما طابعُه المميز وصياغتهُ المتقنة؟ أليس من المنطق أن ينسب شرف تأليف القرآن إلى نفسه ﷺ لو كان فعلاً من إنشائه وتأليفهِ[1]؟.

إن المتتبع سيرة النبي الكريم في حركاتهِ وعباراتهِ، وفي رضاه وغضبهِ، وفي كل ما صدر عنهُ من أفعال وأقوال، سيلاحظ حتماً بعض المواقف، والحالات التي يمرُّ بها لا تتوافق مع دعوى نسب القرآن إليهِ، كالعتاب الإلهي أو الحث الإلهي للنبي ﷺ للقيام بما يتردد القيام بهِ من الأوامر الإلهية. فقد وردت آيات متفرقة تُبيِّن مثل هذهِ الحالات، كردود أفعال غير راضية لقيام النبي ﷺ بعمل ما، وهذا بحد ذاتهِ يبعد الفكرة القائلة بأن القرآن هو من صنع محمد ﷺ، فكيف يؤلف القرآن وفي الوقت عينهِ ينتقد نفسه، وهذا ما نلمسهُ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[2]، وقوله: ﴿...وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ...﴾[3]، وقوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[4]، وقوله تعالى:

(١) ينظر: محمد بن عبد الله دراز: النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، ط ٢، دار القلم، (الكويت ـ ١٩٧٠)، ص ٢٢، ٢٣؛ التهامي نقرة: «القرآن والمستشرقون» بحث منشور في كتاب «مناهج المستشرقين»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، (الرياض ـ ١٩٨٥)، جـ ١، ص ٣٢، ٣٣.

(٢) سورة التحريم، الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب، الآية (٣٧).

(٤) سورة التوبة، الآية (٤٣).

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾[١]، وقوله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسۡرَىٰ حَتَّىٰ يُثۡخِنَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنۡيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

ولعل المنطق السليم يجد في العتاب الإلهي الذي جاء في عدد من آيات القرآن الكريم دليلاً على كونها صادرة من الله تعالى، وإلا لو كانت صادرة عن وجدان النبي ﷺ ومُعبرة عن تفكيره، أكان يعلنها عن نفسه أمام المسلمين بهذا الشكل من التهويل والتشنيع؟ ألم يكن الأفضل لهُ السكوت عنها ستراً على نفسه، واستبقاء لِحُرمة أقوالهِ وأفعالهِ؟ إن القرآن الكريم لو كان مثلما تصور وصوَّر بعض المستشرقين يفيض عن وجدانه ﷺ لكان بمقدوره عند الحاجة أن يكتم ما يريد إخفاءه من ذلك الوجدان، ولو كان كاتماً شيئاً لكتم أمثال هذهِ الآيات، ولكنهُ الوحي الإلهي الذي لا يستطيع كتمانه[٣].

نزول القرآن وأهمية التتابع الزمني لنزول سوره عند المستشرقين

نزول القرآن الكريم: ابتدأ التنزيل الإلهي للقرآن الكريم في شهر رمضان: ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ﴾[٤]، وقد حُدد في ليلة القدر: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةِ ٱلۡقَدۡرِ﴾[٥].

---

(١) سورة التوبة، الآية (١١٣).

(٢) سورة الأنفال، الآية (٦٧).

(٣) ينظر: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ٢٥.

(٤) سورة البقرة، الآية (١٨٥).

(٥) سورة القدر، الآية (١). ومن الجدير بالذكر أن الاتفاق بين علماء المسلمين لم يحصل في تعيين ليلة القدر، بخلاف ما اتفقوا عليهِ بشأن الشهر، ويرى أكثرهم أن ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان، وهي من ليالي الإفراد مثلما ذُكر عن النبي محمد ﷺ قوله في ليلة القدر: أطلبوها في العشر الأواخر وتراً، أي: (إما ليلة الحادي والعشرين أو الثالث والعشرين أو الخامس والعشرين أو السابع والعشرين أو التاسع والعشرين). ولم يحصل القطع التام في تعيين هذهِ الليلة عند علماء المسلمين. لمزيد من التفصيل ينظر: أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م): التبيان =

وكان المكان الذي استقبل فيه رسول الله ﷺ الوحي هو غار حراء، إذ كان النبي محمد ﷺ معتاداً على الخروج إلى هذا المكان برفقة أسرته أو منفرداً[١]، وتفصيلات هذا النزول يرويها ابن إسحاق على النحو الآتي: إن رسول الله ﷺ خرج في شهر رمضان، كما كان يفعل في السابق، يصحب أهله، حتى إذا كانت الليلة التي تشرَّف فيه بنزول الوحي الإلهي، جاءهُ جبريل عليه السلام مأموراً من الله تبارك وتعالى، فكان هذا التبليغ، الذي يروي أحداثه الرسول الكريم ﷺ بقوله: (فجأني وأنا نائم، فقال: اقرأْ، فقلت: وما أقرأُ! فعاد لي بمثل ذلك، ثم قال: اقرأْ، فقلت: وما أقرأُ؟ وما أقولها إلا تنجياً أن يعود لي بمثل الذي صنع بي فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٢] ثم انتهى، فانصرف عني وهببت من نومي وكأنما صُوِّر في قلبي كتاب)[٣].

كان هذا بداية نزول القرآن الكريم، النزول الذي رافق مسيرة النبي الأعظم على مدى ثلاثة وعشرين عاماً[٤]، إذ لم يُنزِّله الله تعالى دفعةً

= في تفسر القرآن، تحقيق أحمد حبيب قصي العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، (قم - ١٩٨٩)، مج ١٠، ص ٣٨٤؛ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م): مجمع البيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - ١٩٥٩)، مج ٣، ص ٥١٨؛ أبو عبد الله محمد بن أحمد أبي بكر بن فرج القرطبي (ت ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م): الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، (القاهرة - ١٩٥٢): جـ ٢٠، ص ١٣٤ - ١٣٦.

(١) ينظر: محمد بن إسحاق بن يسار (ت ١٥١هـ/ ٧٦٨م): سيرة ابن إسحاق، المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث، تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب، جـ ٢، ص ٩٧ - ١٠١؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ ٣، ص ٦؛ الحسن بن عمر بن الحبيب (ت ٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م): المقتفى من سيرة المصطفى، تحقيق مصطفى محمد الذهبي، دار الحديث، (القاهرة - ١٩٩٦)، جـ ١، ص ٥٢.

(٢) سورة العلق، الآيات (١ - ٥).

(٣) ينظر: ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق، جـ ٢، ص ١٠١؛ الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ١، ص ٥٣٢.

(٤) «هناك عدة أقوال في نزول القرآن الكريم، فقيل: عشرون؛ أو ثلاث وعشرون؛ أو خمس وعشرون سنة، وهو مبني على الخلاف في مدة إقامته ﷺ بمكة بعد النبوة، =

واحدة، بل كان النزول مُنجَّماً مفرقاً، بحسب ما يقتضي سبب النزول وما يريد الأمر الإلهي أن يبينه للناس، فقيل إن النزول كان في حدود الآية، والآيتين، والثلاث، والأربع، كما ورد نزول الآيات خمساً وعشراً وأكثر من ذلك وأقل، كما قد صح نزول سورة كاملة[١]. وعلى هذا المنوال ظلَّ القرآن ينزل نجوماً، ليقرأه النبي ﷺ على مكث ويقرأه المسلمون شيئاً فشيئاً، يتدرج مع الأحداث، والوقائع، والمناسبات التي يعيشها النبي ﷺ والمجتمع الإسلامي على مدى تلك السنين.

الحكمة من تعدد النزول: كما هو معروف أن الكتب السماوية السابقة قد أنزلها الله تبارك وتعالى كاملةً على أنبيائه، ولكن الله تعالى شاء أن ينزل القرآن الكريم منُجماً (مفرقاً) على النبي ﷺ[٢]، وقد جاء تعليل هذا الأمر في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةً وَٰحِدَةً﴾[٣]، فجاء الجواب في قولهِ تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾[٤]، أي: لنقوي به فؤادك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليهِ، ويستلزم ذلك كثرة نزول الملك إليهِ وتجدد العهد بهِ وبما معه من الرسالة.

وقيل في معنى ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ أي: لنحفظهُ لك، فإنه عليهِ السلام كان أميّاً لا يقرأ ولا يكتب، ففرِّق عليهِ ليثبت عنده حفظه بخلاف غيره من الأنبياء. وقيل أيضاً: إنما لم ينزل جملة واحدة لأن منهُ الناسخ والمنسوخ،

= فقيل عشر سنوات، وقيل ثلاث عشرة، وقيل خمس عشرة سنة، ولم يختلف في مدة إقامته بالمدينة أنها عشر». ينظر: محمد حسين علي الصغير: تأريخ القرآن، الدار العالمية، (بيروت ـ ١٩٨٣)، ص ٣٧.

(١) ينظر: محمد بن محمد بن محمد الغزي (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م): إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن، تحقيق خليل محمد العربي، دار الفاروق الحديثة، (القاهرة ـ ١٩٩٤م)، جـ ١، ص ١٢٢، ١٢٣.

(٢) محمد عبد الله المهدي البدري: القرآن الكريم تأريخه وعلومه، دار القلم، (دبي ـ ١٩٨٤)، ص ٣٣؛ عبد الفتاح القاضي: تأريخ المصحف الشريف، مكتبة المشهد الحسيني، (القاهرة ـ لا. ت) ص ٩، ١٠.

(٣) سورة الفرقان، الآية (٣٢).

(٤) سورة الفرقان، الآية (٣٢).

ولا يتأتى ذلك إلا فيما أُنزل مفرقاً، ومنهُ ما هو جواب عن سؤال، وما هو إنكار على قول أو فعل(١).

ولإنزال القرآن الكريم مُنجماً فوائد وحكم كثيرة يمكن أن نقف على أهمها:

أولاً: في موقف المعارضة القرشية لدعوة النبي ﷺ، فإن القرآن الكريم في كل مرة من مرات نزوله كان يتحدى المشركين والكفار ويدحض ادعاءاتهم، فكان لذا أكبر الأثر في لفت انتباه الناس إليهِ وجذب لكثير منهم لاعتناق الدين الإسلامي متأثرين بالكلام الإلهي.

ثانياً: في حين استمر الوحي بالنزول على النبي ﷺ على مدى سنوات الدعوة، بكل ما فيها من شدائد تُصيبهُ، وأحداث جسام يمر بها، فكان (عليهِ أفضل الصلاة والسلام) يجد في نزول القرآن تفريجاً من الله تبارك وتعالى لهمومه وارتباطاً أقوى بربه وأنهُ دائماً إلى جانبه، وهنا تتجلى أهمية النزول المفرَّق المتواصل على مدى سنين طويلة.

ثالثاً: وفيما يتعلق بالمسلمين، فإن النزول مُنجماً فيه تيسيرٌ لهم في الحفظ وتخفيفٌ عليهم في العمل، وتدَرُّجٌ بهم في التربية، وترفُّقٌ بهم في الانسلاخ من عقائدهم وأعرافهم الباطلة إلى عقيدة التوحيد، وشريعة الإسلام، كما أنهُ تثبيتٌ لإيمانهم ودفعٌ لما قد يصيبهم من وساوس الشيطان، وأقوال المنافقين.

رابعاً: والتنجيم هو خير وسيلة لإثبات عائدية القرآن إلى الله تبارك وتعالى، فهو دليل قاطع، وشهادة ناطقة لهُ بالإعجاز حين تأتي الآية، أو الآيات الجديدة لتوضع بأمر الله تعالى إلى جوار الآيات السابقة في النزول ولو كانت منذُ سنتين، فإذا بهن متجانسات متشابهات لا يحصل فيهنَّ أي تناقض، مثلما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾(٢).

---

(١) ينظر: الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، جـ ٧، ص ٤٨٨؛ الزرقاني: مناهل العرفان، جـ ١، ص ٣٩.

(٢) سورة النساء، الآية (٨٢).

خامساً: والمدقق في سيرة النبي الكريم ﷺ، يجد حالات متعددة يظلُّ فيها النبي ﷺ منتظراً الجواب الإلهي، في حالات توجيه سؤال معين لهُ أو النية في القيام بعملٍ مهم، وانتظار الأمر الإلهي ولو طال عليهِ، وهذا بحد ذاتهِ شهادة لهُ بالنبوة وبأنه لا ينطق عن الهوى من تلقاء نفسهِ وإنما هو وحي يوحى إليهِ من الله تعالى، ولو لم يكن كذلك ما احتاج (عليهِ أفضل الصلاة والسلام) إلى الانتظار في إجابة الأسئلة واتخاذ القرارات المهمة.

التتابع الزمني للسور القرآنية عند المستشرقين

من بين المسائل المهمة التي توجَّه المستشرقون إلى دراستها في القرآن الكريم، كان معالجة عنصر الزمن من خلال التسلسل الزمني للسور القرآنية، ولأن المستشرقين يفضلون التعامل مع القرآن على أنه كتاب تأريخي ليس إلا، حاولوا جاهدين إعادة ترتيب سورهِ بحسب زمن نزولها، معتقدين بذلك أنهم يقدمون خدمة جليلة للمعرفة التأريخية، فكانت المحاولة الأهم في تأريخ الاستشراق تلك التي قام بها المستشرق الألماني تيودور نولدكه عام ١٨٦٠، وأعقبتها محاولة المستشرق الإنكليزي إدوارد سيل عام ١٨٩٨.

أولاً: محاولة تيودور نولدكه في إعادة ترتيب سور القرآن: لقد أفصح نولدكه بوضوح عن المنهج الذي اعتمد عليه في الوصول إلى تسلسل زمني لسور القرآن، فالمضمون وطبيعة الترتيب، في داخل النص القرآني من خلال الأسلوب والفكرة، وما نقلتهُ كتب السيرة، والتأريخ الإسلامي المتقدمة، هي المواد الأساس التي اعتمد عليها نولدكه(١) في عمله هذا، إلا أنهُ لم يخفِ معوقاً مهمّاً رافق عملهُ، تمثل بعدم الوثوق بما جاء في الروايات الإسلامية ولا سيما ما يخص منها السنوات المهمة والمراحل المختلفة من حياة الرسول محمد ﷺ، لاختلاف معظم تلك الروايات وعدم اتفاقها، وتعرض لمدة النبوة في مكة(٢) كمثال عن تعدد هذهِ الرويات واختلافها(٣).

---

(١) Noldeke, Theodor, Geschichte des Qorans, (Germany - 1961), P - 66, 67, P. 91.

(٢) ينظر: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم، ص ٥٧.

(٣) Ibid, P. 66, 67.

إن طريقة نولدكه في وضع تسلسل زمني للقرآن، كانت تقضي بتقسيم سوره أربع مراحل هي كالآتي:

المرحلة الأولى: تبدأ بنزول القرآن الكريم، أي من السنة الأولى من البعثة حتى السنة الخامسة منها.

المرحلة الثانية: حددها نولدكه بالسنتين الخامسة والسادسة من البعثة.

المرحلة الثالثة: تبدأ من السنة السابعة من البعثة حتى هجرة النبي الكريم ﷺ إلى مدينة يثرب.

المرحلة الرابعة: وتشمل السور المدنية جميعاً، أي كل ما نزل بعد هجرة النبي ﷺ إلى مدينة يثرب.

أ ـ سور المرحلة الأولى: يرى نولدكه أن أسلوب سور هذهِ المرحلة غلب عليهِ طابع الحماسة التي حركت النبي ﷺ في السنوات الأولى من البعثة. فالكلام كان مليئاً بالشجاعة، ذا تصوير بلاغي وتنويع شعري، انعكس في الآيات القصيرة ذات الحوار الإيقاعي العذب[١]، كما يرى أن أفكار النبي الكريم ومشاعره تظهر أحياناً بشكل غامض في مضمون النص القرآني[٢]، وأن ما يميز سور هذهِ المرحلة عبارات القسم التي تتكرر في بدايات السور، التي يربطها نولدكه بما اعتاد عليهِ رجال الدين الوثنيون في بدء أقوالهم بقسم قوي غالباً ما يكون بمكونات الطبيعة كالليل والنهار، والضوء والظلام، والشمس والقمر والنجوم[٣].

حدد نولدكه سورة العلق (ترتيبها في القرآن ٩٦) بأنها أول سورة نزلت من سور القرآن الكريم، ولكنهُ في الوقت نفسه يؤكد أن الآيات (٦ ـ ١٩) تعود إلى أوقات لاحقة وأضيفت إلى الآيات الأولى[٤] من السورة، ثم إنه يعجز عن تحديد وقت نزول تلك الآيات بالضبط[٤].

وتأتي سورة المدثر (ترتيبها في القرآن ٧٤) بعد العلق بحسب ترتيب

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 74.

(٢) Ibid, P. 74.

(٣) Ibid, P. 75.

(٤) Ibid, P. 83, 84.

نولدكه، الذي يرى بأن عبارة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ مرتبطة بمناسبة نزول سورة العلق نفسها[١]. ثم وضع سورة المَسَد (ترتيبها في القرآن ١١١) بعد المدثر مستنداً في ذلك إلى علاقتها بموقف عم النبي أبو لهب الرافض بشدة والمعادي لاعتناق الدين الإسلامي[٢]، ثم وضع سورة قريش (ترتيبها في القرآن ١٠٦) بعد المَسَد مشيراً إلى أنه نزلت قبل بداية الصراع بين النبي ﷺ وقريش، وتبعتها سورة الكوثر (ترتيبها في القرآن ١٠٨)[٣]، في حين وضع سورة الهُمَزَة (ترتيبها في القرآن ١٠٤) بعد سورة الكوثر وأعقبها بالترتيب بسورة الماعون (ترتيبها في القرآن ١٠٧)، وسورة التكاثر (ترتيبها في القرآن ١٠٢)، ثم سورة الفيل (ترتيبها في القرآن ١٠٥) التي يعبر عنها نولدكه بأنها أول سورة ورد فيها ذكر الكفار في قصة مهاجمة مكة[٤]، وأتبعها بسورة الليل (ترتيبها في القرآن ٩٢)، وسورة البلَد (ترتيبها في القرآن ٩٠) وعلق على ما جاء في كتاب الإتقان بشأن هذهِ السورة من أنها سورة مدنية، وأصر نولدكه على أن ذلك الرأي خاطىء[٥].

ووصف السور المتبقية من هذهِ المرحلة، بأنها سور ذات مضامين متشابكة، ولكنهُ (أي نولدكه) في الوقت نفسه يحدد نقطة مهمة تتطابق بها هذهِ السور، وهي عدم ورود أي ذكر لقتال الكفار، ولا أي وصف للأحداث الأخيرة من العهد المكي[٦]. ووضع نولدكه بعد تلك السلسلة من السور المتقدمة، سورتي الضُّحى والشرح (ترتيبهما في القرآن ٩٣ و٩٤)، ويرى بأن الله تبارك وتعالى كان مواسياً نبيه فيهما[٧]، وأعقبهما بسورة القدر (ترتيبها في القرآن ٩٧) التي يقول عنها: «فقد عُدَّت خطأً مدنية بسبب روايات وردت في الإتقان»[٨]، ثم سورة الطارق (ترتيبها في القرآن ٨٦)، بعدها سورة الشمس (ترتيبها في القرآن ٩١) التي أشار نولدكه إلى ما تضمنته من عبارات القسم، ثم سورة عَبَس (ترتيبها في القرآن ٨٠)، وفي هذهِ السورة يشير نولدكه إلى لوم الله

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 91, 92.

(٢) Ibid, P. 92.

(٣) Ibid, P. 92.

(٤) Ibid, P. 93.

(٥) Ibid, P. 93, 94

(٦) Ibid, P. 94.

(٧) Ibid, P. 94, 95.

(٨) Ibid, P. 95.

تبارك وتعالى للنبي الكريم محمد ﷺ بأن يستمر بنشر الدين الإسلامي، وأن لا يصغي إلى فاقدي البصيرة الذين لا يؤمنون[١].

ثم سورة القَلَم (ترتيبها في القرآن ٦٨) التي يشير نولدكه إلى كونها مرتبطة في موضوعها بأول سور القرآن نزولاً، ويقول عنها: «من المحتمل أن تُعدَّ كلمة و«القلم» التي تبدأ بها السورة مقدمة لسورة ٩٦ ـ أي سورة العلق[٢]ـ. . . لكن الآيات من ١٧ ـ ٣٣، والآيات من ٤٨ ـ ٥٢ قد تكون أُضيفت في المرحلة الثانية من الحقبة المكية»[٣].

بعدها وضع سورة الأعلى (ترتيبها في القرآن ٨٧) التي يجد فيها إشارة إلى الصلاة والأدعية ولكنها معلومات غير منظمة، ولذلك استبعد أن تكون هذهِ السورة مدنية، والشيء نفسه حدث مع سورة التِّين (ترتيبها في القرآن ٩٥) التي أشارت الآية الثالثة[٤] منها إلى مكة كمكان مقدس[٥]، وتعقبها ضمن تسلسل نولدكه الزمني سورة العَصْر (ترتيبها في القرآن ١٠٣) التي يشك نولدكه بأنها ناقصة[٦]. وجاءت سورة البروج (ترتيبها في القرآن ٨٥) بعد العصر، التي أشار فيها نولدكه إلى أن الآيات (٨ ـ ١١) قد زيدت مؤخراً من قِبَل النبي ﷺ مستنداً في هذا إلى أن هذه الآيات هي أطول من أخواتها في السورة نفسها، فضلاً عن ذلك أسلوب كلامها مطول وذو إيقاع ضعيف[٧].

ثم تتبعها سورة المُزَّمل (ترتيبها في القرآن ٧٣) التي يؤكد نولدكه على أن الآية (٢٠) منها هي مدنية، ويستغرب أن المسلمين لم ينتبهوا إلى هذا الأمر، ثم سورة القارعة (ترتيبها في القرآن ١٠١). ثم سورة الزلزلة (ترتيبها في القرآن ٩٩)، ثم سورتي الانفطار والتكوير (ترتيبهما في القرآن ٨١ و٨٢)، أعقبهما بسورة النجم (ترتيبها في القرآن ٥٣)[٨]، وبعدها سورة

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 95.

(٢) Ibid, P. 96.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين/ ٣].

(٤) Ibid, P. 96.

(٥) Ibid, P. 96.

(٦) Ibid, P. 97, 98.

(٧) Ibid, P. 95.

(٨) Ibid, p. 98, 99.

الانشقاق (ترتيبها في القرآن ٨٤)، ثم سورة العاديات (ترتيبها في القرآن ١٠٠)، وأشار نولدكه إلى أن بعض المسلمين قد عدُّوها خطأً مدنية، لاعتقادهم بأن الآيات الأولى منها تخص الدواب التي استعملها النبي ﷺ في حروبه خلال العهد المدني[١].

ومن ثم سورة النازعات (ترتيبها في القرآن ٧٩) ويقسمها نولدكه إلى ثلاثة أجزاء: الأول من الآية ١ ـ ١٤، والثاني من الآية ١٥ ـ ٢٦، والثالث من الآية ٢٧ ـ ٤٦، ويرى بأن الجزء الثالث كان متأخراً عن الجزأين الأول والثاني[٢]، ثم تأتي سورة المُرسلات (ترتيبها في القرآن ٧٧)، وسورة النَّبأ (ترتيبها في القرآن ٧٨)، وسورة الغَاشية (ترتيبها في القرآن ٨٨)، وسورة الفجر (ترتيبها في القرآن ٨٩)، ثم سورة القيامة (ترتيبها في القرآن ٧٥)، ويؤكد نولدكه على أن الآيتين (١٦ و١٩) لا ترتبطان بباقي آيات هذهِ السورة[٣].

ثم تأتي سورة المطفِّفين (ترتيبها في القرآن ٨٣)، ويرى نولدكه أن خلافاً قائماً بشأن تحديد زمن نزولها، فبعضهم يعدُّها من أواخر العهد المكي، وآخرون يعدُونها مدنية، وهناك رأي ثالث يقول إنها نزلت بين مكة والمدينة[٤]. ثم سورة الحَاقَّة (ترتيبها في القرآن ٦٩)، وبعدها سورة الذَّاريات (ترتيبها في القرآن ٥١)، وسورة الطُّور (ترتيبها في القرآن ٥٢)، ويؤكد نولدكه على أن الآية (٢٤) منها تعود إلى المرحلة الثانية من المراحل التي افترضها هو، لكونها أخلَّت بترابط الآيات وكانت أكثرهنَّ طولاً[٥].

تأتي بعدها سورة الواقعة (ترتيبها في القرآن ٥٦)، ثم سورة المعارج (ترتيبها في القرآن ٧٠)، التي يرى نولدكه أن بدايتها كانت مرتبطة مع بداية سورة (٥٦)، ويقرر أن الآيات (٣٠ ـ ٣٢) هي آيات اشتقت من سورة (المؤمنون)[٦]، ثم سورة الرحمٰن (ترتيبها في القرآن ٥٥)، وجاءت بعدها

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, PP. 100, 103.

(٢) Ibid, P. 104.

(٣) Ibid, P. 104, 105.

(٤) Ibid, P. 105.

(٥) Ibid, P. 105 - 106.

(٦) Ibid, P. 106.

سورة الإخلاص (ترتيبها في القرآن ١١٢)، ثم سورة الكافرون (ترتيبها في القرآن ١٠٩)[١].

ثم تأتي باقي سور المرحلة الأولى على التوالي: سورتا الفَلَق والنَّاس (ترتيبهما في القرآن ١١٣ و١١٤)، ويعلق نولدكه على أسلوب هاتين السورتين بقوله: «بهذا يكون مضمون كلتي السورتين... أثَّر فينا كثيراً، ففي جميع أنحاء العالم تكون أقوال السحرة والسحر، لها أسلوب كلامي ولغوي مختلف، (فإن محمداً) كان قد ألَّف في سنواتِهِ الأخيرة (صيغاً ساحرةً) ابتعدت عن الأسلوب السائد للسور المدنية واقتبس كثيراً من الأسلوب الوثني القديم»[٢]. ويضع نولدكه سورة الفاتحة (ترتيبها في القرآن ١) في نهاية سور المرحلة الأولى، ومع هذا يرى أن تأريخ نزولها قد يكون أقدم من هذا الموقع، مستنداً إلى أن «علاقتها الأدبية»، بحسب تعبيره، لم تكن واضحة بما تلاها من السور القرآنية[٣].

ب ـ سور المرحلة الثانية: يصف نولدكه سور المرحلة الثانية، بأنها لم تتسم بميزة مخصصة بها، فبعضها مماثل لسور المرحلة الأولى، وبعضها الآخر مماثل لسور المرحلة الثالثة، ولكن ما يلاحظ عليها أنها انتقلت من طابع الحماس الشديد الذي تميزت بِهِ سور المرحلة الأولى إلى الهدوء الكبير في الكثير من السور الواقعية، ويُسوِّغ نولدكه هذا الانتقال بحرص الرسول الكريم ﷺ على كسر الأكذوبة بأنه شاعر أو ساحر أو محوها[٤].

أيضاً يجد نولدكه أن النبي محمد ﷺ قد تطرق إلى جملة من الأمثلة عن الطبيعة والتأريخ في سور المرحلة الثانية وأن آثار الطابع الشعري المألوف في السور القديم انخفض هنا وقلَّ وربما انعدم[٥]، ولكن التصويرات (الأوصاف) كانت دائماً أشمل وأوسع، ويظهر الهدوء في الطول التدريجي للآيات، كما أن الذكر المتكرر للعقائد، ولا سيما ما يخص منها معرفة

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 106, 107.

(٢) Ibid, V. 1, P. 109.

(٣) Ibid, P. 112.

(٤) Ibid, P. 117, 118.

(٥) Ibid, P. 119.

الربِّ بالطبيعة، والقصص الطويلة لحياة الرُسل القدامى، التي تعدُّ بمثابة تحذير للأعداء، ومواساة للأتباع[١].

ويؤكد نولدكه على أن أسلوب سور المرحلة الثانية اختلف عن أسلوب سور المرحلة الأولى، ولذلك فقد تطلب الأمر صيغاً كلامية حديثة لعدم استعمال الصيغ القديمة، فعلى سبيل المثال اختفت عبارات القسم المميزة لسور المرحلة الأولى[٢]، ليتسم القَسم هنا بالطول تارةً، وبالصيغ القصيرة تارةً أُخرى مثل «والقرآنِ»، «والكتابِ»[٣].

حدد نولدكه سورة القَمَر (ترتيبها في القرآن ٥٤) كأول السور نزولاً من المرحلة الثانية، ثم سورة الصَّافات (ترتيبها في القرآن ٣٧) التي يقسمها إلى أجزاء، ويرى أن آياتها (١ ـ ٧٠) تؤكد يقين يوم الحساب إزاء شك أهالي مكة وريبتهم، في حين أوضح أن الآيات (٧٣ ـ ١٤٨) تناولت قصص سبع من الأنبياء السابقين، وأن الآيات (١٤٩ ـ ١٦٦) أشارت إلى شرك أهل مكة[٤].

ثم سورة نُوح (ترتيبها في القرآن ٧١)، بعدها سورة الإنسان (ترتيبها في القرآن ٧٦) وقد وضعها نولدكه في هذا الموضع على الرغم من قولهِ عنها: «وعُدَّت على أنها تقتصر على عصر ما بعد الهجرة»[٥]، أي إنها سورة مدنية.

تأتي بعدها سورة الدُّخان (ترتيبها في القرآن ٤٤)، وسورة ق (ترتيبها في القرآن ٥٠)، إلا أنهُ عدَّ الآية (٣٧) منها على أنها مدنية، ثم سورة طه (ترتيبها في القرآن ٢٠)، وسورة الشُّعراء (ترتيبها في القرآن ٢٦)[٦]، وسورة الحِجْر (ترتيبها في القرآن ١٥)، ويذكر نولدكه أن فيها آيتين قديمتين هما (٨٩ و٩٤)[٧] وتعودان إلى أيام الدعوة الأولى، ولكن أسلوب الكلام في

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 119, 120.

(٢) عن عبارات القسم في سور المرحلة الأولى راجع ص ٦٦.

(٣) Ibid, P. 120.

(٤) Ibid, PP. 121 - 123.

(٥) Ibid, P. 124.

(٦) Ibid, P. 125, 126.

(٧) قوله تعالى: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ﴾ [الحجر/ ٨٩]. ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر/ ٩٤].

السورة لا يعود إلى المدة القديمة نفسها[١].

ثم سورة مَريم (ترتيبها في القرآن ١٩)، وسورة ص (ترتيبها في القرآن ٣٨)، ثم سورة يس (ترتيبها في القرآن ٣٦)، ثم سورة الزخرُف (ترتيبها في القرآن ٤٣) التي يرى نولدكه بأن أجزاء من آياتها ترجع إلى أزمان مختلفة[٢].

ثم سورة الجنّ (ترتيبها في القرآن ٧٢) التي عبرت عن عودة النبي ﷺ من الطائف، وكيف استمع نفر من الجن إلى القرآن، ونولدكه لا يتوانى عن الإشارة إلى أن هذهِ السورة قد تعود إلى وقت آخر وتحديداً إلى رحلة النبي ﷺ إلى الحجاز (تبوك في ٩هـ)[٣]، ثم سورة المُلك (ترتيبها في القرآن ٦٧) وبشأنها يقول نولدكه إن بعض المسلمين عدُّوها مدنية بسبب طولها الذي يشبه طول سورتي الحديد، والتَّحريم المدنيتين[٤].

تأتي بعدها سورة المؤمنون (ترتيبها في القرآن ٢٣)، وأشار إلى الآية (٧٨)[٥] منها على أنها عدت خطأً مدنية بسبب إشارتها إلى معركة بدر[٦]، وسورة الأنبياء (ترتيبها في القرآن ٢١)، وسورة الفُرقان (ترتيبها في القرآن ٢٥)، وسورة الإسراء (ترتيبها في القرآن ١٧) التي يجدها نولدكه أنها تحدثت عن مسرى الرسول الكريم ﷺ من مكة إلى القدس، ويبدي اعتراضاً قويّاً بشأن الآية رقم (١) التي لا يرى بأنها متوافقة، ومترابطة مع ما يليها من آيات، وعليهِ فهو يتفق مع رؤية استشراقية قائمة على أساس أن آيات أُخرى تلي الآية رقم (١) قد اختفت، أو أن هذهِ الآية ضُمت إلى القرآن بعد وفاة النبي ﷺ[٧]، ثم تتبعها سورة النَّمل (ترتيبها في القرآن ٢٧)، وأخيراً سورة الكهْف (ترتيبها في القرآن ١٨)[٨].

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, PP. 127 - 129.

(٢) Ibid, PP. 130, 131.

(٣) Ibid, PP. 132, 133.

(٤) Ibid, P. 133.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون/ ٧٨].

(٦) Ibid, P. 134.

(٧) Ibid, PP. 134 - 136.

(٨) Ibid, P. 140, 141.

جـ ـ سورة المرحلة الثالثة: وحين يتعرض لسور المرحلة الثالثة من الحقبة المكية يبدأ بالقول: «إن ما تم التطرق إليهِ في المرحلة الثانية من ناحية الأسلوب، واللغة تدريجياً، يتم ذكرهُ هنا في المرحلة الثالثة نهائيّاً، فاللغة كانت متراخية، ضعيفة وواقعية، التكرارات المتعددة التي لم يخشها النبي ولا سيما تلك الكلمات التي تملك الحُجج، والبراهين الواضحة التي لا تقنع إلا من لديهِ إيمانٌ وتصديق؛ والحصيلة النهائية أن تلك التكرارات تجعل الوحي غالباً مملاً من كثرة ترددهِ، ولكن من لم يهتم باللغة الأصل وبالمسائل الدينية وتتابعها التأريخي، لم يبالِ بقراءة الأجزاء المتأخرة من القرآن مرة أُخرى أو ثالثة»[١].

ثم يذكر ما امتازت بهِ سور هذهِ المرحلة من طول واتساع في آياتها والالتزام غالباً بقافية معينة، وأيضاً من مميزات هذهِ المرحلة عبارة (يا أيها الناس) التي كانت تتردد كثيراً في حديث النبي ﷺ الواقعي. ويؤكد نولدكه على أن سور المرحلة الثالثة لم يظهر عليها أي تطور، ولذلك فمن الممكن تصور تسلسل تأريخي أقل مما تم للسور السابقة. وهو يضع سورة السَّجْدة (ترتيبها في القرآن ٣٢) كأول سور هذهِ المرحلة نزولاً، وهو يؤكد أن الآيات (١٦، ١٨ ـ ٢٠) قد عُدَّت خطأً مدنية، بالاستناد إلى روايات تأريخية معينة تتعلق بالمهاجرين الفقراء وارتباطها بمعركة بدر وما حدث فيها[٢].

وتأتي بعدها سورة فُصِّلت (ترتيبها في القرآن ٤١)، وسورة الجاثية (ترتيبها في القرآن ٤٥)، وسورة النَّحْل (ترتيبها في القرآن ١٦)، وسورة الرُّوم (ترتيبها في القرآن ٣٠)، وسورة هُود (ترتيبها في القرآن ١١)[٣]، وسورة إبراهيم (ترتيبها في القرآن ١٤) وقد أشار نولدكه إلى الآيتين (٣٣ ـ ٣٤) التي عدها المفسرون المسلمون تخص القرشِيين في معركة بدر، وهي نظرة خاطئة برأي نولدكه[٤]، وسورة يُوسف (ترتيبها في القرآن ١٢) التي يراها متميزة عن بقية السور الكبيرة الأخرى لكونها تتحدَّث عن موضوع واحد،

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 143.

(٢) Ibid, P. 144.

(٣) Ibid, P. 145 - 152.

(٤) Ibid, P. 152.

وهو قصة نبي الله يوسف عليه السلام باستثناء بعض الآيات القليلة جدّاً[١].

ثم تأتي سورة غافر (ترتيبها في القرآن ٤٠) ويرى نولدكه أن الآية (٥٨)[٢] منها تعود إلى العهد المدني لكونها تتعلق باليهود، وسورة القصَص (ترتيبها في القرآن ٢٨) ولا يتوانى نولدكه عن أن يقول في شأن الآية (٥٢)[٣]، بأن بعض المسلمين عدَّها خطأً نزلت بحق المسيحيين الذين وفدوا على النبي محمد صلى الله عليه وسلم في المدينة[٤].

ثم سورة الزُّمَر (ترتيبها في القرآن ٣٩) ويرجح نولدكه أن الآيات (٥٤ - ٦١) قد تكون متعلقة بالوحشي الذي قتل عم النبي صلى الله عليه وسلم الحمزة بن عبد المطلب، وبذلك فهي مدنية النزول، وأشار إلى ما عدَّهُ بعضهم من الآيات (١٣ و٢٤)[٥] يخصان ما بعد الهجرة إلى المدينة[٦].

ثم سورة العنكبوت (ترتيبها في القرآن ٢٩) التي عدَّ بعضهم آياتها (١ - ١٠) على أنها مدنية[٧]، وسورة لقمان (ترتيبها في القرآن ٣١) إذ عَلق نولدكه على قصة لقمان الواردة في السورة بقولِهِ: «وقد تكون قصة لقمان أُضيفت وأُكملت فيما بعد»[٨] أي في الحقبة المدنية، وهو يؤكد على أن الآيتين (٢٦ و٢٨)[٩] تشيران إلى اليهود في المدينة، وبهذا فإنهما نزلتا هناك[١٠].

بعدها سورة الشُّورى (ترتيبها في القرآن ٤٢)، وسورة يونس (ترتيبها في

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 152, 153.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [غافر/ ٥٨].

(٣) قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ [القصص/ ٥٢].

(٤) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, p. 154.

(٥) قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾، ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر/ ١٣ و٢٤].

(٦) Ibid, P. 154, 155.

(٧) Ibid, P. 156.

(٨) Ibid, P. 157.

(٩) قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [لقمان/ ٢٦]، ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان/ ٢٨].

(١٠) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 157.

القرآن ١٠) وفيها مجموعة من الآيات عُدَّت خطأً مدنية مثلما يعبر عنها نولدكه، ومنها الآية (٤١)[١] التي نسبوها إلى اليهود، والآيات (٩٤ ـ ٩٦) و(٥٩، ٦٠) التي عدَّها بعضهم بأنها أقدم آيات القرآن، والشيء نفسه في السورة التي تليها، وهي سورة سَبَأ (ترتيبها في القرآن ٣٤) وآيتها (١٢) التي يرد فيها ذكر اليهود، ثم سورة فَاطر (ترتيبها في القرآن ٣٥)[٢]، وسورة الأعراف (ترتيبها في القرآن ٧) التي قسمها نولدكه خمسة أقسام: الآيات (١ ـ ٥٦) تتضمن تغرير آدم وحديث الموعظة لأبنائهِ، والآيات (٥٧ ـ ١٠٠) بعث الأنبياء القدامى نوح، صالح وشعيب، الآيات (١٠١ ـ ١٧٣) موسى والمصير الأخير لليهود، الآيات (١٧٤ ـ ١٨٥) بشأن عدو مجهول للرب، وأخيراً الآيات (١٨٦ ـ ٢٠٥) تتعلق بقيام القيامة (الساعة الأخيرة من الدنيا). وبعد تقسيمه سورة الأعراف إلى هذهِ الأجزاء يعلق ويقول: «على الرغم من عدم وجود أي صلة قوية بين تلك الأجزاء، لكن النبي محمداً سعى مشكوراً لجمع وتوحيد تلك الأجزاء معاً»[٣]، وهو يحدد مجموعة من الآيات التي وردت في السورة ليؤكد أنها آيات مدنية ومنها: (١٥٦ ـ ١٥٨)، ١٦٣، ١٩٨، ٢٠٣[٤].

ثم تأتي سورة الأحقاف (ترتيبها في القرآن ٤٦)، ويعلق نولدكه على بعض آياتها بالقول: «وفقاً للسُّنَّة (المذهب السُّنِّي) عدت الآية (١٤)[٥] على أنها تعود لأبي بكر، ويبدو أن هذا الموروث ـ التفسير ـ وجد لتبرير خلافتهِ... هذا ما لا يمكن إصدار الحُكم فيه، ولهذا فإن نص الآيات ١٤ ـ ١٦ على

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس/ ٤١].

(٢) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, p. 158.

(٣) Ibid, P. 158.

(٤) Ibid, P. 159.

(٥) قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف/ ١٤ ـ ١٦].

الإطلاق لم يُحدد شخصية معينة، وإنما تؤكد على البر والإحسان كصفحة مهمة للإنسان المؤمن إزاء والديهِ»[(١)].

بعدها سورة الأنعام (ترتيبها في القرآن ٦) وأكد نولدكه أن بعض آياتها ترجع إلى ما بعد الهجرة، ومنها الآيات ٢٠، ٩١ ـ ٩٤، وآخر سور المرحلة الثالثة والحقبة المكية ضمن التسلسل الزمني لسور القرآن الذي افترضهُ نولدكه، كانت سورة الرَّعد (ترتيبها في القرآن ١٣)[(٢)].

د ـ سور المرحلة الرابعة (السور المدنية): توصَّل نولدكه إلى أن سور المرحلة الرابعة (السور المدنية) كانت تحتوي على تباين كبير من ناحية الأسلوب إزاء الحقبة المكية، فضلاً عن استعمال كلمات، وتعبيرات جديدة على وفق ما يقتضيهِ النص القرآني ولكنها غير مألوفة في سور العهد المكي[(٣)].

وعلى آية حال تتضمن هذهِ السور مواقع، ومواضيع مليئة بالحيوية، وهي عموماً مواضيع مختصة بالقوانين، والأوامر، والوصايا القصيرة. من ناحية أُخرى إن تماثل المضمون أدى إلى تجمُّع الوحي المدني المنفرد في سورة واحدة، وعليهِ فإن السور المدنية نجدها من أطول السور القرآنية[(٤)].

وأول السور المدنية كما يحددها نولدكه، هي سورة البقرة (ترتيبها في القرآن ٢) وهو يراها بهذا الموقع لكونها أقدم السور المدنية، لأن الجزء الأكبر منها ينحدر من السنة الثانية للهجرة وتحديداً من المدة التي سبقت معركة بدر، ويرى نولدكه أيضاً بأن الجزء الأكبر من السورة، من آية (١ ـ ١٩)، هو مكي متأخر النزول، أما الجزء الثاني، من الآية (١٩ ـ ٣٧)، فلا يجد نولدكه أي دليل على كونه مدنيّاً، بل على العكس لديه ما يشير إلى أنهُ مكي، وهو يقرر بأن الآيات (٩٨ ـ ١١٥) تعود إلى وقت تحديد القبلة[(٥)]، في حين يرجح في الآيات (١١٦ ـ ١٣٥) أنها حاولت أن تثبت تأثير الكعبة ودين إبراهيم على اليهودية، أما الآيات (١٤٨ ـ ١٥٢) فيراها حديثة العهد،

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, p. 160.

(٢) Ibid, P. 162.

(٣) Ibid, P. 171.

(٤) Ibid, P. 172.

(٥) Ibid, P. 174, 175.

أي ما بعد معركة بدر. وهو يرجح في الوقت نفسه فقدان بعض الكلمات أو الآيات من الآيات (١٥٨ ـ ١٦٢)[1]، ويرى بأن الآيات (١٨٦ ـ ١٨٩) تشير إلى الحرب، وتسمح للمسلمين بأن يدافعوا عن أنفسهم بالسلاح ضد أهل مكة، ولذلك فهو يشك في أن هذا الجزء من السورة يعود لحقبة فتح مكة أو لحقبة حملة الحُديبية عندما توجه النبي والمسلمون للعمرة في السنة السادسة من الهجرة متخذاً احتياطات حربية، كما أنهُ يعترض على ترتيب الآيات (٢٢٠)، (٢٢٣ ـ ٢٣٨)، (٢٤١ ـ ٢٤٣) لكونها لا تعطي أي دليل على إثباتها الزمني[2].

في حين يرى نولدكه في الآيات (٢٤٤)، (٢٤٧ ـ ٢٥٧) أنها ساهمت في تأجيج مشاعر الشجاعة، والطاعة لدى المسلمين من خلال أمثلة من القصص القرآني[3]، في حين عدَّ الآيات (٢٧٨ ـ ٢٨١) عائدة إلى الأجزاء الأخيرة من القرآن، لأن نزولها كان عند حجة الوداع التي أشارت إلى الفوائد التي يجنيها العباس عم النبي وموضوع الربا[4].

بعدها في الترتيب سور البَيِّنَة (ترتيبها في القرآن ٩٨) على الرغم من أن هناك من عدَّها مكية لكونها تشابه في صياغتها أسلوب السور المكية المتأخرة، على حد تعبير نولدكه[5]، ثم سورة التغابن (ترتيبها في القرآن ٦٤) التي يعتقد بأنها بالكامل سورة مدنية لأنها من السور المسبِّحات، أي التي تبدأ بـ (سَبِّح) أو (يسبِّح)، بعدها، حسب ترتيب نولدكه، تأتي سورة الجُمعة (ترتيبها في القرآن ٦٢) ويراها نولدكه موجهة ضد اليهود، ثم سورة الأنفال (ترتيبها في القرآن ٨) التي حدد زمنها كالآتي: الجزء الأكبر منها يعود إلى انتصار المسلمين في معركة بدر وقسمة الغنائم، وهي زمنياً أقدم من باقي آيات السورة، التي يراها نولدكه قد نزلت لاحقاً بحقب متتالية ومتباعدة[6].

ثم سورة محمَّد (ترتيبها في القرآن ٤٧) ويرجح نولدكه أن تكون هذه

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 177, 178.

(٢) Ibid, P. 182, 183.

(٣) Ibid, P. 185.

(٤) Ibid, P. 185.

(٥) Ibid, P. 186.

(٦) Ibid, P. 187.

السورة قد نزلت بعد معركة بدر، لأن الجزء الثاني منها يضم، إلى جانب ذكر المنافقين[١]، المقاتلين المترددين في القتال مع الرسول[٢].

ثم سورة آل عمران (ترتيبها في القرآن ٣) إذ لم يستطيع نولدكه أن يحدد زمن نشوء الجزء الأول منها، وهي الآيات (١ ـ ٨٦)، في حين رأى أن الآيات (١٣١ ـ ١٥٤) ترجع زمنياً إلى وقت حدوث معركة أُحُد[٣].

بعدها تأتي سورة الصَّف (ترتيبها في القرآن ٦١)، وسورة الحديد (ترتيبها في القرآن ٥٧) ويرجح نولدكه وقت نزولها ما بين معركة أُحُد وغزوة الأحزاب[٤]، وهي تشابه في موقعها سورة النّساء التي وضعها نولدكه بعد الصَّف (ترتيبها في القرآن ٤) وهو يحدد زمن نزولها ما بين السنة الثالثة والسنة السادسة من الهجرة، ويستدل على ذلك بما ذكرتهُ آيات السورة في مواقع مختلفة منها من شواهد على هذا الزمن[٥].

ثم يضع سورة الطَّلاق (ترتيبها في القرآن ٦٥)، وتليها، ضمن سلسلة نولدكه، سورة الحَشْر (ترتيبها في القرآن ٥٩)[٦]، وسورة الأحزاب (ترتيبها في القرآن ٣٣)، وسورة المنافقون (ترتيبها في القرآن ٦٣) التي يراها نولدكه قد وضعت قبل غزوة بني المصطلق بمدة وجيزة، ويستبعد في الوقت نفسه الآيات (٩ ـ ١١) إلى زمن آخر[٧].

ويعقب بسورة النُّور (ترتيبها في القرآن ٢٤)، وسورة المجَادلة (ترتيبها في القرآن ٥٨)[٨]، بعدها سورة الحَجِّ (ترتيبها في القرآن ٢٢) التي يرى نولدكه بأن جزءاً كبيراً منها قد نزل في الحقبة الثالثة قبل الهجرة، فيقسم آيات السورة مكية، ومدنية بحسب قوله الآتي: «وتكون الآيات من (١ ـ ٢٤) والتي تربط بالآيات (٥ ـ ٧) على أنها مكية، أما الآيات (٤٣ ـ ٥٦)،

---

(١) قوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾... وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد/ ٢٢ ـ ٣١].

(٢) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 188, 189.

(٣) Ibid, P. 190.

(٤) Ibid, P. 193, 194.

(٥) Ibid, P. 195, 196.

(٦) Ibid, P. 205, 206.

(٧) Ibid, PP. 207 - 210.

(٨) Ibid, P. 210, 211.

(٦٠ ـ ٦٥)، (٦٧ ـ ٧٥) عدت دون حجة على أنها مدنية»[١]، وعدَّ الآيات (٢٥ ـ ٣٨) آيات مدنية أيضاً[٢].

بعدها سورة الفَتْح (ترتيبها في القرآن ٤٨) مُحدداً زمن نزولها بعد صُلح الحُديبية، وأعقبها بسورة التَّحريم (ترتيبها في القرآن ٦٦)، ثم سورة المُمتَحِنة (ترتيبها في القرآن ٦٠)، وسورة النَّصر (ترتيبها في القرآن ١١٠)، وسورة الحُجرات (ترتيبها في القرآن ٤٩)[٣]، ثم يضع سورة التَّوبة (ترتيبها في القرآن ٩) ويعلق نولدكه على الآية (١١٣)[٤] من السورة فيقول: «يشير الموروث إلى أن هذا الجزء أما أن يعود إلى موت أبي طالب قبل الهجرة، أو إلى زيارة النبي محمد إلى قبر أمهِ، إذ منعهُ الله من أن يصلي لها. إن الإشارة الأولى غير ممكنة من ناحية التسلسل الزمني، وقد يكون الثاني ممكناً في حالة احتواء النص على حدث معين، لكونها تتحدث عن أفكار بصورة عامة لعصر المدينة»[٥]. ويختم نولدكه ترتيب السور القرآنية، بسورة المائدة (ترتيبها في القرآن ٥)[٦].

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 213.

(٢) Ibid, P. 214.

(٣) Ibid, P. 221.

(٤) ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة/ ١١٣].

(٥) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 1, P. 225.

(٦) Ibid, P. 227.

ترتيب السور القرآنية بحسب نظرية المستشرق الألماني نولدكه

سور المرحلة الأولى

السورة	رقمها	السورة	رقمها	السورة	رقمها	السورة	رقمها
العَلق	٩٦	الضُّحى	٩٣	الزلزلة	٩٩	المطففين	٨٣
المدَّثر	٧٤	القَدْر	٩٧	الانفطار	٨٢	الحاقَّة	٦٩
المَسَد	١١١	الطَّارِق	٨٦	التكوير	٨١	الذاريات	٥١
قُرَيش	١٠٦	الشَّمس	٩١	النَّجم	٥٣	الطور	٥٢
الكوثر	١٠٨	عَبَس	٨٠	الانشقاق	٨٤	الواقعة	٥٦
الهُمَزة	١٠٤	القَلَم	٦٨	العاديات	١٠٠	المَعارج	٧٠
الماعون	١٠٧	الأعلى	٨٧	النازعات	٧٩	الرَّحمٰن	٥٥
التَّكاثُر	١٠٢	التِّين	٩٥	المُرسلات	٧٧	الإخلاص	١١٢
الفيل	١٠٥	العَصْر	١٠٣	النَّبأ	٧٨	الكافرون	١٠٩
الليل	٩٢	البرُوجُ	٨٥	الغَاشية	٨٨	الفلق	١١٣
البلد	٩٠	المُزَّمِّل	٧٣	الفجر	٨٩	النَّاس	١١٤
الشَّرح	٩٤	القارعة	١٠١	القيامة	٧٥	الفاتحة	١

سور المرحلة الثانية

السورة	رقمها	السورة	رقمها	السورة	رقمها
القمر	٥٤	الشعراء	٢٦	المُلكُ	٦٧
الصافات	٣٧	الحِجْر	١٥	المؤمنون	٢٣
نُوح	٧١	مَريَم	١٩	الأنبياء	٢١
الإنسان	٧٦	ص	٣٨	الفُرقان	٢٥
الدُّخان	٤٤	يس	٣٦	الإسراء	١٧
ق	٥٠	الزُّخرف	٤٣	النَّمل	٢٧
طه	٢٠	الجن	٧٢	الكهف	١٨

سور المرحلة الثالثة

السورة	رقمها	السورة	رقمها	السورة	رقمها
السَّجدة	٣٢	يُوسُف	١٢	يُونس	١٠
فُصِّلت	٤١	غَافِر	٤٠	سَبأ	٣٤
الجاثية	٤٥	القَصَص	٢٨	فَاطِر	٣٥
النَّحل	١٦	الزُّمَر	٣٩	الأعراف	٧
الرُّوم	٣٠	العنكبوت	٢٩	الأحقاف	٤٦
هُود	١١	لُقمان	٣١	الأنعام	٦
إبراهيم	١٤	الشُّورى	٤٢	الرَّعد	١٣

سور المرحلة الرابعة (المدنية)

السورة	رقمها	السورة	رقمها	السورة	رقمها
البقرة	٢	النِّساء	٤	الفَتح	٤٨
البيِّنة	٩٨	الطلاق	٦٥	التحريم	٦٦
التغابن	٦٤	الحَشر	٥٩	الممتحِنة	٦٠
الجُمعةَ	٦٢	الأحزاب	٣٣	النّصر	١١٠

السورة	رقمها	السورة	رقمها	السورة	رقمها
الأنفال	**٨**	**المنافقون**	**٦٣**	**الحُجرات**	**٤٩**
محمّد	**٤٧**	**النُّور**	**٢٤**	**التّوبة**	**٩**
آل عمران	**٣**	**المجادلة**	**٥٨**	**المَائدة**	**٥**
الصَّف	**٦١**	**الحَجّ**	**٢٢**	**الحَديد**	**٥٧**

ثانياً: محاولة إدوارد سيل في إعادة ترتيب سور القرآن: بعد محاولة المستشرق الألماني تيودور نولدكه في إعادة ترتيب سور القرآن الكريم، أصدر المستشرق الإنكليزي إدوارد سيل في سنة ١٨٩٨ كتاباً بعنوان (التطور التاريخي للقرآن) وفيهِ حاول أن يضع ترتيباً آخر لسورة القرآن وفق رؤية جديدة.

أ ـ السور المكية عند إدوارد سيل: وضع إدوارد سيل سورة العلق (ترتيبها في القرآن ٩٦) كأول السور نزولاً، ثم أعقبها بسورة الشُّعَراء (ترتيبها في القرآن ٢٦) لكونها تحتوي على الدعوة الأولى للإسلام[١]، ورأى سيل أن بعد وقت انقطاع الوحي، وعندما أخذت المقاومة القرشية للدعوة والمؤمنين بها تشتد، نزلت سورة النَّحْل (ترتيبها في القرآن ١٦)، وفي هذا الوقت أيضاً المليء بالقلق والاضطراب نزلت اثنتان من السور هما الكافرون والإخلاص (ترتيبهما في القرآن ١٠٩ و١١٢) لمواساة النبي ﷺ[٢].

وبعدئذ يرى سيل أن النبي ﷺ، عقب مواساة الوحي لهُ، بدأ يهاجم عبادة الأصنام ويدعو إلى وحدانية الله تعالى، وفي هذا الوقت نزلت سورة المدَّثر (ترتيبها في القرآن ٧٤) وكان نزول هذهِ السورة في الوقت الذي سخر فيهِ القرشيون من النبي ﷺ واتهموه بأنهُ شاعر، أو عَرَّاف، أو مُضلٌّ للناس، ولكونها قدَّمت لهُ دليلاً للاستمرار في مهمتهِ[٣] من خلال قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[٤].

---

(١) Edward Sell, The Historical development of the Quran, (London - 1898), P. 2.

(٢) Ibid, P. 5, 6.

(٣) Sell, The Historical development of the Quran, P. 6, 7.

(٤) المدَّثر، الآيتان (١، ٢).

ثم وضع سيل سورة المُرْسَلات (ترتيبها في القرآن ٧٧) بعد سورة المُدَّثر، لأنها أشارت إلى معارضة القرشيين للدعوة وقيادة هذهِ المعارضة من خلال الآيات (١١ ـ ١٩) وكذلك (٢٦ ـ ٢٩)، كما عبَّرت سورة القَلَم (ترتيبها في القرآن ٦٨) عن الشيء نفسه، وسورة المَسَد (ترتيبها في القرآن ١١١) أيضاً تناولت عمَّ النبي أبا لهب لكونه معارضاً شديداً للدعوة[١]، وكذلك أشارت سورة الهُمَزة (ترتيبها في القرآن ١٠٤) إلى الموضوع نفسه، ولذلك رجَّح إدوارد سيل زمن نزولها في هذا الوقت[٢].

وبشأن السور اللاحقة يقول: «خلال السنة أو السنتين اللاحقتين أصبحت نظرية الإلهام الإلهي متطورة أكثر فأكثر، وأثبتت معصومية النبي على نحو أقوى، وإن حالات الوحي أعلنت على أنها ليست كلمات الله فقط، بل إن أصلها في السماء»[٣]، وكان هذا الإعلان من خلال سور البروج (ترتيبها في القرآن ٨٥) في الآية (٢١)[٤]، وإلى الموضوع نفسه تُشير سورة عَبَس (ترتيبها في القرآن ٨٠) من خلال الآيات (١٢ ـ ١٤)[٥] ولذلك وضعها سيل بعد البرُوج في الترتيب الزمني[٦].

وفي الوقت الذي ازدادت فيهِ المقاومة القرشية للدعوة شدةً تضمَّن الوحي الإلهي آيات وسوراً فيها مَدح وذم كبيران، ووعيد لأصحاب هذا الموقف من الدعوة، ولا سيما في الآيات (٢٨ ـ ٣١)[٧] من سورة المُرسَلات (ترتيبها في القرآن ٧٧)، وكذلك في الآيات (٢٨ ـ ٣٠)[٨] من سورة النبأ (ترتيبها

---

(١) Sell, The Historical development of the Quran, P. 7, 8.

(٢) Ibid, P. 8.

(٣) Ibid, P. 9.

(٤) قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج/ ٢١، ٢٢].

(٥) قوله تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ﴾ [عبس/ ١٢، ١٤].

(٦) Ibid, P. 9, 10.

(٧) قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [المرسلات/ ٢٨ ـ ٣١].

(٨) قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ [النبأ/ ٢٨ ـ ٣٠].

في القرآن ٧٨) وسورة الطارق (ترتيبها في القرآن ٨٦)[(١)].

ثم وضع سيل بعد النبأ سورة الحِجْر (ترتيبها في القرآن ١٥) لكونها حملت تهديداً، وتحذيراً من الخالق لأهل مكة، كما يفهم إدوارد سيل، وكردة فعل تحدى مشركو مكة الدعوة الجديدة وطالبوا بعلامات إعجازية من النبي ﷺ، ولهذا السبب وضع سيل سورتي الإسراء والرَّعد (ترتيبهما في القرآن ١٧ و١٣) في هذا الموقع[(٢)]، بناء على ما ورد في الآيات (٩٠ - ٩٣)[(٣)] من سورة الإسراء وما ورد في الآية (٧)[(٤)] من سورة الرَّعد.

ويرى سيل أن النبي ﷺ، تجاه هذا الموقف، أعلن أن القرآن هو معجزتهُ الوحيدة التي تشهد على نبوتهِ، إلا أن المكيين تعاملوا مع هذهِ المعجزة بأنها من صنع محمد، وضعها من معلومات جُمعت من الوافدين على مكة، ووصفوها بأنها حكايات القدماء، أو تدفقات الخيال الشعري، وهنا يحدد زمن نزول سورة المطففين (ترتيبها في القرآن ٨٣) لكونها احتوت الآيات (١٠ - ١٧) التي تدل على بيان لمهمة النبي ﷺ، ويعقبها بسورة الفُرقان (ترتيبها في القرآن ٢٥) لأنها كررت التهمة السابقة نفسها من خلال الآيات (٥ - ٦)[(٥)].

ويرجِّح إدوارد سيل أن يكون الوحي قد حاول استرضاء أهل مكة في هذا

---

(١) Sell, The Historical development of the Quran, P. 10.

(٢) Ibid, P. 11, 12.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ [الإسراء/ ٩٠ - ٩٣].

(٤) قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الإسراء/ ٧].

(٥) Ibid, P. 12, 13.

كذلك ينظر: قوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان/ ٥، ٦].

الوقت، ويظهر ذلك من خلال المناشدة الإصلاحية الواردة في سورة الفيل (ترتيبها في القرآن ١٠٥)، وسورة قُرَيْش (ترتيبها في القرآن ١٠٦)[١]، ثم أعقبها بسورتي التِّين والطُّور (ترتيبهما في القرآن ٩٥ و٥٢)، وبعدهما بسورة الواقعة (ترتيبها في القرآن ٥٦)، وسورة الصَّافات (ترتيبها في القرآن ٣٧)، وسورة القَمَر (ترتيبها في القرآن ٥٤)، وسورة إبراهيم (ترتيبها في القرآن ١٤)، وسورة غَافر (ترتيبها في القرآن ٤٠)، وسورة يُونس (ترتيبها في القرآن ١٠)، وسورة ص (ترتيبها في القرآن ٣٨)، وسورة الأنبياء (ترتيبها في القرآن ٢١)[٢].

بعدها وضع إدوارد سيل سورتي الفَلَق والناس (ترتيبهما في القرآن ١١٣ و١١٤) على الرغم من عدم تأكده من كونهما مكيتين، وهذا الأمر واضح في قوله: «وهناك سورتان شهيرتان السورة ١١٣ و١١٤ اللتان لو كانتا مكيتين، مع أن هذا غير واضح تماماً فإنهما سيوضحان بأن النبي استخدم التعاويذ... أو أنه كان يرغب في توضيح أنه يمتلك سلطة على التأثيرات الشريرة التي سعى أعداؤه لجلبها عليهِ»[٣].

ويضع بعدهما سورة فُصِّلت (ترتيبها في القرآن ٤١)، وسورة النجم (ترتيبها في القرآن ٥٣)، ثم سورة الحَجِّ (ترتيبها في القرآن ٢٢)، وسورة طه (ترتيبها في القرآن ٢٠)، وسورة فَاطِر (ترتيبها في القرآن ٣٥)[٤].

وهنا يرى سيل أن النبي ﷺ أراد تقديم بعض البراهين لأهل مكة بشأن حقيقة مهمتهِ، فلجأ أولاً إلى سلسلة من حالات الوحي التي توضح بأن الأنبياء السابقين تمت معاملتهم كما عومل هو الآن، وأن هذهِ المعاملة هي دليل واضح على مهمتهِ الإلهية، ويضع سيل الآيات (١٠ ـ ١٣)[٥] من سورة

(١) Sell, The Historical development of the Quran, P. 14.

(٢) Ibid, P. 14, 19.

(٣) Ibid, P. 20.

(٤) Ibid, PP. 20 - 26.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الحجر/ ١٠ ـ ١٣].

الحِجْر كبيان لرؤيتهِ، والدليل الثاني على وفق رؤية الإثباتات المستمرة، والمتكررة لدعوتهِ الإلهية، كسورة الأحقاف (ترتيبها في القرآن ٤٦)، وسورة مَريم (ترتيبها في القرآن ١٩)[١]، وسورة غَافِر (ترتيبها في القرآن ٤٠)، وسورة الحَاقَّة (ترتيبها في القرآن ٦٩)[٢]. وفي هجرة عدد من المسلمين إلى الحبشة يرجِّح سيل أن تكون سورة الزُّمَر (ترتيبها في القرآن ٣٩) قد نزلت في هذا الوقت[٣].

ثم وضع سيل سورة هُود (ترتيبها في القرآن ١١) كأول سور الحقبة المكية الثانية، وفي الوقت الذي أعلن القرآن عن تحديهِ للمشركين، وضع سيل سورة الشُّورى (ترتيبها في القرآن ٤٢) في هذا الموضع، وتبعها بسورة المؤمنون (ترتيبها في القرآن ٢٣)، ويشير إلى أن سورة الجَاثِيَة (ترتيبها في القرآن ٤٥) نزلت في هذا الوقت لتجيب من يقولون ويتساءلون هل نترك آلهتنا لشاعرٍ مجنون[٤]، فكان الجواب في الآيات (٢٥، ٢٧)[٥] منها، ويضع أيضاً سورة يُوسف (ترتيبها في القرآن ١٢) ويقول عنها: ونقرأ أيضاً عن تأريخ يُوسف الذي جاء بإلهام من الله: السورة ١٢، وتأتي قصة يُوسف كما تم سردها في الأساطير اليهودية، ولكن يتم الادعاء بهذا الأصل الإلهي لسردها»[٦].

وبعد انتهاء المقاطعة القرشية لبني هاشم، وفشل دعوة النبي في الطائف، يرى إدوارد سيل أن نزول سورة الجنِّ (ترتيبها في القرآن ٧٢) كان قد لقي النبي ﷺ في طريقهِ من الطائف عائداً إلى مكة، فكان اعتناق نفر من الجنِّ الإسلام تخفيفاً ومواساةً للنبي عما لاقاه من أهل الطائف[٧].

---

(١) Sell, The Historical development of the Quran, P. 27, 28.

(٢) Ibid, PP. 29 - 33.

(٣) Ibid, P. 34 - 37.

(٤) Ibid, PP. 38 - 41.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية/ ٢٥]، ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [الجاثية/ ٢٧].

(٦) Sell, The Historical development of the Quran, P. 42 - 43.

(٧) Ibid, P. 44, 45.

وفي هذا الوقت أيضاً رجَّح سيل سورة الأنعام (ترتيبها في القرآن ٦) وهو يؤكد أن الكلمات الأخيرة من هذهِ السورة قد أشارت إلى الهجرة من مكة، وأعقبها نزول سورة العنكبوت (ترتيبها في القرآن ٢٩)(١).

ب ـ السور المدنية عند إدوارد سيل: بعد أن يستعرض سيل ملخصاً مقتضباً عن مجريات وأحداث هجرة النبي ﷺ وخروجه من مكة إلى المدينة، يرجِّح أن تكون الأنفال (ترتيبها في القرآن ٨) أول السور المدنية نزولاً لكونها قد أشارت في الآية (٣٠)(٢) إلى ما دبرهُ القرشيون من مؤامرة استهدفت النبي ﷺ قبل هجرتهِ(٣)، ويجعل أيضاً من سورة التوبة (ترتيبها في القرآن ٩) بعد الأنفال على أساس أنها أشارت إلى اختفاء النبي ﷺ وأبي بكر في الغار(٤) بالآية (٤٠)(٥).

بعدها سورة الرُّوم (ترتيبها في القرآن ٣٠)، ثم سورة المنَافقون (ترتيبها في القرآن ٦٣)، وسورة البقرة (ترتيبها في القرآن ٢)، وسورة آل عِمْران (ترتيبها في القرآن ٣)، وسورة نُوح (ترتيبها في القرآن ٧١)(٦).

وهنا يتطرق سيل لموضوع اليهود الذين لم يعترفوا بنبوة محمد ﷺ، وأن هناك دعوى بشأنهم بقيامهم بإخفاء جزء من كتبهم المقدسة التي تشير إلى النبي محمد ﷺ وتبشّر به ﷺ وكذلك من المسيحيين الذين قاموا بإخفاء ما بشَّر بهِ عيسى عليه السلام من قدوم نبي اسمهُ أحمد(٧). ويحدد سيل عدَّة سور

---

(١) Sell, The Historical development of the Quran, PP. 45 - 47.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال/ ٣٠].

(٣) Ibid, P. 53, 54.

(٤) Ibid, P. 54.

(٥) قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/ ٤٠].

(٦) Ibid, PP. 55 - 60.

(٧) Ibid, P. 68, 69.

وآيات قد أشارت إلى هذ العمل، وهي سورة البيِّنة (ترتيبها في القرآن ٩٨)، وسورة الفتح (ترتيبها في القرآن ٤٨) الآيات (١ ـ ٣)، وأيضاً الآية (١٣٤) من سورة البقرة، والآية (٧٢) من سورة آل عمران، والآيات (١٦ ـ ١٨) من سورة المائدة[١].

ثم يؤكد سيل أن سورة الحَشر (ترتيبها في القرآن ٥٩) قد نزلت لإعطاء عقوبة النبي ﷺ ليهود المدينة الصفة الإلهية من خلال الإشارة الواردة في الآيات (٢ ـ ٥)[٢]، وأعقبها بسورة النساء (ترتيبها في القرآن ٤)[٣]، وسورة الأحزاب (ترتيبها في القرآن ٣٣). وفي مناسبة نزول هذهِ السور يتعرض سيل لعقوبة اليهود من بني قُريظة ويقول واصفاً إياهم: «لا يوجد هناك شيء يسوِّغ المعاملة التي تعرضوا لها؛ وسَعَوا إلى الهجرة ودافعوا عن حياتهم ولكن دون جدوى، ذُبح كل الرجال بوحشية وكان قتلهم على شكل مجموعات من خمس أو ست رجال في وقت واحد وبحضور النبي نفسه، وامتلاء السوق بدم ما يقارب ٨٠٠ رجل... وقسمت النساء بعد ذلك بين المسلمين، وتم بيع البقية عبيداً، والخمس الذي كان حصة النبي يتألف من ٢٠٠ امرأة وطفل تم بيعهم للبدو مقابل الخيول والسلاح..»[٤]. هذه أهم الأحداث التي يركز عليها الاستشراق لإلصاق صفة القسوة بشخصية رسول الله ﷺ، من دون النظر إلى حجم جريمة هؤلاء وتآمرهم على الإسلام وعلى المسلمين، والعقوبة التي ثبت أنها عقوبة إلٰهيه كانت ضرورة لوضع حدٍّ لتجاوز اليهود في التآمر والسعي لضرب المسلمين والقضاء عليهم، فهم لم يتعظوا ولم ينتهوا لمَّا عوقبت قبيلة بني قينقاع ولم ينتهوا بعقوبة بني النضير، فكان لا بد من هذه العقوبة حفاظاً على الإسلام والمسلمين، ولكن لم تكن

---

(١) Sell, The Historical development of the Quran, P. 68, 69.

(٢) قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ۝٢ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ۝٣ ...﴾ [الحشر/ ٢ ـ ٥].

(٣) Ibid, P. 76.

(٤) Ibid, P. 77.

العقوبة بهذا الوصف الظاهر عند سيل الذي أضاف إليه الكثير من خياله لتشويه صورة النبي محمد ﷺ.

بعدها تأتي سورة الصف (ترتيبها في القرآن ٦١)، ثم سورة المائدة (ترتيبها في القرآن ٥)، وسورة التحريم (ترتيبها في القرآن ٦٦)، ثم سورة النور (ترتيبها في القرآن ٢٤)، وسورة المُمْتحِنة (ترتيبها في القرآن ٦٠)، وسورة الأعراف (ترتيبها في القرآن ٧)، ويحددها زمنيّاً سيل، بأنها نزلت بعد عودة النبي ﷺ من فتح مكة[١].

وضمن التسلسل الزمني الذي وضعهُ سيل تأتي سورة الحَديد (ترتيبها في القرآن ٥٧)، ثم سورة التَغابُن (ترتيبها في القرآن ٦٤)، ويختم هذه السلسلة بسورة الفاتحة (ترتيبها في القرآن ١)[٢].

والملاحظ على المستشرق الإنكليزي إدوارد سيل، في محاولتِهِ هذهِ، أنهُ لم يحدد زمنيّاً نزول جميع السور القرآنية، بل إنهُ لم يتطرق أبداً إلى عدد كبير منها[٣]، وقد اكتفى في نهاية كتابهِ (التطور التأريخي للقرآن) بالقول: «وقد ارتبك الترتيب العربي لمحتويات القرآن، بحيث أصبح لا ينقل أية فكرة مهما كانت حول تطور أي خطة في ذهن النبي، ومن الصعب تماماً على القارىء الحصول على معلومات تأريخية مفهومة منه، ولكن عند ترتيب السور سويةً مع الأخذ بنظر الاعتبار الترتيب الزمني، يكون من الممكن (كما حاولنا توضيحهُ) تقفي أثر التطور المتدرج للهدف الذي وضعهُ محمد نصب عينيهِ في تأسيس النظام الديني للإسلام، وعند قراءة القرآن هكذا نراهُ يمتلك متعة جذابة، لأننا نرى فيهِ أفعال عقل المرء الذي كان رجلاً عظيماً بلا شك مهما كانت وجهة النظر التي نحملها حول ادعاءاتهِ ومركزه»[٤].

---

(١) Sell, The Historical development of the Quran, p. 93, 106.

(٢) Ibid, PP. 108 - 112.

(٣) وصل عدد السور القرآنية، التي لم يذكر سيل في محاولتهِ إعادة ترتيب السور القرآنية، إلى (٤٥) خمس وأربعين سورة، وهي: (١٨، ٢٧، ٢٨، ٣١، ٣٢، ٣٤، ٣٦، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٨، ٦٢، ٦٥، ٦٧، ٧٠، ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦، ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٨، ١١٠).

(٤) Ibid, p. 139, 140.

تقييم الباحث محاولات المستشرقين في إعادة ترتيب النص القرآني

قد حاولنا في الصفحات السابقة أن نستعرض تفصيلياً أهم المحاولات التي وضعها المستشرقون في إعادة ترتيب السور القرآنية، تلك المحاولات التي اتخذت من الإطار الزمني المعيار الرئيس في إعادة الترتيب، متصورين أنهم يقدمون خدمة جليلة للمعرفة التأريخية، وأنهم سوف يحصلون على أحداث متسلسلة، وأفكار مترابطة واضحة وسيرة غير مفككة للنص القرآني.

إذن ما هي النتائج التي آلت إليها تلك الدراسات الاستشراقية، هل نجحت فعلاً في إعادة ترتيب السور القرآنية؟ إن الواقع لا يقول ذلك، فأبرز تلك المحاولات، وهي محاولة المستشرق الألماني تيودور نولدكه التي لم تثمر عن شيء من هذا قط، إذ أعلن هذا المستشرق قبل وفاته بوقت قصير بأنهُ نادم على أن خصص الوقت والجهد لعملٍ لم يظفر منهُ بنتائج حاسمة قاطعة[1]، والعمل الثاني المهم أيضاً والذي تناولناه هو كتاب المستشرق الإنكليزي إدوارد سيل (التطور التأريخي للقرآن) الذي لم يستطع فيهِ وضع التحديد الزمني لنزول جميع السور القرآنية، إذ أغفل ذكر ما يقرب من خمس وأربعين سورة، وهذا الأمر كان كافياً لنا لنتصور أن عمل سيل هذا غير ناضج وغير مكتمل، ومن ثم فهو محاولة فاشلة أيضاً.

لذا علينا هنا تثبيت حقيقة مهمة توصلنا إليها من خلال فحص تلك الدراسات والمحاولات الاستشراقية في إعادة ترتيب النص القرآني، ألا وهي أن جميع تلك المحاولات كانت فاشلة، لأنها لم تستطع أن تصل إلى ترتيب زمني مضبوط، ودقيق، وكل ما استندت إليهِ في تحديد زمن نزول أي سورة من سور القرآن هو أن تجد إشارة واضحة لحدث معروف زمنيّاً في آية أو

(١) قبل وفاتهِ بوقت قصير، سئل المستشرق الألماني تيودور نولدكه، وقد شارف على التسعين من عمره، إن كان يشعر بالندم لأنهُ لم يعكف على دراسة علم يعود بالفائدة العلمية على الجنس البشري، كدراسة الطب أو الزراعة، أو أي فرع غير الدين واللغات والفلسفة؟ أجاب نولدكه: «إذا كان من ندم فلأنني درستُ علوماً لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة». ينظر: عمر لُطفي العالم: المستشرقون والقرآن، ص ٧ نقلاً عن مقالة للمستشرق الهولندي سنوك هورجرونيه نشرت في مجلة جمعية المستشرقين الألمان في الذكرى الأولى لوفاة نولدكه.

مجموعة آيات من هذهِ السورة، ومن ثم يكون الافتراض، بأن زمن نزول هذهِ السورة هو نفسهُ زمن هذهِ الحادثة، من دون مراعاة عنصر الزمن بالنسبة للآيات الأخرى من السورة نفسها، فعلى سبيل المثال قد يُحدد زمن نزول إحدى السور في السنة الثانية للهجرة نسبةً لوجود إشارة واضحة في آية أو مجموعة آيات منها، ولكن الآيات الأخرى من هذهِ السورة قد تنزل في أوقات لاحقة وقد تكون أوقات متباعدة، ومن ثم فإن عملية تحديد زمن هذهِ السورة في السنة الثانية للهجرة هو تحديد غير دقيق وغير مضبوط.

ولو أردنا أن نتفهم تلك المحاولات الاستشراقية في الوصول إلى ترتيب زمني لنزول الآيات والسور القرآنية، فإننا من دون شك لن نستطيع أن نصل إلى نتيجة مُرضية، وذلك لعدة أسباب، منها:

أولاً: من الصعوبة جدّاً بل من غير الممكن أن نستطيع القيام بالتحديد الزمني لنزول جميع الآيات، والسور بشكل مضبوط ودقيق.

ثانياً: إن عملية إعادة ترتيب الآيات والسور وفق المعيار الزمني يضعنا أمام مشكلة كبيرة، وهي تفتيت النص القرآني وتشتيت وحدته وانسجامهِ، وبالتالي يظهر النص القرآني نصّاً خالياً من الإعجاز غير مترابط الأفكار. ولنطبق إذا ما أردنا تطبيق المنهج الذي يقترحهُ المستشرقون في إعادة ترتيب القرآن مثالاً لما يدعو إليهِ المستشرقون من إعادة ترتيب القرآن على وفق زمن نزول آياتهِ وسوره نجد أنفسنا أمام النموذج التالي من الآيات الكريمات.

وفق ما قرره العلماء: الآيات الخمس الأولى من سورة العلق، من قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾، وتتبعها زمنيّاً الآيات السبع الأولى من سورة المدثر من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾، ثم تتبعها زمنيّاً أيضاً الآيات الثلاث من أول سورة نوح.

فإذا ما جمعنا هذه الآيات على وفق الرؤية الاستشراقية في تسلسل تأريخي لزمن نزولها نجد النص الآتي: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق/ ١ ـ ٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾﴾ [المدثر/ ١ ـ ٧]، ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾

قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح/ ١ ـ ٤].

هذهِ إذن صورة من صور ما يفترضهُ المستشرقون، ونلاحظ فيهِ عدم انسجام النص القرآني وتشتت الفكرة بالانتقالات ما بين مواضيع منفصلة غير مترابطة[١]، وبناءً على هذا، نقول إن الترتيب الحالي لسور القرآن وآياته هو ترتيب توقيفي بأمر الله تعالى، لم يتخذ من عنصر الزمن الأساس الذي يقوم عليه، ذلك أن الله تعالى أراده بهذا الشكل، لحكمة إلهية، ولهذا فإن كل المحاولات الاستشراقية لإعادة الترتيب، سوف لن تأتي بنتائج دقيقة صحيحة.

النص القصصي القرآني في المنظور الاستشراقي

كان وما يزال النص القصصي القرآني مستنداً إلى الكثير من المستشرقين في طرح وإنشاء الرؤية الاستشراقية القائلة: بأن القرآن كتابٌ من صنع وإنشاء النبي محمد ﷺ استقاءً وتقليداً لكتب العهدين (القديم والجديد)، وإن ما في القرآن من ذكر لقصص الأنبياء السابقين وأقوامهم مشابه إلى درجة كبيرة للقصص الموجودة في الكتاب المقدس، وهذا التشابه كان الحجة الرئيسة التي يبني أولئك المستشرقون رؤيتهم عليها.

فإذا ما أردنا أن نستعرض بعض تلك الدراسات والأقوال التي خصت هذا الموضوع، لوقفنا على نصوص كثيرة، بعضها لكبار المستشرقين، تكاد تتفق جميعها على رؤية واحدة، وهي أن التأثيرات اليهودية، والمسيحية ظاهرة وواضحة على القرآن.

ففي دائرة المعارف البريطانية ورد في هذا الشأن: «إن الدارسين الغربيين الذين حللوا محتوى مختلف التنزيلات، أظهروا أن معظم المادة السردية التي تخص الشخصيات والأحداث القرآنية لا تختلف عن النص الإنجيلي، وتبدو كأنها جاءت من مصادر مسيحية، أو يهودية متأخرة»[٢].

---

(١) ينظر: عبد الكريم الخطيب: القرآن ـ نظمه ـ جمعه ـ ترتيبه، دار الفكر العربي، (القاهرة ـ ١٩٧٢م)، ص ٢٢٧، ٢٢٨.

(٢) The New Encyclopaedia Britannica, (Chicago - 1986), Vol - 22, P. 6.

وفي السياق نفسه يتحدث المستشرق الفرنسي بلاشير (المتخصص في دراسة القرآن الكريم) في كتابهِ (معضلة محمد) عن مصدر القصص القرآني قائلاً: «إن ما يسترعي نظر المستشرقين، هو التشابه الحاصل بين هذهِ القصص وبين القصص اليهودي ـ المسيحي، وإن التأثير المسيحي كان واضحاً في السور المكية الأولى»(١).

أما المستشرق المجري جولدتسهر فيقول عن هذا الموضوع: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجاً من معارف، وآراء دينية عرفها بفضل اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية التي تأثر بها تأثراً عميقاً، والتي رآها جديرة بأن توقظ في بني وطنه عاطفة دينية صادقة... لقد تأثر بهذهِ الأفكار تأثراً وصل إلى أعماق نفسه، وأدركها بإيحاء قوة التأثيرات الخارجية فصارت عقيدة انطوى عليها قلبه، كما صار يعتبر هذه التعاليم وحياً إلهيّاً»(٢).

ويستعرض جولدتسهر مثلاً لهذا التشابه عندما يقول: «الآية ٥٤ من سورة البقرة يدور الحديث فيها بشأن غضب موسى حين علم بصنع بني إسرائيل عجلاً من ذهب وعبادتهم إياه، فهو يقول: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ عِندَ بَارِئِكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: فليقتل بَعضُكم بعضاً، وهذا ينطبق في الواقع على ما جاء في سِفْر الخروج، فصل ٣٢ فصلة ٢٧، الذي هو مصدر الكلمات القرآنية»(٣).

وينضم إلى هذهِ الآراء المغالية المستشرق الإنكليزي برنادر لويس الذي يؤكد أن النبي ﷺ قد استقى تلك القصص من الكتاب المقدس قائلاً: «روايته لقصص الكتاب المقدس توحي بأن معرفته بها كانت عن طريق غير مباشر، وربما كانت عن طريق التجارب، والرحالة اليهود والنصارى الذين

---

(١) R. Blachere, Le Probleme du Mohammed, (Paris), P. 75.

(٢) أجنتس جولدتسهر: العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة محمد يوسف وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة، ط ٢، (القاهرة ـ لا. ت)، ص ١٢، ١٣.

(٣) أجنتس جولدتسهر: مذاهب التفسير الإسلامي، ترجمة عبد الحليم النجار، دار اقرأ، ط ٣، (بيروت ـ ١٩٨٥)، ص ١٠، ١١.

كانت أخبارهم متأثرة بالمؤثرات المدراشية[1] وكتب الأساطير اليهودية»[2].

وفي دائرة المعارف الإسلامية يقول المستشرق هورفتز تحت مادة (التوراة): «وفي القرآن، إلى جانب مثل هذهِ الإشارات البيِّنة إلى التوراة، قصص وأحكام استقاها منها ورددها في مواضع كثيرة من دون أن يذكر المصدر الذي نقل عنهُ، وقد ساق أغلب هذه القصص في صيغتهِ الهجائيَّة وحوَّر بعضه بحيث يلائم أغراض محمد الخاصة»[3].

وقد يكون المستشرق الإنكليزي هاملتون جب أقل تحاملاً في طرحه هذهِ الرؤية الاستشراقية عندما يقول: «... أن نطرح على بساط البحث مسألة المصادر التي استقى منها محمد مذهبه، وهي مسألة عُني بها أعظم العناية علماء الغرب المسيحيون واليهود... وكذا فإن الإسلام، وإن كان في وسعه أن يعتنق أفكاراً دينية سابقة، فإن ذلك لا يمنع أن تشكل المواقف الدينية التي جاء بها القرآن وأعرب بنية دينية جديدة متميزة»[4]، وبهذا القول حاول أن يجعل من الدين الإسلامي صاحب بنية جديدة، ولكن هذهِ البنية في الأصل مُستقاة من المسيحية واليهودية، وهي فكرة جديدة طرحها جب مزج فيها السم بالعسل.

وتتكرر أقوال المستشرقين في هذا الموضوع[5]، متفقة على رؤية واحدة

---

(1) المدراشية (أو المدراش) وتعني مجموعة التفاسير التقليدية للتوراة عند اليهود، ويرجَّح أنها وضعت ما بين عام (١٠٠ ق. م) وعام (٢٠٠م)، وهي لفظة عبرية الأصل وتعني الشرح أو التفسير. ينظر: فؤاد كاظم المقدادي: الإسلام وشبهات المستشرقين، المجمع العالمي لأهل البيت عليهم السلام، (قم ـ ١٩٩٦)، ص ١٤٣.

(2) عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر، ص ١٤٧، ١٤٨ نقلاً عن برنارد لويس: العرب في التأريخ، الترجمة العربية، ص ٥٠.

(3) مجموعة من المستشرقين: دائرة المعارف الإسلامية، جـ ٦، ص ١، ٢.

(4) هاملتون ألكسندر روسكين جب: بنية الفكر الديني في الإسلام، ترجمة عادل العوَّا، مطبعة جامعة دمشق، (دمشق ـ ١٩٦٤)، ط ٢، ٨٩.

(5) للاطلاع على أقوال المستشرقين هذهِ ينظر: مونتجومري وات: محمد في مكة، ترجمة شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، (صيدا ـ بيروت ـ ١٩٥٢)، ص ٢٤٩ ـ ٢٥٣؛ التهامي نقرة: «القرآن والمستشرقون» بحث منشور في كتاب «مناهج =

لا تقوم إلا بالقول: بأن القرآن كتاب مستقى من اليهودية والمسيحية، وفوق كل هذا يزيد بعضهم ما هو أدهى وأمرُّ، إذ لا يكتفون بتهمة الاستقاء، بل يعبرون عن مصادر الاستقاء، بأنها مصادر مسيحية، ويهودية شرقية حافلة بالأخطاء، والتحريف لأصل هذهِ الديانات. على هذا يؤكدون أن ما استقاه النبي العربي من أهل الكتاب ما هو إلا معلومات خاطئة ومحرَّفة، وهذا ما نجدهُ صراحة في أقوال عدد من المستشرقين.

فالمستشرق الألماني كارل بروكلمان يقول: «وليس من شك في أن معرفته - أي رسول الله محمد ﷺ - بمادة الكتاب المقدس كانت سطحية إلى أبعد الحدود، وحافلة بالأخطاء، وقد يكون مديناً ببعض هذهِ الأخطاء للأساطير اليهودية التي يحفل بها القصص التلمودي»[(١)].

ونجد المستشرق الإنكليزي جورج سيل أكثر وضوحاً عندما يعلق على النص القرآني الآتي: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾[(٢)] ويقول: «يَبدو أن هذهِ الحكايات مأخوذة من بعض التراثيات الخُرافية للمسيحيين الشرقيين»[(٣)].

ويقول أيضاً المستشرق الألماني ونتر في ترجمته الألمانية للقرآن: «لاحظنا من فحوى القرآن بأن النبي محمداً كان على اتصال، وتماس مع ممثلي الدين المسيحي من خلال رحلاتهِ مع قوافل الجمال في سنوات شبابه، وبهذا حدث تشويه محرف ومشكوك بهِ لمضمون الدين لكلا الطائفتين في المناطق القاحلة، وعليهِ فلا نتعجب لعدم إدراكه حينها لدين تلك الطوائف»[(٤)].

= المستشرقين»، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، (الرياض - ١٩٨٥)، جـ ١، ص ٥٠، ٥١؛ R. S. Trittion, Islam, belief and practices, (London - 1957), P. 18, 19.

(١) كارل بروكلمان: تأريخ الشعوب الإسلامية، جـ ١، ص ٤٣.

(٢) سورة آل عمران، الآيات (٤٥، ٤٦).

(٣) George Sale, The Koran, (London - 1921), p. 49.

(٤) L. W. Winter, Der Koran, (Munchen - 1964), P. 9.

أما المستشرق الإنكليزي وليم ميور، ففي كتابهِ (حياة محمد من مصادرها الأصيلة)، وبعد أن يستعرض تفاصيل رحلتي الرسول الكريم ﷺ إلى الشام حين كان شاباً، وما تركتهُ من أثر في نفسهِ وعقلهِ وهو يشاهد الآثار والرموز القديمة ويطّلع على الأساطير اليهودية، والطقوس المسيحية والكنائس[١]، ليقول بعد ذلك: «إلا أننا متأكدون من حقيقة أن محمداً لم يُفوِّت أية فرصة للبحث في ممارسات المسيحيين السوريين ومعتقداتهم، أو التحدث مع الرهبان ورجال الدين الذين يصادفهم في طريقهِ»[٢].

جوهر العلاقة بين النص القصصي القرآني وكتب العهدين

يقول أحد المستشرقين الألمان: «إن القرآن ليس كتاباً منفصلاً، وإنما هو يرتبط ارتباطاً وثيقاً مع كتب الوحي المنزلة سابقاً (قبله)، حتى أنهُ شكَّل قمة ختامها»[٣].

تعمدنا البدء بقول أحد المستشرقين المنصفين الذي يؤكد على وثاقة العلاقة بين كتب الوحي جميعها بما فيها القرآن الكريم، الذي شكل ختام الوحي، وآخر الكتب، وقمة الرسالات، وكمالها. ويعود المستشرق هيلز ليؤكد هذهِ الحقيقة بقولهِ: «إن الكتب المقدسة للشعوب، أو الجماعات الدينية ما هي إلا إصدارات خاصة بالأمم عن الأوحية الأصلية السماوية، أما مضمونها فمن الناحية الجوهرية متماثل للجميع، فكل نسخة متأخرة تؤكد ما جاء في السابقة، فاليهود مثلاً حصلوا على التوراة من خلال موسى، والمسيحيون حصلوا على الإنجيل من خلال النبي عيسى، والعرب (بلغة عربية خالصة) حصلوا على القرآن من خلال محمد»[٤].

إن وجود التشابه والتماثل في بعض أقسام هذه الكتب لا يجيز لنا أبداً القول باستقاء المتأخر منها عن المتقدم، فالأديان السماوية، لكونها صادرة من ذاتٍ واحدة (الذات العليا، الله جلا وعلا) فهذا يعني أن منبعها منبع

---

(١) Muir, The life of Mohammad, PP. 11 - 21.

(٢) Ibid, P. 21.

(٣) Emanuel Keller Hals, Der Islam, (Stuttgart - 1956), P. 159.

(٤) Ibid, P. 159.

واحد، ولذلك فمن الطبيعي جدّاً أن تتشابه مقوماتها وأركانها وفروضها وكتبها وما تحويه.

فإذن، الأفكار التي تبدو متشابهة ومتماثلة في الحضارات الإنسانية وأديانها، لا تدل بالضرورة على الاقتباس، ومع ذلك، وعلى الرغم من وجود تشابه ضئيل بين الإسلام من جهة وبين الديانتين اليهودية والمسيحية من جهةٍ أُخرى، فإن هناك اختلافات جوهرية في عبادات كل ديانة منهما على الإسلام. وما يهمنا القول هنا إن هذا التشابه، بغضِّ النظر عن حجمهِ، يجب أن لا يفسر إلا تحت عِلَّة وحدة المصدر الإلهي الواحد لهذهِ الأديان[١].

فالقرآن الكريم في قصصه لم يسلك مسلك التوراة، ولم يقصَّ أخبار الأنبياء والمرسلين كما قصت هي، وإنما اختار بعضهم ليقص قصصهم وأعرض عن الباقي كما في قولهِ تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[٢]، ومن هنا فإن ذلك الاختيار من الأخبار كان يتفق مع حالة الدعوة الإسلامية، ومخاطبة النبي ﷺ لقومهِ، ولذلك أيضاً لم تأت تلك الأخبار على التفصيل الموجود في التوراة[٣].

ثم إن القرآن الكريم لم يعمد إلى الزمن فيجعله العامل الأساس في ترتيب هذهِ القصص كما عمدت إليه التوراة، وهناك أيضاً نقطة مهمة وجوهرية في الغاية من النص القصصي سواء أكان القرآني أم التوراتي. فبينما يراعي الأخير الجانب التأريخي ويحرص على تكامل أجزاء القصة بكل تفاصيلها، لا يهدف النص القرآني: «إلا إلى العظة والعبرة، وإلى البشارة والإنذار وإلى الهداية والإرشاد وإلى شرح مبادىء الدعوة الإسلامية والرد على المعارضين، وإلى تثبيت قلب النبي عليه السلام ومن اتبعه، وزلزلة نفوس المشركين والكفرة، وإلى غير ذلك من المقاصد والأغراض ليس منها التأريخ على كل حال»[٤].

---

(١) عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر، ص ١٥٠.

(٢) سورة النساء، الآية (١٦٤).

(٣) ينظر: محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن الكريم، دار المعارف، ط ٢، (القاهرة ـ ١٩٥٧)، ص ٢٢٧.

(٤) محمد أحمد خلف الله: المصدر نفسه، ص ٢٢٨.

ومن مستلزمات تثبيت الرؤية الاستشراقية أن ينسجم النص القرآني مع النص التوراتي أو الإنجيلي انسجاماً كاملاً في الفكرة، والأسلوب، والغاية. فلكي تثبت مصداقية هذهِ الرؤية لا بد إذن من إثبات ذلك الانسجام: «ذلك أن طبيعة المسألة تقضي ـ عادةً ـ أن يضفي المقلد الآخذ أسباب الكمال ومعاني الأصالة وسمات الحق على المصدر الذي استقى منه أصول فكره وعلمه، وأن يُنزل صاحبه منزلة العدل في الحكم، والنزاهة في الرأي، والسداد في الفكر والعقيدة، أما إذا وجدنا الأمر معكوساً فإن المنطق السليم يحتم خلاف ذلك»[١].

ويستمر الدكتور عرفان عبد الحميد في هذا الرد البليغ والصائب قائلاً: «إذ كيف يجوز لعاقل أن يتصور النبي ﷺ تلميذاً لأحبار اليهود ورهبان النصارى يشكل قرآنه (نعوذُ بالله) ويلقن عقيدتهُ من توراتهم وإنجيلهم وسائر مصادرهم، وهو يرى القرآن الكريم يصدر في انتقاده لهذه المصادر، المنتقد لما جاء فيها. وهكذا فإن القرآن الكريم إذ يستعرض آراء اليهود ومعتقدات النصارى لا يصدر عن موقف ضعيف متخاذل، وهو ما يتصف بهِ المقلد للغير، بل يتبين الحق في هذهِ العقائد من باطلها، ويحمل وزر الباطل على أهله. إنه يتهم اليهود تارةً بالتحريف والتبديل: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[٢]. وباللبس والتبديل: ﴿وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٣]. وبالافتراء وزور القول: ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[٤].

والقرآن الكريم إذ يستعرض عقيدة المسيح عليه السلام يبعده عن لوثة التثليث، ويعدُّ ذلك مسخاً لحقيقة ما بشَّر بهِ، وتلفيقاً من الرأي نسب إليهِ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾[٥].

---

(١) عرفان عبد الحميد فتاح: دراسات في الفكر، ص ١٥٠.

(٢) سورة النساء، الآية (٤٦).

(٣) سورة البقرة، الآية (٤٢).

(٤) سورة المائدة، الآية (١٠٣).

(٥) سورة المائدة، الآية (١١٦).

وأرى من المفيد أن أُشير إلى النقاط الثلاث التي حددها المستشرق أبراهام جايجر في كتابِهِ (ماذا اقتبس محمد من التوراة) وقد عدَّها شروطاً وضوابط يجب مراعاتها من قبل المستشرقين قبل الجزم بقضية استقاء وأخذ النبي العربي النص القصص القرآني من كُتب التوراة والإنجيل:

«أ ـ وجود عنصر أو أكثر من العناصر المشتركة بين الدينين.

ب ـ لا تصح المقابلة بين المقولات القرآنية واليهودية إلا إذا ثبت لنا أن تدوين الثانية تم قبل الأولى وأنها كانت موجودة في حوزة الكنيسة.

جـ ـ أن يكدَّ الباحث ويجتهد في معرفة ما إذا كان مجرد التشابه بين فريقين عقائديين مختلفين يعني بالضرورة أخذ الواحد عن الآخر»[1].

وبالإمكان إجراء مقارنة يسيرة لإحدى القصص القرآنية الواردة أيضاً في التوراة، لنستبين من خلال ذلك حقيقة التهمة الاستشراقية القائلة باستقاء الأولى من الثانية، فضلاً عن بيان الفروق والميزات بين النصين، وما ظهر من اختلافات بينهما ودلالة هذه الاختلافات.

جزء من قصة يوسف عليه السلام بين النصين القرآني والتوراتي

النص القرآني	النص التوراتي[2]
(١) ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾﴾	(١) ورأى إخوته أن أباه يحبه على جيمع إخوتهِ فأبغضوه ولم يستطيعوا أن يكلموه بسلام. (٢) ورأى يوسف حلماً فأخبر إخوتهِ به فازدادوا كراهية له.

(١) عمر لُطفي العالم: المستشرقون والقرآن، ص ٨٩.

(٢) الكتاب المقدس، سفر التكوين ـ الفصل السابع والثلاثون.

النص القرآني	النص التوراتي
(٢) ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾. (٣) ﴿لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿٧﴾﴾. (٤) ﴿إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾.	(٣) قال لهم اسمعوا هذا الحلم الذي رأيته. (٤) رأيتُ كأنا نحزم حزماً في الصحراء فإذا حزمتي وقفت ثم انتصبت فأحاطت حزمكم وسجدت لحزمتي. (٥) فقال له إخوته: ألعلك تملك علينا أو تتسلط علينا، وازدادوا أيضاً حنقاً عليهِ لأجل أحلامهِ وكلامهِ. (٦) ورأى أيضاً حلماً فقصهُ على إخوتهِ وقال: رأيت حلماً أيضاً كأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة لي. (٧) وإذ قصه على أبيه وإخوته زجره أبوه وقال لهُ ما هذا الحُلم الذي رأيتهُ أترانا نجيء أنا وأُمكَ وإخوتك فَنسجد لك إلى الأرض...؟ (٨) فحسده إخوته وكان أبوه يحفظ هذا الكلام. (٩) ومضى إخوتهِ ليرعوا غنم أبيهم عند شكيم. (١٠) فقال إسرائيل ليوسف هوذا إخوتك يرعون عند شكيم هلم أبعثك إليهم. قال: ها أنذا. (١١) فقال له: امضِ فافتقد سلامة إخوتك وسلامة الغنم وائتني بالخبر وأرسله من وادي جبرون فأتى شكيم.

النص القرآني	النص التوراتي
(٥) ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾.	(١٢) فلما رأوه عن بعد قبل أن يقرب منهم ائتمروا عليهِ ليقتلوه. (١٣) فقال بعضهم لبعض: ها هو صاحب الأحلام مقبل. (١٤) والآن تعالوا نقتلهُ ونطرحهُ في بعض الآبار ونقول إن وحشاً ضارياً افترسه، ونرى ما يكون من أحلامه.
(٦) ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾.	(١٥) فسمع راوبين فخلصهُ من أيديهم وقال لا نقتله.
(٧) ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾.	(١٦) وقال لهم راوبين لا تسفكوا دماً، اطرحوه في هذهِ البئر التي في البرية لا تلقوا أيديكم عليهِ، لكي يخلصهُ من أيديهم ويردهُ إلى أبيهِ.
(٨) ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾.	(١٧) فلما جاء يوسف إخوته نزعوا عنهُ قيمصهُ، القميص الموشى الذي عليهِ.
(٩) ﴿قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾.	(١٨) وأخذوه وطرحوه في البئر وكانت البئر فارغة لا ماء بها.
(١٠) ﴿قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.	(١٩) ثم جلسوا يأكلون ورفعوا عيونهم ونظروا وإذا بقافلة من الإسماعيليين مقبلة من جلعاد، وجمالهم محملة نكعة وبلساناً ولاذناً وهم سائرون إلى مصر.
(١١) ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.	(٢٠) فقال يهوذا لإخوتهِ ما الفائدة من أن نقتل أخانا ونخفي دمهُ.

النص القرآني	النص التوراتي
	(٢١) فمر قوم مدْينيون تجار فجذبوا يوسف وأصعدوه من البئر وباعوه للإسماعيليين بعشرين من الفضة فأتوا بيوسفَ إلى مصر. (٢٢) ورجع راوبين إلى البئر فإذا يوسف ليس في البئر فمزق ثيابه. (٢٣) ورجع إلى إخوتهِ وقال: الولد ليس موجوداً، وأنا إلى أين أمضي. (٢٤) فأخذوا قميص يوسف وذبحوا تيساً من المعز، وغمسوا القميص في الدم.
(١٢) ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمۡ عِشَآءٗ يَبۡكُونَ ١٦﴾.	(٢٥) وبعثوا بالقميص الموشأ فأنفذوه إلى أبيهم وقالوا: هذا أثبته. أقميص ابنك هو أم لا.
(١٣) ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾. (١٤) ﴿وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ قَالَ بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ١٨﴾.	(٢٦) فأثبتهُ وقال قميص ابني. وحشٌ ضارٍ أكلهُ، فاترس يوسف افتراساً.
(١٥) ﴿وَجَآءَتۡ سَيَّارَةٞ فَأَرۡسَلُواْ وَارِدَهُمۡ فَأَدۡلَىٰ دَلۡوَهُۥۖ قَالَ يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ١٩﴾.	(٢٧) وباعهُ المدْينيون في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط (الفصل التاسع والثلاثون).

النص القرآني	النص التوراتي
(١٦) ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾.	(٢٨) وأما يوسف فأنزل إلى مصر فاشتراه فوطيفار خصي فرعون رئيس الشرطة رجل مصري، من أيد الإسماعيليين الذين نزلوا بهِ إلى هناك.
(١٧) ﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾﴾.	(٢٩) وكان الرب مع يوسف فكان رجلاً ناجحاً وأقامَ ببيت مولاه المصري. (٣٠) ورأى مولاه أن الرب معه وأن جميع ما يعمله ينجحه الرب في يدهِ. (٣١) فنال يوسف حظوة في عينيهِ وخدمهِ فأقامه على بيتهِ، وجميع ما كان لهُ جعله في يدهُ.
(١٨) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾.	(٣٢) وكان منذُ أقامه على بيتهِ وجميع ما هو له أن الرب بارك بيت المصري بسبب يوسف وكانت بركة الرب على جميع ما هو له في البيت وفي الحقل. (٣٣) فترك جميع ما كان لهُ في يد يوسف، ولم يكن يعرف معه شيئاً إلا الخبز الذي كان يأكلهُ، وكان يوسف حسن الهيئة وجميل المنظر.
(١٩) ﴿وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ ۖ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ ۖ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾﴾.	(٣٤) وكان بعد هذهِ الأمور أن امرأة مولاه طمحت عينها إلى يوسف وقالت ضاجعني.

النص القرآني	النص التوراتي
(٢٠) ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾.	(٣٥) فأبى وقال لامرأة مولاه: هوذا مولاي لا يعرف معي شيئاً مما في البيت وجميع ما هو له جعله في يدي. (٣٦) وليس في هذا البيت شيء فوق يدي ولم يمسك عني شيئاً غيركِ لأنك زوجته فكيف أصنع هذه السيئة العظيمة وأخطاء إلى الله. (٣٧) وكلمتْه يوماً بعد آخر فلم يقبل منها أن ينام بجانبها ليكون معها.
(٢١) ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ ۚ قَالَتْ مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾. (٢٢) ﴿قَالَ هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾﴾. (٢٣) ﴿وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾. (٢٤) ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾. (٢٥) ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾.	(٣٨) فاتفق في بعض الأيام أنهُ دخل البيت ليتعاطى أمره ولم يكن في البيت أحد من أهله. (٣٩) فأمسكت بثوبهِ قائلة ضاجعني فترك رداءه بيدها وفرَّ هارباً إلى الخارج. (٤٠) فلما رأت أنه قد ترك رداءه وهرب خارجاً. (٤١) صاحت بأهل بيتها وقالت لهم انظروا كيف جاءنا برجل عبراني ليتلاعب بنا، أتاني ليضاجعني فصرخت بصوت عالٍ. (٤٢) فلما سمعني قد رفعت صوتي وصرخت ترك رداءه بجانبي وفر هارباً إلى الخارج.

النص القرآني	النص التوراتي
	(٤٣) ووضعت رداءه بجانبها حتى قدم مولاه إلى بيتهِ.
(٢٦) ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾.	(٤٤) فكلمته بمثل هذا الكلام وقالت أتاني العبد العبراني الذي جئتنا بهِ ليتلاعب بي.
(٢٧) ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾.	(٤٥) وكان عندما رفعت صوتي وصرخت أنه قد ترك رداءه بجانبي وهرب خارجاً. (٤٦) فلما سمع مولاه كلام امرأته الذي أخبرته به قالت كذا صنع بي عبدك استشاط عليه غضباً.
(٢٨) ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.	
(٢٩) ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾.	(٤٧) فأخذ يوسفَ مولاه وأودعه الحصن حيث كان سجناء الملك مقيَّدين، فكان هناك في الحصن.
(٣٠) ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾	

نتائج المقارنة في قصة يوسف عليه السلام بين النص القرآني والنص التوراتي

رقم الآية القرآنية	الرواية القرآنية	الراوية التوراتية	الملاحظات
٤ ـ ٦	رؤيا واحدة ليوسف عليه السلام	رؤيتان ليوسف عليه السلام	اختلاف
٧ ـ ١٥	ذهاب يوسف عليه السلام بموافقة يعقوب عقب التآمر عليهِ.	ذهاب يوسف عليه السلام بأمر يعقوب.	اختلاف
١٦ ـ ١٨	ارتياب يعقوب في أولاده عقب المؤامرة وأمله في رؤية يوسف.	سرعة تصديق يعقوب عقب المؤامرة ويأسه من رؤية يوسف	اختلاف
١٩ ـ ٢٠	بيع يوسف ووصوله إلى مصر	الرواية نفسها	
٢٤	هَمَّ يوسف بالمعصية وبرهان الله تعالى لهُ.	لم يذكر شيئاً يتعلق بالمعصية.	زيادة من القرآن
٢٥	القميص تقده المرأة	القميص تأخذه المرأة	اختلاف
٢٧ ـ ٢٩	إدانة خلقية من الزوج لزوجهِ	غضب الزوج على يوسف	اختلاف
٣٠، ٣١	فضيحة في المدينة واجتماع للنسوة	لم يذكر شيئاً بهذا الشأن	زيادة من القرآن
٣٣، ٣٤	دعاء يوسف أمام إلحاح المرأة	لم يذكر شيئاً بهذا الشأن	زيادة من القرآن

الغرض من القصة القرآنية

من الضروري الوقوف على الأغراض الداعية لوجود القصة في النص القرآني، فالقرآن الكريم لم يكن كتاباً تأريخيّاً ولم يهتم بالتفاصيل التأريخية كما هو حال غيره من الكتب. إن ما عرضهُ في آياتهِ من شخوص، وأحداث مهمة ليقص قصصهم، لم يمثِّلوا جميع الأنبياء والرسل والأحداث المهمة المثيرة، فلقد راعى القرآن الكريم خيال المجتمع العربي، ومستوى ثقافتهم، ومدى التأثير في مواقفهم فضلاً عمَّا يقدمهُ من دعم نفسي كبير للنبي محمد ﷺ، وقد يكون السبب واضحاً في اختيار شخوص، وأحداث معيَّنة لتُذكر في القرآن من دون سواها في قولهِ تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ . . .﴾[١] وقوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ. . .﴾[٢]، ومعنى هذا أن اختيار الله تبارك وتعالى لأحداثٍ بعينها من تأريخ الرسل، وقصصهم كان مقصوداً، وأن هذا القصد لم يكن للتنفيس والإفاضة عن النبي عليه السلام والمسلمين، وإلى خدمة الدعوة الإسلامية، ولم يسعَ أبداً إلى بيان القصص وسرد تفصيلاتها كافة[٣].

ففي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾[٤]، يعلق الأستاذ محمد أحمد خلف الله قائلاً: «إن القرآن قد تخلى عن كثير من التفصيلات، فلم يذكر عن (عاد) شيئاً قبل التكذيب، وحتى عملية الإرسال نفسها قد تجاوز عنها، فلم يذكر عن هود شيئاً وهو الرسول الذي كذبهُ القوم، كما لم يذكر هنا صفة عاد ولم يتحدث عن بيوتها، ومساكنها، ولم يذكر لنا شيئاً مما دار بين هود وقومهِ من جدل أو حوار، ترك كل هذا وأسرع إلى وصف العذاب. . .»[٥]. ويُسَوِّغ خلف الله

(١) سورة هود، الآية (١٢٠).
(٢) سورة يوسف، الآية (٣).
(٣) ينظر: محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن، ص ٣٢١.
(٤) سورة القمر، الآيات (١٨ ـ ٢١).
(٥) المصدر نفسه، ص ١٢٠.

عدم الخوض في التفصيلات وتركيز القرآن على العذاب الذي لحق بقوم عاد قائلاً: «فعل القرآن كل هذا لسبب بسيط وهو أنهُ يريد في ذلك العهد أن يبث في نفوس المعاصرين للنبي ﷺ الخوف من العذاب، ويريد أن يريهم من الصور ما يجعل الخوف قويّاً عنيفاً. ومن هنا اختار هذهِ الصورة واكتفى بها حتى لا يشغل الذهن عنها بغيرها، وحرص القرآن على أن يكون العذاب، والخوف منهُ هو النتيجة التي يجب أن تقرَّ في النفس، وفي الفؤاد، ومن هنا بدأ القصة بذلك الاستفهام الذي يُصوِّب إلى القلب السهام، فكيف كان عذابي ونذر؟، وختمها أيضاً بالاستفهام نفسه وكأنهُ يريد أن يصيب من الناس القاتل»[١].

ومن هنا نستطيع القول إن القرآن الكريم قد اختار من الشخوص، والأحداث ما يلائم الأغراض المرجوة من ذكر القصص، ولم يعمد إلى سرد الوقائع وتعريف الناس بالأحداث التأريخية. فأكثر الأغراض، كانت تثبيت قلب النبي ﷺ وقلوب المؤمنين، ذلك أن ذكر قصص الأنبياء والرسل وما لاقوه من العذاب والمقاومة في نشر رسالاتهم كان بمثابة العزاء، والتخفيف على نفس النبي ﷺ مما يلقاه من أذى قومهِ مهوِّناً عليهِ الشدائد.

(١) محمد أحمد خلف الله: الفن القصصي في القرآن، ص ١٢٠.

الفصل الثالث

تدوين القرآن الكريم وجمعهُ في عهدي النبوة والخلافة الراشدة في المنظور الاستشراقي

- تدوين القرآن وجمعهُ في عهد النبي ﷺ.
- ـ لفظة القرآن.
- ـ لفظة القرآن عند المستشرقين.
- ـ حقيقة أمية النبي ﷺ.
- ـ كتابة القرآن الكريم على عهد النبي ﷺ.
- ـ المواد المستعملة في تدوين القرآن.
- ـ الحرص الإسلامي على تدوين النص القرآني.
- ـ كتبة الوحي.
- ـ النبي محمد ﷺ وجمع القرآن.
- ـ جامعو القرآن على عهد النبي ﷺ.
- ـ روايات جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ.
- ـ المستشرقون وروايات الجمع.
- ـ منهج زيد في جمع القرآن.

تدوين القرآن وجمعه في عهد النبي ﷺ

لفظة القرآن

للقرآن الكريم أسماء عديدة ورد ذكرها في الآيات، كما ورد بعضها في أحاديث النبي ﷺ[١]، وأكثر هذه الأسماء شهرة، وأوضحها دلالة الأسماء الآتية:

أولاً: القرآن، كما ورد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ﴾[٢]، وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[٣]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿وَقُرۡءَانًا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٍ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلًا﴾[٤]، وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾[٥]، وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾[٦].

ثانياً: الكتاب، كما في قولهِ تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾[٧]، وقوله: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ...﴾[٨]، وقوله عزَّ من قائل: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٌ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ...﴾[٩].

ثالثاً: الفرقان، كما في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِي نَزَّلَ ٱلۡفُرۡقَانَ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦ لِيَكُونَ لِلۡعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾[١٠]، وقوله: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَ﴾[١١].

رابعاً: الذكر. في قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[١٢]،

---

(١) ينظر: محمد عبد الله المهدي البدري: القرآن الكريم تأريخه وعلومه، دار القلم (دبي - ١٩٨٤)، ص ٩، ١٠.

(٢) سورة الواقعة، الآية (٧٧).

(٣) سورة يوسف، الآية (٢).

(٤) سورة الإسراء، الآية (١٠٦).

(٥) سورة الإسراء، الآية (٩).

(٦) سورة القيامة، الآيتان (١٧، ١٨).

(٧) سورة البقرة، الآيتان (١، ٢).

(٨) سورة آل عمران، الآية (٣).

(٩) سورة آل عمران، الآية (٧).

(١٠) سورة الفرقان، الآية (١).

(١١) سورة آل عمران، الآيتان (٣، ٤).

(١٢) سورة الحجر، الآية (٩).

وقوله: ﴿. . . وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾(٢).

خامساً: التنزيل. كما في قولهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٣)، وقوله: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾(٤)، وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(٥).

ولفظة القرآن في الأصل مصدر على وزن فُعْلان، بالضم، كالغُفْران والشُكران والشكلان: «تقول: قرأته قُرْءاً وقراءةً بمعنى واحد، أي: تلوتهُ تِلاوةً»(٦). وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾(٧).

لقد تعددت الآراء في الأصل الذي اشتقت منهُ لفظة «القرآن»(٨) فقيل: إنها وصف من القَراء، بفتح القاف وفتح الراء بمعنى المجمع، وقيل: مشتقة من القرائن، وقيل من قرنت الشيء بالشيء، أي: جمعت بعضه إلى بعض، وقيل: إنها مرتجلة، أي: موضوعة من أول الأمر عَلماً على كلام الله عز وجل، وقيل: هي في اللغة مصدر مرادف للقراءة(٩).

ولكل من الآراء السابقة وجه، ولكن أرجحها عند كثير من أهل اللغة والفقه، أنها كلمة مبتدأة اسماً لهذا الكتاب العزيز المُنَزَّل على محمد بن عبد الله ﷺ، ولما جاء فيهِ من كلام رب العالمين، تصدق عليهِ كله كما تصدق

---

(١) سورة النحل، الآية (٤٤).
(٢) سورة الأنبياء، الآية (٥٠).
(٣) سورة الشعراء، الآية (١٩٢).
(٤) سورة فصلت، الآيتان (١، ٢).
(٥) سورة الواقعة، الآية (٨٠).
(٦) ينظر: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن، دار القلم، ط ٢، (الكويت ـ ١٩٧٠)، ص ١٢، ١٣.
(٧) سورة القيامة، الآية (١٧).
(٨) للتفصيل في أسباب تسميته بالقرآن راجع: الطبطبائي: الميزان في تفسير القرآن، جـ ١، ص ١٨.
(٩) للتفصيل عن الآراء ينظر: أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، دار إحياء التراث، (بيروت ـ لا. ت)، جـ ١ ص ١٤؛ البدري: القرآن الكريم تأريخه وعلومه، ص ٩؛ عبد الكريم الخطيب: القرآن، ص ١، ٢.

على بعضِهِ، فيقال للمصحف كله قرآن كما يقال للجزء منه قرآن، كما أنها أيضاً تستعمل مصدراً بمعنى القراءة في قراءة القرآن(١).

لفظة القرآن عند المستشرقين

على أن لفظة «قرآن» هي الأُخرى لم تسلم من أبحاث المستشرقين ودراساتهم، الذين حاولوا التأكيد على أن أصل الكلمة غير عربي.

فالمستشرقان نولدكه الألماني، ومونتجمري وات الإنكليزي يريان أن كلمتي «قَراء» و«قرآن» هما من الكلمات الدينية التي أدخلتها المسيحية في شبه الجزيرة العربية(٢).

في حين أن المستشرقين شفالي، وولهاوزن يجدانها كلمة مستعارة من السريانية أو العبرية: قريانا Keryna أو، بالكسر، Kiryana(٣).

وعن الأصل اللغوي لها يقول المستشرق الفرنسي بلاشير: «إن السور المنزلة الأولى التي افتتحت دعوة محمد، تشتمل على الأصل اللغوي لاسم «القرآن»، ففي بعض المقاطع القرآنية وردت كلمة «قرآن» بمعنى التلاوة، ويمكن أن تكون هذهِ الكلمة مأخوذةً عن اللغة السريانية التي يرد فيها لفظ مشابه جدّاً المعنى»(٤).

ويرجع المستشرق الألماني عمانويل كلير هلز بأصل الكلمة إلى العبرية، وذلك عندما يقول: «إن أصل كلمة قرآن. . . هو غير معلوم لنا بصورة أكيدة، ولكن على ما يبدو هو مشتق من الفعل «قرأ» أو «يقرأ» استناداً إلى

---

(١) ينظر: البدوي: القرآن الكريم تاريخه وعلومه، ص ٩.

(٢) Noldeke, Geschichte des Qorans, vol - 1, p. 82.
ينظر كذلك: مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ٨٦.

(٣) ينظر: هاملتون جب و ج. هـ. كالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة ـ ١٨٨٥)، جـ ٢، ص ٨٠٠.

(٤) بلاشير: القرآن نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت ـ ١٩٧٤)، ص ٢٣. ولقد أصدر المستشرق كريستوف لوكسنبرغ في عام ٢٠٠٠م كتاباً بعنوان (معاني القرآن على ضوء علم اللسان ـ قراءة آرامية سريانية للقرآن)، إذ حاول هذا المستشرق الألماني إيجاد رابط بين العربية والسريانية، وقام بدراسة بعض المقاطع القرآنية التي أرجعها إلى أصول سريانية.

الوحي الذي نزل على النبي محمد وأمره بـ«اقرأ» أو «قُل»، وما نلاحظه بوجه خاص هو المعنى نفسه في العهد القديم، وكذلك الكلمة العربية العبرية Kara، أي (قرأ)[١]، ويتفق معه تماماً زميلهُ الألماني المستشرق ونتر في (ترجمته القرآن) إرجاع أصل لفظة القرآن إلى العبرية[٢].

إن القرآن الكريم عربي مبين في مجملهِ وتفصيلهِ، ومفرداتهِ وتراكيبه، وليس فيه ما هو غير ذلك، ويوضح ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾[٣]، وقوله جل شأنهُ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ﴾[٤]، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوۡ جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا أَعۡجَمِيّٗا لَّقَالُواْ لَوۡلَا فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥٓۖ﴾[٥].

وبناءً على هذه المعاني السامية الدالة على أن الألفاظ القرآنية ما هي إلا ألفاظ عربية، وبلسان عربي مبين، كيف يكون للفظة القرآن أصل غير عربي، الكلمة الجامعة لمحتواه المعبرة عن الكل والجزء من كلام الله المنزل على رسولهِ محمد ﷺ.

حقيقة أُمية النبي ﷺ

قبل الخوض في تفاصيل كتابة القرآن، وجمع آياتهِ في عهد النبي ﷺ، لا بد من الإشارة إلى موضوع في غاية الأهمية ومرتبط ارتباطاً وثيقاً بموضوع البحث، ألا وهو الحقيقة في معرفة النبي ﷺ القراءة والكتابة، ووجهة نظر الاستشراق بذلك، إذ لم يحصل الاتفاق التام، والكامل بين علماء المسلمين على موقف واحد من أُمية النبي ﷺ، تعددت الآراء بين من يقول إنهُ صلى الله عليه وآلهِ لم يكتب ولم يقرأ في كتاب قط، وبين من يقول إنهُ لم يتوفه الله تعالى حتى كتب، وقرأ، وبين من يقول إنهُ كتب مباشرة وبيدهِ في أيام البعثة[٦]، في حين انتهى أكثر المستشرقين إلى استبعاد القول بأمية النبي

---

(١) Hals, Der Islam, p. 160.

(٢) Winter, Der Koran, p. 5.

(٣) سورة يوسف، الآية (٢).

(٤) سورة الشعراء، الآيات (١٩٢ ـ ١٩٥).

(٥) سورة فصلت، الآية (٤٤).

(٦) للتفصيل ينظر: عبد الصبور شاهين: تأريخ القرآن، دار القلم، (بلا ـ ١٩٦٦)، ص ٤٧ ـ ٤٨.

محمد ﷺ، والانطلاق من فهمهم لكلمة «اقرأ» التي وجهت للنبي ﷺ، في النزول الأول للوحي، بأنها أمرٌ بالقراءة، مما يعني أن النبي ﷺ كان عارفاً بالقراءة، وعلى هذا الأساس فهو ليس بأُمي.

هذا ما يطرحهُ كثير من المستشرقين، كمونتجمري وات الذي يعلق على جواب النبي ﷺ للأمر الإلهي القائل: «اقرأ» قائلاً: «في التمييز عند ابن هشام «ما اقرأ» و«ماذا اقرأ» حيث التعبير الثاني لا يمكن أن يعني إلا «ماذا أتلو» وهذا هو المعنى الطبيعي لقوله «ما أقرأ»، ويبدو من المؤكد تقريباً أن المفسرين التقليديين اللاحقين تجنبوا المعنى الطبيعي لهذه الكلمات ليجدوا أساساً للعقيدة التي تريد أن محمداً لم يكن يعرف الكتابة، وهذا عنصر رئيس للتدليل على طبيعة القرآن المعجزة»[١].

إن هذا الاعتقاد قد بُني عند المستشرقين، من خلال مجموعة من المعطيات الواردة في بعض الآيات القرآنية والأحاديث المروية الدالة على معرفة النبي القراءة والكتابة، فضلاً عما يعتمدون عليه في تفسير جواب النبي ﷺ للوحي الأول. فالأية (٤٨) من سورة العنكبوت: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ وفيها إشارة واضحة إلى ما كان النبي ﷺ يتلوه ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ ومعنى هذا القول الإلهي عند المستشرق فايل والمستشرق هاملتون جب أن النبي ﷺ كان يعرف القراءة والكتاب، وأنهُ ﷺ لم يقرأ كتب اليهود والنصارى السابقة لبعثتهِ[٢].

وقد ينظر إلى الآية (٥) من سورة الفرقان: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ. . .﴾ ولم يكتب منها، وإنهُ ﷺ قد تعلم في وقت متأخر من حياته[٣].

---

(١) مونتجمري وات: محمد في مكة، ص ٨٥؛ ولا يخرج عن نطاق هذا المعنى المستشرق إدوارد سيل، ينظر: Sell, Edward, The Historical, P. 2.

(٢) ينظر: هاملتون جب وكالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ ٢، ص ٨٠٨، ٨٠٩؛ عبد الصبور شاهين: تأريخ القرآن، ص ٤٩.

(٣) هاملتون جب وكالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ ٢، ص ٨٠٨، ٨٠٩.

ويولي المستشرق الفرنسي رجيس بلاشير هذا الموضوع عناية كبيرة، فهو يتساءل ويناقش ويستعرض الآراء ليصل في نهاية المطاف للقول بأن النبي ﷺ كان عارفاً بالقراءة والكتابة، فهو يبتدىء بقوله: «هل كان محمد يعرف القراءة والكتابة؟. . . سؤال مهم جدّاً. . . وقد جاءت عنه إجابات مختلفة، فالرأي الثابت اليوم لدى المسلمين هو أن محمداً لم يكن يملك هذهِ المعرفة، وهو يعتمد على خبر قديم سابق في علم التفسير، يجعل الاشتقاق (أُمِّيّ)، ولا سيما في التعبير: (النبيُّ الأميُّ) بمعنى (جاهل ـ لا يعرف القراءة والكتابة)، وقد أخذ بهذا التفسير عدد من المستشرقين مثل: Montet, Kasimirski, Amari»[١].

ويواصل بلاشير قائلاً: «لنعد إلى السورة ٩٦/ ٢[٢]. . . فكلمة» أُمي في هذهِ الآية، وفي كثير غيرها يقصد بها (العرب المشركون) الذين لم يتلقوا وحياً، كما هي حال اليهود، والنصارى، وهم لذلك يعيشون في جهل بشرع الله، وفي تفسير الطبري أخبار كثيرة مرفوعة إلى ابن عباس تؤيد هذا المعنى وتزكيه.

فالنبي الأُمِّي لا يعني إذن (النبي الجاهل)، وإنما يعني نبي الوثنيين، . . . أي الوثنيين الذين كان اليهود والنصارى يعرفونهم»[٣].

ويعلل الفكرة السائدة عند المسلمين بشأن أُمِّية النبي ﷺ في قوله: «ولو أننا تأملنا من قريب الفكرة السائدة في العالم الإسلامي فسنلاحظ أنها ناشئة عن نزعة إلى المديح: فالذي يدل على الأصل الإلهي للقرآن هو أن ذلك الكتاب قد أوحي إلى أُمي (جاهل)، حالت أُميته بينه وبين أن يستقي معلوماتهِ من أي تعلم مباشر للكتب اليهودية ـ النصرانية، وهكذا يروعنا التناقض بين صورة محمد في تواضعها كإنسان، وفي عظمتها كرسول، لذلك

---

(١) Regis Blachere, Introduction Au Coran, (Paris - 1959). P. 6, 7.

(٢) ورد رقم السورة المقصودة عند بلاشير خطأً، والصحيح هو (٦٢) سورة الجُمعُة وليس (٩٦). وقد جاء في الآية الثانية منها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ. . .﴾.

(٣) Regis Blachere, Ibid, P. 7, 8.

انتهى بعض المستشرقين إلى إقصاء القول بأمية محمد جانباً»[١].

وبلاشير يُصرُّ على معرفة النبي ﷺ القراءة والكتابة، مستعيناً ببعض الأخبار الواردة عن النبي ﷺ في كتب التأريخ، ويقول: «ففي خبر الحديبية (عام ستة من الهجرة/ ٦٢٧م) إن محمداً، ورسول مكة سهيل قرَّرا عقد معاهدة، فدعا محمد كاتبه وبدأ يُملي البسملة، ولكن سهيل أوقف النبي لساعته قائلاً: (اكتب كما كنت تكتب من قبل: باسمك اللهم) فمن الواضح أن سهيلاً يشير إلى بعض كتابات بيد محمد قبل رحيله من مكة، وربما قبل مبعثهِ.

وأكثر من ذلك أيضاً مجموعة الأخبار التي تشير إلى أن النبي في مرضه الأخير طلب كتفاً أو قطعة من جلد، ودواة كيما يحرر وصيته السياسية، ولم يندهش أحد من طلبهِ، وإذا كان الذي حدث أنهم لم يجيبوه إلى ما طلب، فلأن جانب أبي بكر وعائشة قد عارض في ذلك جانب عليٍّ»[٢].

ثم يختم بلاشير هذا الموضوع بقولهِ: «وجملة القول: إننا نرى وجود قرائن على أن محمداً كان يعرف القراءة والكتابة، فضلاً عن ذلك فلدينا من الأسباب ما يحملنا على الظن بأن رجالاً آخرين من أُسرتهِ: مثل عمه أبي طالب، وابن عمهِ عليٍّ كانت لديهم أيضاً هذهِ المعرفة»[٣].

وبعدما عرضنا أهم طروحات المستشرقين، والنقاط التي يثيرونها لدعم فرضيتهم القائلة بمعرفة النبي ﷺ القراءة والكتابة، سأكتفي بإيراد نقطتين مُهِمتَين في دعم حقيقة أُمية النبي ﷺ، على أن الأمية هنا، لا تعني إلا الجهل بالقراءة والكتابة، وإلا فعقل النبي ﷺ وتفكيره، ونطق لسانه لا يضاهيه فيهن أحدٌ، لأنهُ المختار من العباد لحمل آخر الرسالات السماوية وأشرفها، وإن الأمية هنا لا تتعدى حدود (جهل القراءة والكتابة)، وهو بلا شك أمرٌ إلهي لإرادة حكيمة.

أما كيف إثبات هذهِ الأمية، فنقول إن رسول الله محمداً ﷺ كان من

---

(١) Blachere, Introduction. p. 8.

(٢) Ibid, P. 10, 11.

(٣) Ibid, P. 11.

المسلمين بمقامٍ رفيع، ومنزلة عالية، ولذلك تشرف الكثير منهم بتسجيل أحاديثه، وأخبارِه، وغزواته وكل ما يخصهُ ﷺ من الشمائل، والأخلاق، والصفات وعدد الزوجات وغيرها من صغير أو كبير ما دام أنه متعلق بشخصية رسول الله ﷺ، فكيف إذاً يعرضون عن إيراد خبرٍ مُهِمٍّ بشأن معرفة النبي ﷺ القراءة والكتابة لو كان بالفعل قارئاً، وكاتباً، وهذا التساؤل المنطقي هو مفتاح القطع بحقيقة أُمية النبي ﷺ، فلو كان عارفاً للقراءة والكتابة، لكتب في حياته ولشاع الأمر بين الناس، ولوجدنا ذلك مذكوراً في الروايات.

النقطة الثانية هي استعانة النبي ﷺ بعدد من الصحابة في كتابة الوحي، حتى بعض الصحابة كان معروفاً بملازمتهِ النبي ﷺ، استعداداً وتهيُّؤاً لأي وحي قد ينزل على رسول الله ﷺ فيقوم الكاتب بتسجيله، ولو كان (عليهِ أفضل الصلاة والسلام) على علم ومعرفة بالقراءة والكتابة لما احتاج إلى ذلك العدد من الكتبة ولا إلى تلك الملازمة.

ويكفينا القرآن الكريم علَّة هذهِ الأُمية وحكمتها التي هي ليست عيباً ولا نقصاً في شخص النبي ﷺ، وإنما هي إثبات حقيقة نبوتهِ، يكفينا حجةً في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾[1].

كتابة القرآن الكريم على عهد النبي ﷺ

كان القرآن الكريم ينزل على النبي محمد ﷺ فيحفظه أولاً، ثم يدوِّنهُ كتابةً مستعيناً ببعض الصحابة ممن يعرفون القراءة والكتابة، فيدلهم على مواضع الآيات وأماكنها في السور، وهذا ما أشارت إليهِ الرواية المذكورة عن زيد بن ثابت في قوله: «كُنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع»[2]، وتأليف القرآن هنا يعني ترتيب سورهِ وآياتهِ كلٍّ بحسب مكانهِ.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية (٤٨).

(٢) ينظر: محمد بن بهادر عبد الله الزركشي (ت: ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م): البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، (بيروت ـ ١٣٩١هـ)، جـ ١، ص ٢٣٧؛ جلال الدين الأسيوطي (ت: ٩١١هـ/ ١٥٠٥م): الإتقان في علوم القرآن، المكتبة الثقافية، (بيروت ـ ١٩٧٣م)، جـ ١، ص ٩٩.

نعم لقد كان النبي الكريم ﷺ يهتم بتدوين الآيات القرآنية كلما نزلت عليهِ، مرتِّباً أماكنها بشكلٍ توقيفي غير اختياري. فعن قول عثمان بن أبي العاص أخرج أحمد في مسندهِ ما نصُّهُ: (كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شَخَصَ ببصرهِ ثم صوَّبه ثم قال: أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذهِ الآيةَ هذا الموضع من هذهِ السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ إلى آخرها)[١].

وفي كتب الحديث دلائل أُخرى على أن الآيات، والسور القرآنية قد رُتِبت بشكل توقيفي في أيام النبي ﷺ، وقد ثبت أنهُ ﷺ قد قرأ سوراً متعددة بترتيب آياتها في الصلاة وفي خطب الجمعة بمشهد من الصحابة، فكان ذلك دليلاً صريحاً على أن الترتيب هو توقيفي غير اختياري ولا اجتهادي[٢].

ويجب علينا بكوننا مسلمين ألا ندع مجالاً لتداول بعض الآراء المؤدية إلى إضعاف الدين في نظر الآخرين، وإشاعة الأقاويل بشأن ما يتعلق بالقرآن الكريم من جمعٍ، وترتيبٍ، وتدوين.

فمثلاً يورد الزركشي بشأن ترتيب السور القرآنية ما نصه: «وترتيب بعضها ليس هو أمراً أوجبه الله، بل أمرٌ راجع إلى اجتهادهم، واختيارهم، ولهذا كان لكل مصحف ترتيب»[٣]. وقول الزركشي هذا وأمثاله مما يعمل على تجريد النبي ﷺ من مهماته وأدوارهِ الرسالية، ويسلب من كتاب الله العناية الإلهية التي حفتهُ بها منذُ نزولهِ على المصطفى حتى الآن، وينسب فضل ترتيبهِ على هذهِ الصورة الحالية إلى اجتهاد الصحابة واختيارهم[٤]، وكأن هذا الترتيب غير مرتبط بالإرادة الإلهية، وكأن جبريل عليه السلام لم يكن ينزل في كل سنة مرة ليراجع مع النبي ﷺ ما نزل من القرآن الكريم، حتى قيل إنهُ نزل

---

(١) السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٠٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، ص ١٠٥.

(٣) الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٦٢.

(٤) يقول المستشرق الأمريكي آرثر جفري في مقدمته لكتاب المصاحف: «فإن علماء الغرب لا يوافقون على أن ترتيب نص القرآن كما هو اليوم في أيدينا من عمل النبي». ينظر: أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني (ت: ٣١٦هـ/ ٩٢٨م): كتاب المصاحف، تحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية، (مصر ـ ١٩٣٦)، جـ ١، ص ٥.

مرتين في آخر سنة من حياة النبي ﷺ[١]. فعلى أي ترتيب كانوا يراجعون! أَعَلى الترتيب المرتبط بالمشيئة الإلهية أم على الترتيب الاجتهادي والاختياري للصحابة!.

والراجح كما يرى السيوطي أن تدوين القرآن في عهد الرسول ﷺ كان في زمن مبكر من الدعوة، أي قبل الهجرة، وما يؤكد ذلك خبر إسلام عمر ابن الخطاب، فالكتابة كانت تسير مع القراءة عن طريق المشافهة في حفظ النص، فكلما نزل من القرآن شيءٌ أمر الرسول ﷺ كتبة الوحي بتدوينه[٢].

وقد كان الصحابة يعرضون ما يحفظون من القرآن على الرسول ﷺ للتأكد من ضبط، وسلامة حفظهم، كما كان الرسول ﷺ يأمرهم أحياناً بالقراءة حتى يستمع، فقد ورد عن ابن مسعود أنهُ قال: «قال لي رسول الله ﷺ: اِقرأ عَلَيَّ. ففتحت سورة النساء، فلما بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[٣]، رأيت عينيهِ تذرف مع الدمعِ، فقال: حسبك الآن»[٤].

وهكذا على الرغم من اهتمام النبي الكريم ﷺ بحفظ الصحابة القرآن ومداومتهم على قراءته في الصلاة وغيرها من المناسبات العبادية، وعلى دراستهم ومذاكرتهم آياتهِ، وسوره، فقد أولى عناية فائقة بكتابته، وتدوينه، يقول أبو شامة: «كان النبي ﷺ كلما نزل من القرآن شيءٌ أمر بكتابته»[٥].

وبذلك كانت كتابة الآيات، والسور وترتيبها توقيفيّاً بأمر النبي الكريم ﷺ، الذي كان يعرض القرآن بالترتيب نفسه على جبرئيل عليه السلام مما يدل على أن النص القرآني، وترتيبه قد وُثِّق توثيقاً لا يبقى معه أدنى شبهة في كونه نابعاً

---

(١) ينظر: أبو شامه شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل المقدسي (ت: ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م): كتاب المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق طيار ألتي قولاج، دار صادر (بيروت ـ ١٩٧٥)، ص ٣٣.

(٢) السيوطي: الاتقان، جـ ١، ص ٦٢.

(٣) سورة النساء، الآية (٤١).

(٤) محمد بن محمد بن الجزري: غاية النهاية، تحقيق برجشتراسر، مكتبة الخانجي، (مصر ـ ١٩٣٢م)، جـ ١، ص ٤٥٨.

(٥) أبو شامة: كتاب المرشد الوجيز، ص ٣٣.

من المشيئة الإلهية وغير خاضع للاجتهاد والاختيار البشري.

وإن ما رافق ذلك الاهتمام بالكتابة والتدوين، كان الحفظ الصدري الذي لم يكن بأقل أهمية من التدوين والكتابة، إذ الكثير من الصحابة كانوا لا يعرفون الكتابة أو القراءة من المكتوب ولذلك يلجَؤون إلى الحفظ الصدري لآيات القرآن وسوره، هذا من جهة، ومن جهةٍ أُخرى فإن الحفظ الصدري للقرآن كان من مستلزمات أداء بعض العبادات التكليفية الواجبة كالصلاة.

ويبدو أن المستشرق الألماني شبرنجر كان مُتحيراً بشأن كتابة القرآن وتدوينه في عهد النبي ﷺ عندما يقول: «وعليهِ نرى بأن (محمداً) دوَّن وحيهُ في المدينة من خلال الكُتَّاب، إلا أننا غير متأكدين فيما لو أنهُ أنتج كتاباً كاملاً أم لا، أو فيما لو جمع القرآن من خلال الكتابة، ولكن ما تأكدنا منه هو أن القرآن كان محفوظاً في الذاكرة والقلب»[١].

وتتطابق رؤيته مع الحقيقة حينما يؤكد وجود مدوَّنات مكتوبة وأن الاعتماد لم يكن مقتصراً على الحفظ الصدري فقط حين يقول: «ووجدنا. . . بأنه ﷺ قد أرسل رسلاً إلى القبائل كي يعلِّموهم القرآن، وواجبات الإسلام، ولم يحصل أيٌّ منا على نسخة كاملة للقرآن، وقد يكون لدى البعض معلومات مدوَّنة (مكتوبة) قليلة، إلا أن الأغلبية يحفظون الكثير عن ظهر قلب»[٢].

المواد المستعملة في تدوين القرآن

لم يُعرف الورق، ولم يُستعمل في العالم الإسلامي، إلا في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري[٣]، وقبل هذا التأريخ كانت هناك مواد متعددة تستعمل بديلاً عنهُ، قد استعملت في كتابة آيات القرآن وسورهِ، منها: الرق،

(١) A. Sprenger, Leben und die lehre Mohammad, (Berlin - 1869), P. XXXII.

(٢) Ibid. P. XXXII.

(٣) ينظر: صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام، مؤسسة الرسالة، (بيروت ـ لا. ت)، ص ١٣؛ حسين علي الداقوقي: «معركة طلس أو الصراع الحضاري بين العرب والصين»، بحث منشور في مجلة دراسات للأجيال، العدد الثالث ـ أيلول ١٩٨٧، ص ١٢٢ ـ ١٢٤.

والجلد، وألواح خشبية، والعُسُب، واللخاف وعظام الكتف[١].

وكان كتبة الوحي يكتبون الآيات على هذهِ المواد فيطلق عليها الصحف، وكانت من تلك الصحف تكتب لرسول الله ﷺ وتوضع في دارهِ[٢].

ولكن التساؤل المهم، والملح هنا هو: أيُّ المواد كانت الأكثر استعمالاً من بين هذهِ الأنواع؟

من الطبيعي جدّاً أن تكون هناك مواد ملائمة كان الرسول ﷺ يستعملها في كتابة النصوص القرآنية، وهي بلا شك ليست المواد السريعة التلف أو التي لا تستوعب سوى أسطر، أو كلمات معدودة، كاللخاف والعُسُب وحتى عظام الحيوانات، بل لا بد أن تكون أفضل من هذهِ، إذ يذكر القلقشندي أن الصحابة أجمعوا: «على كتابة القرآن الكريم في الرق لطول بقائهِ أو لأنهُ الموجود عندهم حينئذ»[٣].

وعلى ما يبدو فإن القراطيس[٤] كانت أفضل الأنواع ملاءمةً لكتابة النصوص القرآنية وتدوينها، ولا سيما هي من المواد المستعملة في شبه جزيرة العرب قبل ظهور الإسلام، كما أن القرآن الكريم قد أشار إليها في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[٥]، وقوله: ﴿. . . قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ

---

(١) ينظر: صبحي الصالح: مباحث في القرآن، ط ١٠، دار العلم، (بيروت ـ ١٩٧٧)، ص ٦٩؛ أبو عبد الله الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٢.

(٢) الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٢.

(٣) القلقشندي: أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب المصرية، (القاهرة ـ ١٩٦٣)، جـ ٢، ص ٤٢٥.

(٤) (القراطيس) وهو كلمة مشتقة من Khartes الإغريقية، والقرطاس هو نبات البردي من نوع الحلف يكثر وجوده في مصر التي اشتهرت بزراعته منذُ أقدم الأزمنة، ولا سيما في منطقة الدلتا والفيوم، وكان يؤخذ لُبهُ ويقطع في شرائح طويلة متعارضة في طبقتين أو ثلاث ثم تبلل بالماء، ثم تضغط وتصقل فتتكون منها أوراق تصلح للكتابة بالحبر تسمى بالقراطيس. ينظر: صالح أحمد العلي: دارسات في تطور الحركة الفكرية، ص ٥٤؛ جورج سارتون: تأريخ العلم، ترجمة محمد خلف الله وآخرون، دار المعارف، ط ٣، (القاهرة ـ ١٩٧٦)، جـ ٣، ص ٨١، ٨٢.

(٥) سورة الأنعام، الآية (٧).

نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا . . .﴾[١].

ويأتي امتياز القراطيس من غيرها من المواد الأخرى، لكونها أوراقاً صالحة للكتابة بالحبر، وخفيفة الوزن، تبقى أمداً طويلاً، كما أنهُ يمكن أن يكتب عليها نصوص بالغة الطول وتحفظ على ترتيبها، ويكون عرض القرطاس ما بين ثلاثة أقدام إلى ثمانية عشر قدماً، أما طوله فيمكن أن يصل إلى أكثر من مئة قدم[٢].

وقد نقل السيوطي[٣] عن موطأ ابن وهب أن أبا بكر لما أراد جمع القرآن كان بعضه مكتوباً في قراطيس، مما يعني أنهُ كان مما استعملهُ رسول الله ﷺ في تدوين آيات القرآن، وسوره، ولا يستبعد أن تكون القراطيس من أكثر المواد التي استُعمِلَت لهذا الغرض، لكونها تتميز من غيرها بقابلية استيعاب كمية أكبر من الكلمات والتفاصيل في قطعة واحدة بخلاف المواد الأخرى.

وقد يكون السبب في عدم اعتماد النبي الكريم ﷺ على مادة واحدة كالقراطيس مثلاً أو الرق، يعود إلى طول مدة نزول الوحي لثلاث وعشرين سنة تقريباً، هذا من جهة، ومن جهة أُخرى، إن الوحي، ووفق ما جاء في الروايات الإسلامية، كان ينزل على النبي ﷺ من دون سابق إنذار ومن دون موعد معيَّن، وعليهِ، فالنبي عليهِ أفضل الصلاة والسلام، كان يسارع إلى حفظهِ أولاً، ومن ثم إلى تدوينهِ، وعلى أيٍّ من المواد المتوافرة لديهِ وقنذاك، إن كان عُسباً، أو لخافاً، أو رقّاً أو غيرها.

ونرى هنا أنَّ المستشرقين لا يختلفون في أن النبي الكريم ﷺ، كان إذا ما نزل عليهِ الوحي الشريف يسارع إلى حفظهِ الصدري، وفي الوقت نفسه إلى تدوينه على مواد متعددة.

فالمستشرق الألماني هلز يقول: «ففي عصر الرسول تم الاحتفاظ بالوحي بطرق مختلفة، فبعضُ الذين عاصروه كتبوا على مواد متعددة مثل (الجلد،

---

(١) سورة الأنعام، الآية (٩١).

(٢) ينظر: صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية، ص ٥٤، ٥٥؛ جورج سارتون: تأريخ العلم، جـ ٣ ص ٨١، ٨٢.

(٣) الإتقان: جـ ١ ص ٦٠.

الخشب، أوراق النخيل، قطع حجرية، وحتى على العظام) وليس بدافع الاستهانة عندما كانت تقوم بعض المجموعات بتلاوة بعض القرآن شفويّاً من ذاكرتهم إلى جانب التدوين»[١].

أما المستشرق موريس بوكاي فيقول: «استعملت أشياء متنوعة لإتمام أول تدوين للقرآن: مثل الرق، والجلد، والألواح الخشبية، وعظام لوح البعير وأحجار الحفر الطريَّة، ولكن محمداً ﷺ قد أوصى المؤمنين في الوقت ذاته بحفظ القرآن عن ظهر قلب، وذلك ما فعلوه. . . ولقد اتضحت القيمة الثمينة لذلك المنهج المزدوج في حفظ النص بالكتابة والذاكرة»[٢].

ويحاول بلاشير أن يقلل من أهمية توثيق النصوص القرآنية حينما يقرر أن تدوينها لم يتم إلا بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة[٣]، وعلى العكس من ذلك نجد المستشرق هلز الذي وجد أن الحرص على حفظ القرآن كان قد تجاوز فيه النبي محمد ﷺ حرص سيدنا عيسى عليه السلام في حفظ علومه وكتابه حين يقول: «لقد أملى النبي محمد ما أُوحي إليهِ على مختلف الكُتَّاب، . . . إذ أراد بهذا أن يترك خلفه كتاباً كاملاً لأوحيته، مثلما هو لدى اليهود والمسيح، والذي شجعهم على هذهِ المهمة الصعبة هو عجبهم بما يملكوه (أهل الكتاب)، قدر الإمكان أراد النبي محمد أن يزيد على مؤسس الكنيسة المسيحية، بأنه ليس مثل يسوع تخلى عن تدوين علومهِ على مدى شبابهِ، وإنما تمسك بنصه وحرص على تدوينه تحريريّاً»[٤].

---

(١) Hals, Der Islam, P. 161.

(٢) موريس بوكاي: القرآن والتوراة والإنجيل والعلم، دار المعارف، ط ٤، (القاهرة ـ ١٩٧٧)، ص ١٥٥.

(٣) بلاشير: القرآن نزوله، ص ٢٨ ـ ٣٠. وعلى ما يبدو فإن المستشرق الفرنسي بلاشير قد غابت عنهُ رواية إسلام عمر بن الخطاب وما فيها من دليل واضح على وجود صحف عليها مدونات قرآنية، عن هذه الرواية ينظر: ابن هشام، محمد بن عبد الملك (ت: ٢١٨هـ/ ٨٣٣م): السيرة النبوية، تحقيق همام سعيد ومحمد بن عبد الله، (الأردن ـ ١٩٨٨)، مجـ ٢، ص ١٩٠.

(٤) Hals, Der Islam, P. 160, 161.

الحرص الإسلامي على تدوين النص القرآني

اختلف المستشرقون في موقفهم، فمنهم من يرى أن النبي الكريم ﷺ لم يُبدِ أي اهتمام بتدوين النص القرآني، أو على الأقل أنهُ أهمل ذلك التدوين خلال العهد المكي، في حين يرى آخرون بأنه ﷺ كان يهتم اهتماماً كبيراً في هذا الأمر، فالمستشرق ونتر يقول: «إن القرآن الكريم، الذي نشأ دون اعتبار للتدوين التحريري (المكتوب)، وإنما فقط وفق الاعتماد على الذاكرة وما حُفظ منه. . . كان قد ترك فجوات شك وريبة عند وفاة النبي»(١).

في حين يُصِرُّ بلاشير على أن التدوين تم بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة، محاولاً التقليل من حجم الاهتمام، وحرص النبي ﷺ حين يقول: «إن مفهوم النص المكتوب كان حاضراً في أذهان المهتدين المكيين الأوَل. . . إبَّان سنة ٦٢٢م. . . ومع ذلك فإن أنصار محمد لم يشعروا مباشرةً بضرورة تدوين الرسالة الجديدة»(٢).

في حين أن شبرنجر يرى بأن النبي محمد ﷺ كان حريصاً على تدوين النص القرآني، ولكن يعلل هذا الحرص بأنهُ ناتج عن تقدم سن النبي ﷺ وضعف ذاكرته، مما دعاه إلى هذا الحرص(٣)، ثم يعود في نهاية المطاف ليقرر أن المدونات القرآنية قد أهملت قبل وفاة النبي ﷺ، ونص قوله الآتي: «لقد صاغ محمد الكثير من أجزاء القرآن في سور، وبضمن هذا أيضاً ما قد فقد منها بسبب ضعف الذاكرة أو بسبب إهمالها، وعلى الرغم من أن أوحيته تمثل كلام الله، إلا أنها بقيت حتى موتهِ تخضع للإهمال»(٤).

أما الطرف الثاني من المستشرقين الذي يدرك عناية النبي ﷺ وحرصه على تدوين النص القرآني، والنابعة أصلاً من العناية الإلهية التي تؤكدها الآيات القرآنية المتعددة، التي سنأتي على ذكر بعضها، يمثلها المستشرق موريس بوكاي بقوله: «هناك نصوص تثبت صراحةً أن ما قد أنزل على

---

(١) Winter, Der Koran, P. 10.

(٢) بلاشير: القرآن نزوله، ص ٢٨.

(٣) Sprenger, Leben und die lehre Mohammad, P. XXXIII - XXXIV.

(٤) Ibid, P. XXXIV.

محمد ﷺ من القرآن قبل مغادرتهِ مكة إلى المدينة (أي قبل عام الهجرة) كان مثبتاً بالكتابة»[١]. وأكثر من هذا ما يشير إليه المستشرق هلز من أن النبي الكريم ﷺ قد دوَّنَ ما أُوحي إليهِ من القرآن وأراد من هذا التدوين أن يترك بعدهُ كتاباً كاملاً، وأنه أراد ألا يتخلى عن تدوين النص القرآني في حياته كما حصل مع المسيح ﷺ، وإنما تمسك بالنص المنزَّل عليهِ وكان شديد الحرص على تدوينه تحريرياً[٢].

وكما نرى لا يوجد اتفاق واحد بين المستشرقين، بشأن حجم اعتماد التدوين القرآني في عصر النبوة، والاهتمام، وحرص النبي ﷺ على ذلك، وأرى أن التتبع التاريخي لتدوين النص القرآني خلال العصر النبوي، سيفضي في النهاية إلى معرفة مستوى وحجم حرص النبي ﷺ على حفظ النص القرآني وتدوينه، هل كان حرصاً حقيقيّاً ومستوفياً لإتمام الحفظ أم غير ذلك، عندها يمكن النظر إلى ما أُشيع من أن النبي ﷺ قد توفي وهو تارك الآيات، والسور القرآنية مفرقة بين الرقاع والعظام وسعف النخيل؟ واتخاذ موقف دقيق من ذلك.

بلا شك إن موضوع تدوين النص القرآني، وحجم الاهتمام بهِ، لهُ علاقة وثيقة ومتينة بموضوع جمع القرآن، والحرص على حفظهِ من الضياع، وإني لأستغرب من تأكيد المستشرق بلاشير وآخرين غيره، على عدم حرص النبي ﷺ على تدوين الآيات وكتابتها حال نزولها[٣]، على الرغم من أن الشواهد التي تخالف هذا المنطق كثيرة، ومتنوعة، فالكتابة عند ظهور الإسلام كانت معروفة، ومستعملة عند العرب عموماً، ولا سيما في مكة، والمدينة[٤]، وبظهور الإسلام، فإن الاهتمام بها والحرص على استعمالها، والتشجيع على تعلمها، كان واضحاً من خلال عدة آياتٍ وأحاديث منقولة عن رسول الله ﷺ.

---

(١) موريس بوكاي: القرآن الكريم والتوراة، ص ١٥٣، ١٥٤.

(٢) Hals, Der Islam, P. 160, 161.

(٣) Blachere, Introduction au Coran, P. 14, 15.

كذلك ينظر: التهامي نقرة: «القرآن والمستشرقون» جـ ١ ص ٤٠، ٤١.

(٤) ينظر: صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية، ص ٨٠، ٨١.

فعناية الله تبارك وتعالى نجدها ظاهرة واضحة من خلال تأكيد القرآن وجوب كتابة بعض الوثائق والعقود (كعقد الدَّيْن) كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ. . . وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ. . .﴾[1]. وعقد النكاح في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلۡيَسۡتَعۡفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغۡنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَٱلَّذِينَ يَبۡتَغُونَ ٱلۡكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَكَاتِبُوهُمۡ إِنۡ عَلِمۡتُمۡ فِيهِمۡ خَيۡرٗاۖ. . .﴾[2].

كما أن مواد الكتابة قد ذُكرت كثيراً في القرآن الكريم، فقد وردت لفظة القلم في قوله تعالى: ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ﴾[3] وقوله: ﴿ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾[4]، وقوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن شَجَرَةٍ أَقۡلَٰمٞ وَٱلۡبَحۡرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦ سَبۡعَةُ أَبۡحُرٖ مَّا نَفِدَتۡ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾[5]، وقوله جلَّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ﴾[6].

كما وردت لفظة الرق في قوله تعالى: ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ﴾[7]، ولفظة القرطاس في قوله: ﴿وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ . . .﴾[8]. وقوله: ﴿. . . قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ. . .﴾[9]. والمداد[10] في قوله تعالى: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾[11].

---

(١) سورة البقرة، الآية (٢٨٢).
(٢) سورة النور، الآية (٣٣).
(٣) سورة القلم، الآية (١).
(٤) سورة العلق، الآيتان (٣، ٤).
(٥) سورة لقمان، الآية (٢٧).
(٦) سورة آل عمران، الآية (٤٤).
(٧) سورة الطور، الآيات (١ ـ ٣).
(٨) سورة الأنعام، الآية (٧).
(٩) سورة الأنعام، الآية (٩١).
(١٠) (المداد): «المُدَّة، بالضم، اسم ما استمددت بهِ من المداد على القلم. . . والمِدادُ النفْسُ، تقول منه: مَدَّ الدواة وأمدَّها أيضاً وأمدْدتُ الرجل: إذا أعطيته مُدَّةً بقلم». ينظر: أبو بكر الرازي: مختار الصحاح، ص ٢٥٨.
(١١) سورة الكهف، الآية (١٠٩).

وقد أفادنا الدكتور صالح أحمد العلي بإحصائية دقيقة بكل ما يرتبط بالكتابة ومعانيها وألفاظها، فقد ذكر أن لفظة الكتاب المسطور وردت في السور والآيات الآتية: (الأحزاب/ ٦، الإسراء/ ٥٨)، ولفظة الألواح وردت في (الأعراف/ ١٤٥) ولفظة السجل الذي يطوي الكتب وردت في (الأنبياء/ ١٠٤)، ولفظة الصحف وردت (المدثر/ ٥٢)، ولفظة الصحف الأولى وردت في (سورة طه/ ١٣٣، والأعلى/ ١٨)، وصحف موسى في (النجم/ ٣٦)، وصحف إبراهيم وموسى في (الأعلى/ ١٩)، وعبارة أن القرآن الكريم كان في صحف مكرَّمة (عبس/ ١٣)، وتلاوة رسول الله ﷺ صُحُفاً مُطهَّرة (البيِّنة/ ٢)[١].

ويقول أيضاً: «ذكر فعل الكتابة بمعنى الأمر في ٢٦ آية، وفي المعنى الشائع لدينا في سبع آيات. أما كلمة «كتاب» فقد وردت في القرآن الكريم في ٢٩ آية، وورد ذكر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ في ٣٢ آية، ووردت كلمة «الكتاب» أو «الكتب» بمعنى الكتب المقدسة في الأديان السماوية في ٣٨ آية. . .»[٢].

ويعلِّق الخطيب البغدادي على آية الدين قائلاً: «فلما أمر الله تعالى بكتابة الدَّين حفظاً له، واحتياطاً عليهِ، وإشفاقاً من دخول الريب فيهِ، كان العلم، الذي حفظه أصعب من حفظ الدَّين، أحرى أن تباح كتابته، خوفاً من دخول الريب والشك فيهِ»[٣].

وهنا ألا تكفي هذهِ الآيات الكريمات، وما جاء فيها، للتدليل على العناية، والحرص الإلهي على قضية التدوين، والحفظ التحريري. ثم إن العناية المحمدية لا تختلف عن توجهات العناية الإلهية، فقد حث الرسول الكريم ﷺ على كتابة آيات القرآن، وسوره، إذ يروي أبو سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: (لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن)[٤]. ونلحظ الحرص

---

(١) صالح أحمد العلي: دراسات في تطور الحركة الفكرية، ص ٧٤، ٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٥.

(٣) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م): تقييد العلم، تحقيق يوسف الغش، ط ٢، (بلا ـ ١٩٧٤)، ص ٧١.

(٤) ينظر: الخطيب البغدادي: تقييد العلم، ص ٢٩ ـ ٣١؛ السجستاني: المصاحف، ص ٤.

المحمدي على ألَّا ينصرف المسلمون، إلَّا إلى القرآن في كتابته، وفي دراستهِ، وفهمهِ وحفظهِ، وما قصة فداء أسرى المشركين في معركة بدر، وإطلاق سراح من علَّم منهم عشرة صبيان مسلمين القراءة الكتابة[١]، إلا دليل أكيد على ذلك الحرص والاهتمام.

ثم إن هناك ما يشير إلى خوف النبي ﷺ من ضياع آيات القرآن أو تحريفها أو اختلاطها، بما يروى من الأحاديث، لذلك جاء نهيهُ الشريف عن ترك الكتابة لغير القرآن. فقد جاء في كتاب تقييد العلم[٢] أن رسول الله ﷺ قال: (ما أضلَّ الأمم من قبلكم إلا ما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله).

نعم لقد أدرك رسول الله ﷺ، أن التقصير بمسألة تدوين النص القرآني، ممكن أن يؤدي إلى ضياعهِ أو تحريفهِ، وعليهِ كان الحرص المحمدي شديداً، مذكِّراً المسلمين بإهمال وتقصير أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وما أصاب كتبهم من تحريف. فقد ورد في مسند أحمد[٣] رواية بهذا الشأن جاء فيها: «عن أبي أمامة الباهلي قال لما كان في حجة الوداع قال رسول الله ﷺ. . . : (يا أيها الناس خذوا من العلم قبل أن يقبض العلم وقبل أن يرفع العلم وقد كان أنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ﴾[٤]). قال فكنا نذكرها كثيراً من مساءلتهِ، واتقينا ذلك حين أنزل الله على نبيهِ ﷺ، قال فأتينا أعرابياً فرشوناه برداء. . . ثم قلنا لهُ: سل النبي ﷺ، قال: فقال له: يا نبي الله كيف يرفع العلم منا وبين أظهرنا المصاحف، وقد تعلمنا ما فيها وعلَّمناها نساءنا وذرارينا، وخدمنا؟! قال: فرفع النبي ﷺ رأسه وقد علت وجههُ حمْرةٌ من الغضبِ، قال فقال: (. . . هذهِ اليهود والنصارى بين أظهرهم المصاحف لم يصبحوا يتعلقوا بحرف مما جاءتهم بهِ أنبياؤهم)».

---

(١) ينظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٢، ص ٣٤.

(٢) الخطيب البغدادي: تقييد العلم، ص ٧٢، ٧٣.

(٣) الشيباني، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م): مسند أحمد، مؤسسة قرطبة، (مصر ـ لا. ت)، جـ ٢، ص ٦٥، ٦٦.

(٤) سورة المائدة، الآية (١٠١).

وبعد هذا القدر من الشواهد القرآنية وغير القرآنية على الحرص والاهتمام المحمدي النابع أصلاً من الحرص الإلهي على تدوين النص القرآني أولاً بأول والتوثيق من حفظه. فهل يجوز لقائل أن يقول إن رسول الله ﷺ قد أهمل تدوين القرآن وكتابتهِ في حياتهِ وإنهُ لم يبدِ حرصاً عليهِ، وإن الحرص تمثَّل بالحفظ الصدري من دون التحريري.

كتبة الوحي

لم يكن تأريخ دخول الخط العربي إلى البيئة المكية قديماً[(١)]، فقد تأخر نسبياً إلى وقتٍ قريبٍ من ظهور الدعوة المحمدية، ولذلك كان الخط العربي صناعة حديثة العهد في البيئة القرشية، لم يتعلمها سوى عدد قليل من أبناء مكة. ويرى الدكتور عبد الصبور شاهين أن بسبب هذهِ المعرفة المتأخرة كان الخط العربي في مكة رديئاً وقاصراً، وتجربة الكتبة الجدد تجربة ضعيفة، ولو كانت التجربة الجديدة قد انتقلت خلال عدة أجيال لحَسُن الخط العربي، ولاكتمل ما كان بهِ من نقص ولما ظهرت الحاجة إلى تجويده وضبطه، وهو ما حصل فعلاً عندما تطور المجتمع الإسلامي لاحقاً[(٢)].

وعلى أساس ما ذكرناه، فإن من يعرفون الكتابة في مكة كانت أعدادهم قليلة، ولأن النبي ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب، فقد اعتمد ﷺ في حفظ النص القرآني تحريرياً على مجموعة من الكتبة (وهم جماعة من صحابتهِ ممن كانوا عارفين بالقراءة والكتابة)، وممن ذكر من كتبة الوحي: علي بن أبي

---

(١) يورد السجستاني ثلاث روايات بشأن دخول الخط العربي في بيئة مكة، وهي:
أ ـ أن المهاجرين تعلموه (أي الخط) من الحيرة، وأن أهل الحيرة أخذوه عن أهل الأنبار.
ب ـ أن رجلاً يقال له بشر بن عبد الملك الكندي تعلمه من الأنبار، ثم وفد إلى مكة في بعض شأنه، فتزوج الصهباء بنت حرب بن أمية، وعلَّم أباها حرب بن أمية، وأخاها سفيان بن حرب، صناعة الخط.
جـ ـ أن مرامر بن مرة وسلمة بن حزرة هما اللذان وضعا هذا الكتاب، وهما من بولان، قوم من طيِّيء، كانوا يسكنون بقة (وهي قرية وراء الانبار). السجستاني: المصاحف، جـ ١، ص ٤، ٥.

(٢) ينظر: عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، ص ٦٧، ٦٨.

طالب عليه السلام، وعثمان بن عفان، وعمرو بن العاص بن أمية، وشرحبيل بن حسنة، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، والمغيرة بن شعبة، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وحنظلة بن الربيع، وأُبيُّ بن كعب، وجَهْيم بن الصلت وغيرهم[١]، وقد بلغ عددُ منْ كتبوا الوحي ثلاثة وأربعين كاتباً[٢].

لقد شكك المستشرق بلاشير بمصداقية كُتَّاب الوحي، من خلال موقف عبد الله بن أبي سرح، وهو أحد الكتبة، حين قال عنه: «وإذا كنا نستطيع أن نثق ببعضهم ثقة مطلقة، فماذا نقول في رجل كعبد الله بن أبي سرح، الذي ارتد وافتتن بأنه كان يكتب (غفوراً رحيماً) حيث كان النبي يملي عليه (عزيزاً حكيماً)»[٣].

ثم إن بلاشير يستبعد أن يكون التسجيل كاملاً لكل ما نزل من القرآن، إذ يقول: «حدث أن قامت استحالات مادية في سبيل تسجيل الوحي الهابط فجأة، في السفر، وفي الصلاة، وخلال الليل»[٤]، على الرغم من أنه قد بلغ كتبة الوحي الأربعين رجلاً[٥].

وأرى بأن عدد كتبة الوحي، وهو كبير جداً، قد بالغت المصادر التأريخية في تحديده، فحين نصفهم بكتبة الوحي، أي أنهم الملازمون لرسول الله ﷺ، المواظبون على كتابة ما ينزل عليه من القرآن، وإلا كيف تصح عليهم هذهِ التسمية.

وإذا ما أخذنا هذا المعنى بالحسبان، هو المعبر عن مفهوم «كتبة الوحي» عندها، لن يكون منطقيّاً ولا واقعيّاً أن يعتمد النبي ﷺ على أكثر من أربعين رجلاً لكتابة الوحي، ولا أستبعد أن يكون سعي المسلمين من أجلِ نيل شرف المشاركة في عملٍ عظيم مثل كتابة وحي الله تعالى، كان هاجساً لكل الصحابة أو لأبنائهم وأحفادهم في الحِقب اللاحقة من حياة الدولة

---

(١) أبو عبد الله الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٠.

(٢) عبد الصبور شاهين: تأريخ القرآن، ص ٥٣، ٥٤.

(٣) Blachere, Introduction au Coran, P. 12.

(٤) Ibid, P. 12.

(٥) Ibid, P. 12.

الإسلامية، وعلى هذا الأساس فمن الممكن أن تكون بعض الأسماء قد أُلحقت بقائمة كُتَّاب الوحي ليصل إلى هذا العدد الكبير.

وأجد نص المستشرق مونتجمري وات[١] قريباً من هذهِ الحالة، الذي يقول فيه: «فلا شك أن أحفاد رجل قد سكتوا فيما بعد عن معارضته لمحمد أو قللوا من شأنها، بينما ضخَّم أعداء هذا أو أعداء أحفاده هذهِ المعارضة»، وهذا مما ينطبق على بعض مَنْ عاصروا الرسول ﷺ، وكانوا من أشد المعارضين وأقساهم عليهِ وعلى المسلمين، كأبي سفيان بن حرب الذي تعدهُ كتب التأريخ من كتبة الوحي[٢]، وهو الذي ظل مكابراً معانداً لم يرضخ للإسلام إلا قبل سنوات قليلة جدّاً من وفاة الرسول الكريم ﷺ، فعلى أي أساس وُضِع ضمن قائمة كتبة الوحي؟ هذا دليل على أن القائمة الطويلة لكتبة الوحي، غير دقيقة وُضِع فيها بعض الأسماء لبعض الصحابة طلباً لنيل شرف هذا الدور وفضلهِ أمام مجتمع المسلمين.

النبي محمد ﷺ وجمع القرآن

يتحاشى المسلمون دائماً الخوض في تساؤل غايةً في الأهمية، ألا وهو: هل قام النبي محمد ﷺ بجمع القرآن قبل وفاته أم تركهُ مفرقاً بين رقاع، وعظام، وسعف نخيل؟ وهم في الغالب يكتفون بذكر الروايات الإسلامية المتعلقة بجمع القرآن من دون أية مناقشة، وتحليل موضوعي، أو الخوض الحقيقي في سبيل الإجابة على هذا التساؤل بوضوح.

وبعكس هذا التحاشي نجد المستشرقين يحللون، ويناقشون ومن ثم يضعون استنتاجاتهم الجريئة.

وقبل كل شيء يجب أن نحدد بدقة معنى جمع القرآن، هل المقصود به تدوينه وكتابته بشكل متسلسل الآيات والسور ووضعه في مكان واحد، أي بين الدفتين. فإذا كان هذا المعنى هو المقصود، فماذا عمل الرسول في حياتهِ: ألم يدوِّن الآيات والسور، ألم يضع ويرتب الآيات كلاً بحسب

---

(١) محمد في المدينة: ص ١٨٢.

(٢) ينظر: أبو عبد الله الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٠، ٢١.

مكانه، ألم يبدِ حرصه على حفظ القرآن من الضياع، فلماذا ننكر على النبي ﷺ هذهِ الحقيقة.

«ماذا كانت حالة القرآن الصحيحة عند وفاة محمد»[١]؟ هكذا تساءَل هاملتون جب وكالمرز، ثم أجابا قائلين: «هذا سؤال لا يمكن الإجابة عنه بيقين مطلق، شيء واحد مؤكد ومعترف بهِ «الأحاديث» والأخبار صراحةً. . . هو أنه لم يكن القرآن جُمعَ والنبي على قيد الحياة»[٢].

إذن اعتماد المستشرقين على أحاديث، وأخبار إسلامية تشير إلى أن النبي ﷺ لم يجمع القرآن في حياتهِ، هي الحجة في طعنهم بصحة النص القرآني، وهذا ما صرح بهِ جب وكالمرز فعلاً: «يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار إمكانية ضياع قدر طيب وخاصة من السور القديمة، قالوا: فآيات مثل: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ﴾ [الأعلى/ ٦، ٧] وما بعدها، أو ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة/ ١٠٦]، توحي بوضوح أن الأقوال المعنية لم تكن سجلت كتابةً»[٣].

ويحاول بعض من المستشرقين البحث في السبب الذي أدى بالنبي ﷺ إلى ترك هذهِ المهمة الخطيرة، فيقول بلاشير في هذا الشأن: «إن ميل الرسول وأصحابهِ إلى ترك الأمور على ما هي عليهِ يؤيده ما اشتهر بهِ العرب من أنهم لا يفكرون إلا في الحاضر ولا يهمهم المستقبل، وهذا الميل يقف وراء عزوف المسلمين عن جمع القرآن في عهدهِ، إذ لم تكن الحاجة ماسة إليهِ كما يؤيد ذلك عدم تعيين خليفة له»[٤].

ويذهب المستشرق كازانوفا في كتابه (محمد ونهاية العالم) إلى أبعد من ذلك حين يقرر اعتقاد النبي محمد ﷺ بأن نهاية العالم قريبة جدّاً، ولهذا لم يبدِ النبي ﷺ أي اهتمام للمواضيع المهمة، كجمع القرآن، والبت بأمر الخلافة من بعد وفاتهِ[٥].

---

(١) جب وكالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ ٢، ص ٨٠٨.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٤) Blachere, Introduction au Coran, PP. 16 - 26.

(٥) ينظر: التهامي نقرة: القرآن والمستشرقون، جـ ١، ص ٤٢، ٤٣.

وأجدُ من الأولى أن نُعرِّف بدقة، ما المقصود بجمع القرآن كي نقرر بعدها ما قام النبي ﷺ بهِ وما لم يقم. فجمع القرآن وبحسب ما نفهم يعني حفظهُ شفهيّاً، وكتابته تحريريّاً، ووضع الآيات، والسور كلٍّ بحسب مكانها، والاحتفاظ بها في مكانٍ أمين.

فإذا كان هذا هو المعنى الصحيح لجمع القرآن، فالنبي الكريم ﷺ هو الأولى من كل أحد في أن نخصَّه بجمع القرآن، وببساطة نستطيع الوصول إلى هذهِ الحقيقة، إذا ما استعرضنا دور النبي ﷺ في جمع القرآن.

فالحرص المحمدي، بل المبالغة في الحرص كان واضحاً في قول الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[1]، هذا الحرص الظاهر من أجل الحفظ الشفهي لآيات القرآن، مخافة أن يضيع منها شيءٌ، ومن الطبيعي أن يتبع هذا الحرص الشفهي، حرصٌ آخر يتمثل بحفظ القرآن تحريريّاً (أي كتابةً).

ففيما يتعلق بكتابة القرآن، روي عن أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال: (لا تكتبوا عني شيئاً سوى القرآن)[2]، وهو تأكيد على الاهتمام بالقرآن من دون سواه. ويفيدنا الخطيب البغدادي في كتابهِ (تقييد العلم) بمجموعة من الروايات الدالة على حرص النبي ﷺ على تدوين وكتابة القرآن، وتشجيع الصحابة على ذلك ونهيهم عن تدوين غيره. فعن أبي هُريرة قال: (خرج علينا رسول الله ﷺ ونحن نكتب الأحاديث فقال: ما هذا الذي تكتبون، قلنا: أحاديث نسمعها منك، قال: كتابٌ غير كتاب الله! أتدرون ما ضل الأمم قبلكم؟ ألا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله تعالى)[3].

وهذه الرواية لا تؤكد الحرص المحمدي على كتابة القرآن فحسب بل وتعلل هذا الحرص بالخشية من أن يصيب كتاب المسلمين، القرآن الكريم، مثل ما أصاب كتب اليهود، والنصارى من التحريف، والتزوير، والاختلاط. وإذن فالرسول الكريم ﷺ كان يستفيد من أخطاء الأمم السابقة، التي بيَّنها لهُ

---

(١) سورة القيامة، الآيتان (١٦، ١٧).

(٢) الخطيب البغدادي: تقييد العلم، ص ٢٩ ـ ٣١.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤.

الخالق عز وجل في كتابهِ العزيز، ولذلك كان حرص النبي ﷺ على تدوين القرآن كبيراً مثلما هو كبير في الحفظ الشفهي.

وكما هو معروف فإن القرآن ظلَّ ينزل على مدى مراحل الدعوة، أي لما يقرب من ثلاثة وعشرين عاماً، وقد اتفقنا مسبقاً على أن ذلك النزول كان يقابلهُ النبي ﷺ بالحفظ الشفهي أولاً، ومن ثم بالحفظ التحريري، فضلاً عن هذا فإن النبي ﷺ كان يستعمل كتبة الوحي في كتابة الآيات ويأمرهم بوضع الآيات كلٍّ بحسب موضعها، وهذا ما أكدهُ زيد بن ثابت(١)، مما يعني أن الترتيب القرآني هو من عمل النبي ﷺ وعلى عهده. وإلى جانب ما نقل عن زيد بن ثابت بهذا الصدد، قول ابن عباس: «كان رسول الله ﷺ أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبرئيل، وكان جبرئيل عليه السلام يلقاه كل ليله في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليهِ النبي ﷺ القرآن»(٢). وفي حديث للسيدة فاطمة بنت محمد صلوات الله وسلامه عليها وعلى أبيها قالت: «أسَرَّ إلي النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني القرآن كل سنة، وأنَّهُ عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضور أجلي»(٣).

وعلى أساس هذه المعارضة (التي تعني المراجعة الدورية السنوية) التي كان يقوم بها رسول الله ﷺ مع الأمين جبريل عليه السلام لكل ما نزل من آيات القرآن، وسورهِ، ألا يحق لنا أن نستنتج منها مسألتين مهمتين:

أولاً: على الرغم من كل ما ذكرناه من حرص النبي ﷺ الكبير على الحفظ الشفهي والتحريري للقرآن، نتلمس الحرص الإلهي على هذا الحفظ، من خلال المراجعة السنوية، التي تكررت مرتين في السنة الأخيرة من حياة النبي ﷺ. فإذن هو حرص محمدي نابع أساساً من الحرص الإلهي، ومن

---

(١) قوله: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع». ينظر: الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٧؛ السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٣، ١٦٤.

(٢) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م): صحيح البخاري، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٨٦)، جـ ١، ص ٢٨٧.

(٣) المصدر نفسه: جـ ٤، ص ١٩١١؛ الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٢؛ أحمد بن شعيب النسائي (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م): فضائل القرآن، تحقيق فاروق حمادة، دار إحياء العلوم، ط ٢، (بيروت ـ ١٩٩٢)، جـ ١، ص ٧١، ٧٢.

ثم فهذه النتيجة تتقاطع تماماً مع فكرة أن النبي ﷺ توفي وهو لم يجمع القرآن.

ثانياً: المراجعة السنوية كانت مفيدة أيضاً فيما يتعلق بالترتيب القرآني، ترتيب الآيات، والسور كلٌ بحسب موقعهِ، ولأن النزول لم يكن واحداً، لذلك تعددت المراجعات دوريّاً، وجاء هذا التسلسل على وفق الإرادة الإلهية من دون شك وعلى يدي الرسول الكريم ﷺ وفي عهدهِ.

إن حفظ القرآن، بكل أشكال الحفظ قد نال حيزاً مهمّاً من عناية وانصراف النبي ﷺ، وانصرافه إليه، فمن الإجحاف بحق النبي الكريم ﷺ أن لا نَعدَّ ما قام بهِ من الحفظ الشفهي لنصوص القرآن ومن ثم تدوينها تحريريّاً، وترتيب مواقع الآيات وتسلسل السور، والحرص والتأكيد المحمدي الشديد على ذلك كلهِ، أن لا نَعدَّهُ جمعاً للقرآن!!!

ويؤيد قولنا هذا صاحب كتاب (التأريخ الجغرافي للقرآن) حين يقول مبتدئاً: «زعم بعض المستشرقين الذين تصدوا لترجمة القرآن أو الكتابة عنه أن سور القرآن، وآياتهِ ظلت مبعثرة، ومفككة في حياة الرسول ﷺ ثم جمعت بعد وفاتهِ تحْت رحمة الإسنادات الشفوية للصحابة مما يجعل أصل القرآن محلّاً للقيل والقال. . . فليس من الحقيقة في شيء أن يقال إن آيات القرآن وسوره قد جمعت بعد وفاة الرسول ﷺ»[١]. ويحدد دور أبي بكر وعثمان عليهما السلام أنهُ لم يكن بأكثر من مواصلة الحفاظ على النص القرآني المجموع أصلاً في عهد النبي ﷺ، حين يقول: «ولم يفعل الخليفة أبو بكر بعد وفاتهِ (أي وفاة النبي ﷺ) أكثر من تبويب السور، وتنظيمها بوحي من توجيهات وأوامر الرسول وحده، ولما جاء الخليفة الثالث عثمان بن عفان نشر نسخة رسمية للقرآن كانت في الواقع صورة مطابقة كل المطابقة لنسخة أبي بكر الموضوعة بتوجيه وإشراف وإذن وموافقة الرسول»[٢]. ثم يخلص إلى القول الآتي: «مرَّ جمع الآيات القرآنية في كتاب واحد في ثلاث

---

(١) سيد مظفر الدين نادفي: التأريخ الجغرافي للقرآن، ترجمة عبد الشافي غنيم عبد القادر، لجنة البيان العربي، (مصر ١٩٥٦)، ص ٤.

(٢) المصدر نفسه: ص ٤، ٥.

مراحل: المرحلة الأولى الجمع، وقد تمت كلها في عهد الرسول. والمرحلة الثانية التنسيق (في كتاب)، وقد تمت في عهد أبي بكر بالتماس من عمر بن الخطاب. والمرحلة الثالثة مرحلة الإلزام أو النشر، وقد تمت في عهد الخليفة عثمان»[١].

جامعو القرآن على عهد النبي ﷺ

مما لا شك فيه أن يتبع حرصَ النبي ﷺ على حفظ النص القرآني، حرصٌ مماثلٌ لدى الصحابة ممن يعرفون الكتابة والقراءة، وقد نتج عن هذا أن وجدنا رصيداً آخر، فضلاً عما جمعه الرسول الكريم ﷺ، ألا وهو مدونات تخصُّ الصحابة أنفسهم، وهي إنما تمثل رصيداً آخر يجري في حساب حفظ النص القرآني من الضياع.

وعلى الرغم من أن المصادر الإسلامية لم تسعفنا إلا بعدد قليل لمن جمعوا القرآن الكريم في عهد النبي ﷺ، إلا أن المهم في الأمر أنها أكدت الجمع من قبل عدد من الصحابة.

لقد جمع القرآن بعض الصحابة كاملاً على عهد النبي ﷺ، وبعض منهم بدأ بجمع القرآن وأكمله بعد وفاة النبي ﷺ. فقد جاء في كتاب الفهرست[٢] أن مَن جمع القرآن على عهد النبي ﷺ هم: علي بن أبي طالب عليه السلام، وسعد بن عبيد[٣]، وأبو الدرداء[٤]، ومعاذ بن جبل[٥]، وأبو

(١) نادفي: التأريخ الجغرافي للقرآن، ص ٥.

(٢) محمد بن إسحاق أبو الفرج النديم (ت ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م): الفهرست، دار المعرفة، (بيروت ـ ١٩٧٨م)، ص ٤١.

(٣) هو سعد بن عبيد بن النعمان بن قيس عمرو بن زيد الأنصاري، أحد جامعي القرآن على عهد رسول الله ﷺ، قتل يوم القادسية سنة ١٥هـ وهو بعمر ٦٤ عاماً. ينظر: الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٤.

(٤) هو أبو الدرداء عويمر بن زيد، كان يقال لهُ حكيم هذه الأمة، تلقى القرآن عن النبي ﷺ وحفظه وكتبه، تأخر إسلامه عن بدر، وأبلى بلاءً حسناً يوم أُحد. أخى رسول الله بينهُ وبين سلمان، وتولى القضاء في الشام، وتوفي سنة ٣٢هـ. ينظر: محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م): معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار، تحقيق بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، (بيروت ـ ١٤٠٤هـ)، جـ ١، ص ٤١.

(٥) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، استشهد بالطاعون في منطقة بالغور سنة ١٨هـ، =

زيد ثابت[١]، وأُبَيُّ بن كعب[٢]، وعبيد بن معاوية[٣]، وزيد بن ثابت[٤].

وقد وافقهُ البخاري في أربعة منهم، في إحدى رواياتهِ. فقد روى عن قتادة قال: «سألت أنس بن مالك: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ فقال: أربعة كلهم من الأنصار: أُبَيُّ بن كَعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»[٥].

وفي موضع آخر روى مسروق فقال: «سمعت النبي ﷺ يقول: خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبَيِّ بن كعب»[٦].

وفي الإتقان ورد أن الجامعين خمسة: معاذ، وعبادة بن الصامت[٧]،

= وله ٣٥ سنة تقريباً. ينظر: الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٤، ٢٥.

(١) هو ثابت بن زيد الأنصاري، وهو أبو زيد، يقال إنهُ جمع القرآن على عهد النبي ﷺ، وقيل: الجامع للقرآن هو أبو زيد سعد بن عبيد بن النعمان، والراجح هو الأول. ينظر: الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٤، ٢٥.

(٢) هو أُبَيُّ بن كعب بن قيس أبو المنذر الأنصاري الخزرجي، أَقْرَأُ الصحابة بعد علي عليه السلام وسيد القرّاء، قرأ القرآن على النبي ﷺ وجمع بين العلم والعمل، توفي بالمدينة سنة ٢٢هـ، شهد بدراً والمشاهد كلها، ومناقبه كثيرة، قال عنه رسول الله ﷺ: (أقرؤهم أُبَي بن كعب). ينظر: الذهبي: معرفة القرّاء، جـ ١، ص ٢٩.

(٣) هو عبيد بن معاوية، وقيل: عبيد بن معاذ، وقيل: عتيك بن معاذ الجزري. ينظر: الزنجاني: تأريخ القرآن، ص ٢٥.

(٤) هو زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد بن لوذان أبو خارجة الأنصاري الخزرجي البخاري، كتب الوحي لرسول الله ﷺ وحفظ القرآن وأتقنهُ وأحكم الفرائض وتعلم بأمر النبي ﷺ السريانية. توفي، على رواية الواقدي، في سنة ٤٥هـ؛ وقيل ٥٤هـ؛ وقيل ٥٥هـ. ينظر: الذهبي: معرفة القرّاء، جـ ١، ص ٣٨.

(٥) البخاري: صحيح البخاري، جـ ٤، ص ١٩١٣؛ السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٤٤؛ النسائي: فضائل القرآن، جـ ١، ص ٧٩، الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٤٠.

(٦) البخاري: صحيح البخاري، جـ ٤، ص ١٩١٢؛ السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ٧٢؛ محمد بن سعد: الطبقات الكبرى، جـ ٢، ص ٣٥٦؛ النسائي: فضائل القرآن، جـ ١، ص ٨٠.

(٧) هو عبادة بن الصامت بن قيس أخزم الأنصاري الخزرجي، أحد جامعي القرآن، =

وأُبَيُّ بن كعب، وأبو الدرداء، وأبو أيوب الأنصاري[(١)].

وعن الشعبي قال: «جمع القرآن على عهد رسول الله ﷺ ستة من الأنصار: أُبَيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، ومعاذ بن جبل، وأبو الدرداء، وسعد بن عبيد، وأبو زيد»[(٢)].

وعن محمد بن سيرين أن القرآن جُمعَ على عهد النبي ﷺ من قِبَل علي ابن أبي طالب عليه السلام، وأُبَيِّ بن كعب[(٣)].

من هذه الروايات المتعددة، يتضح أن عدداً من الصحابة قد تصدوا لجمع القرآن خلال العهد النبوي، وهذا بحد ذاتهِ يبعد الفكرة المتداولة عند بعضهم من أن النبي نفسه كان قد ترك أمر جمع القرآن في حياتهِ، ليتولى هذا الأمر من بعدهِ الخليفة الأول أبو بكر.

روايات جمع القرآن بعد وفاة النبي ﷺ

إن عدم وضوح الروايات الإسلامية في تحديد زمن جمع القرآن بالضبط، واختلافها وحصول التناقض في كثير من معطياتها، قد جعل من موضوع جمع القرآن من الموضوعات المهمة التي يتذرع بها القائلون بتحريف النص القرآني، وإصابته بالزيادة أو النقصان.

إن مصدر هذه الشبهة البليغة هو زعمهم بأن جمع القرآن كان بأمر من الخليفة الأول أبي بكر رضي الله عنه، بعد أن قتل أربعمائة رجل في حرب اليمامة، فكانت الخشية من ضياع القرآن وذهابهِ من أيدي المسلمين، فتصدى عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت لجمعهِ من العسب، والرقاع، واللخاف، ومن صدور

= أرسله عمر بن الخطاب إلى الشام بعد تحريرها، شهد بدراً، وقيل كان أحد النقباء بالعقبة، وشهد باقي المشاهد كلها بعد بدر، تولى القضاء في فلسطين، وتوفي سنة ٤٥هـ. ينظر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م): الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، (بيروت ـ ١٩٩٢)، جـ ٣، ص ٣٢٦.

(١) السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ٧٢.

(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ٧٢؛ الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٤١.

(٣) السجستاني: المصاحف، ص ١٠؛ الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٤١.

المسلمين بشرط أن يشهد شاهدان على أنهُ من القرآن. هذا قسم مما صرحت بهِ تلك الروايات، ولنستعرض تفاصيل هذهِ الروايات:

أولاً: روى زيد بن ثابت فقال: «أرسل إليَّ أبو بكر، مقتل أهل اليمامة، وعنده عمر، فقال أبو بكر: إن عمر أتاني فقال: إن القتل استحرَّ يوم اليمامة بالناس، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بالقرَّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن إلا أن تجمعوه، وإني لأرى أن تجمع القرآن. قال أبو بكر: قلت لعمر: كيف أفعل شيئاً لم يفعلهُ رسول الله ﷺ؟ فقال عمر: هو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيهِ حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد بن ثابت: وعمر جالس لا يتكلم. فقال أبو بكر: إنكَ رجل شاب عاقل، ولا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ، فَتَتَبَّعْ القرآن فاجمعهُ. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل عليَّ مما أمرني بهِ من جمع القرآن. قلت: كيف تفعلان شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ فقال: هو والله خير. فلم يزل أبو بكر يراجعني حتى شرح الله صدري، للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، فقمت فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والأكتاف، والعسب، وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة الأنصاري، لم أجدهما مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ إلى آخرها. كانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر»[1].

ثانياً: روى ابن شهاب عن سالم بن عبد الله، وخارجة بن زيد: «أن أبا بكر الصديق كان قد جمع القرآن في قراطيس، وكان قد سأل زيد بن ثابت النظر في ذلك فأبى حتى استعان بعمر ففعل، فكانت الكتب عند أبي بكر حتى توفي، ثم عند عمر حتى توفي، ثم كانت عند حفصة زوج النبي ﷺ،

---

(١) ينظر: البخاري: صحيح البخاري، جـ ٤، ص ١٩٠٧؛ أحمد بن حنبل: مسند أحمد، جـ ١، ص ١٠؛ محمد بن عيسى أبو عيسى الترمذي السلمي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م): سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، (بيروت - لا. ت)، جـ ٥، ص ٢٨٣؛ النسائي: فضائل القرآن، جـ ١، ص ٧٥؛ الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٣.

فأرسل إليها عثمان أن تدفعها، حتى عاهدها ليردَّنَّها إليها، فبعثت بها إليهِ، فنسخ عثمان هذه المصاحف ثم ردها إليها فلم تزل عندها»(١).

ثالثاً: روى هشام بن عروة عن أبيه قال: «لما قتل أهل اليمامة أمر أبو بكر عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت، فقال: اجلسا على باب المسجد، فلا يأتينكما أحد بشيءٍ من القرآن تنكرانه يشهد عليهِ رجلان إلَّا أثبتماه، وذلك لأنه قتل باليمامة ناس من أصحاب رسول الله ﷺ قد جمعوا القرآن»(٢).

رابعاً: وروي أيضاً: «أن عمر بن الخطاب سأل عن آية من كتاب الله. فقيل: كانت مع فلان فقتل يوم اليمامة. فقال: إنا لله. وأمر بالقرآن فَجُمعَ، فكان أول من جمعهُ في المصحف»(٣).

خامساً: عن محمد بن سيرين: «قُتِل عمر ولم يجمع القرآن»(٤).

سادساً: روى يحيى بن عبد الرحمٰن بن حاطب قال: «أراد عمر بن الخطاب أن يجمع القرآن فقام في الناس، فقال: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن فليأتنا بهِ. وكانوا كتبوا ذلك في الصحف والألواح، والعسب، وكان لا يقبل من أحد شيئاً حتى يشهد شهيدان، فقُتِل وهو يجمع ذلك إليهِ، فقام عثمانٍ، فقال: من كان عنده من كتاب الله شيءٌ فليأتنا بهِ. وكان لا يقبل من ذلك شيئاً حتى يشهد شهيدان، فجاءه خزيمة بن ثابت، فقال: إني قد رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. قالوا: ما هما؟ قال: تلقيت من رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ...﴾ إلى آخر السورة. فقال عثمان: وأَنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: أختم بهما آخر ما نزل من القرآن. فختمت بهما براءة»(٥).

سابعاً: وعن محمد بن سيرين قال: «لما توفي النبي أقسم عليٌّ أن لا

---

(١) السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٤.

(٢) ينظر: المصدر نفسه، جـ ١، ص ١٠٠.

(٣) المصدر نفسه، جـ ١، ص ١٦٦؛ السجستاني: المصاحف، ص ١٠.

(٤) ينظر: السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٧؛ الغزي: إتقان ما يحسن من الأخبار، جـ ١، ص ١٩٤.

(٥) ينظر السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٠١؛ الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٤.

يرتدي برداء إلا لجمعه (حتى يجمع القرآن) في مصحف ففعل، فأرسل إليهِ أبو بكر بعد أيام قائلاً: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، إلا أني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعهِ. فبايعه ثم رجع»[١].

ثامناً: ويذكر السيوطي أغرب ما قيل عن أول جمع للقرآن قال: «ما أخرجه ابن اشته في كتاب المصاحف، عن ابن بريدة قال: أول من جمع القرآن في مصحف سالم، مولى أبي حذيفة، أقسم لا يرتدي برداء حتى يجمعه، فجمعه. . .»[٢].

وأعتقد أن الأمر لا يحتاج إلى عناء كبير لأجل إدراك التناقضات الواردة ما بين الروايات الإسلامية هذهِ، وغيرها مما لم نذكره. ولو التفتنا إلى نقطة واحدة فقط مما تناقضت عليهِ، ألا وهي: من أول من جمع القرآن؟.

لقد وجدنا أن الرواية الأولى، والثانية، والثالثة قد اجتمعت على أن أول من جمع القرآن هو الخليفة الأول أبو بكر، في حين أن الرواية الرابعة قد أكدت أن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب هو أول من جمع القرآن، وعلى العكس من ذلك أشارت الروايتان الخامسة، والسادسة إلى أن خلافة عمر ابن الخطاب انقضت من دون أن يكمل جمع القرآن، وأن الخليفة الثالث عثمان بن عفان هو أول جامع للقرآن، وهكذا اختلف باقي الروايات عن ما سبق.

المستشرقون وروايات الجمع

إن تناقض الروايات الإسلامية هذه، واختلافها، قد أفضت إلى المستشرقين بفرصةٍ كبيرة، للبحث في خلفيات هذهِ التناقضات ومن ثم الوصول إلى فرضيات تشكك بمصداقية النص القرآني، ولا تستبعد أن يكون النص القرآني قد تعرض للنقص أو التغيير في ظل أجواء الجمع التي رسمتها رواياتنا الإسلامية المتناقضة؛ وهذهِ جُملة مما قاله المستشرقون في هذا الصدد:

المستشرق الألماني نولدكه في كتابه (تأريخ القرآن) يقول: «لم يتم جمع

(١) ينظر: اليعقوبي: تاريخ، جـ ٢، ص ١٥٢ ـ ١٥٤؛ ابن النديم: الفهرست، ص ٤٨.

(٢) ينظر: السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٩.

القرآن خلال زمن الرسول بصورة كاملة. . . ولو افترضنا وفق ما ادعى زيد ابن ثابت بأن القرآن لم يكن قد جُمعَ، فهنا افتراض آخر يطرح نفسه هو: من أين جاءت مضامين نسخة أبي بكر»[١].

ثم يحاول أن يُعَرِّف «جمع القرأن» الجمع الذي ينسب في أغلب الروايات إلى الخليفة الأول أبي بكر، ويقول: «فإن مصطلح (جمع القرآن) المستعمل هناك لا يعبر عن توحيد الأوحية المبعثرة في كتاب واحد، وإنما يعبر عن ما حُفِظَ في الذاكرة منه. . . وعلى وفق هذا الرأي فيمكن الاستدلال فيما لو أن جامعي القرآن يحفظون في أذهانهم جميع الأوحية أو أغلبها، أم لا. . . فإن مسألة حفظ القرآن غيباً كانت المسألة الرئيسة في جميع العصور، وتم الاعتماد بهذا الشأن على تناقل الأوحية بشكل مكتوب وصولاً إلى الهدف المبتغى»[٢].

ثم يشير نولدكه إلى ما حملتهُ روايات جمع القرآن من تناقضات واضحة، واختلافات، قائلاً: «عندما ظهر عمر في الروايات السائدة على أنه أول جامع مفكر للقرآن، فإن أبا بكر ظهر على أنهُ القائد التقني لهذا بحكم مركزه حينها. . . إلا أن هناك روايات أُخرى متباينة، فإحداها تقول: إن عمر هو أول من جمع القرآن على الورق. . . وعلى وفق (لرواية أخرى) إن عمر توفي قبل جمع القرآن، وفي مكان آخر نجد تفصيلات مختلفة حول الجمع الأول للقرآن»[٣].

وعلى أساس هذه التناقضات، لا يخفي نولدكه وغيره من المستشرقين، اعتقادهم بأن عملية جمع النصوص القرآنية قد حدث فيها شيء من النقص أو التغيير[٤].

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 5.
وهذا التساؤل نفسه يطرحه المستشرق جون جلكرايست: جمع القرآن، ص ١٥، كتاب مأخوذ من الأنترنت على الموقع
WWW. an - swering - islam. org/Arabic/ Gilchrist/ jam.

(٢) Noldeke, Geschichte, V. 2, P. 6.

(٣) Ibid, V. 2, P. 14, 15.

(٤) Ibid, V. 2, P. 23, 24; Winter, Der Koran, p. 7.

ونجد المستشرق جون جلكرايست في كتابه (جمع القرآن) يبحث بدقة في كل صغيرة، وكبيرة وردت ضمن الروايات الإسلامية المتعلقة بجمع القرآن الكريم، ففي الوقت الذي يرى فيه أن الإسلاميين المتأخرين يحاولون التأكيد على أن القرآن قد جمع في ظل ظروف مثالية، ولكنه لا يجد هذا التأكيد مرتكزاً على أية نصوص قديمة، وأصلية للبرهنة عليهِ(١).

ثم يحاول البحث في معطيات الرواية السائدة والقائلة بأن الخليفة الأول أبا بكر هو أول الجامعين، ويبدأ قائلاً: «الروايات الرسمية التي تحاول أن تظهر لنا أن المشروع الذي قام بهِ أبو بكر بخصوص جمع القرآن هو الأهم، والوحيد الذي تم بعد وفاة محمد، وحاول العلماء بعد ذلك أن يدعموا هذه الفكرة مدعين أن زيداً كان الشخص الوحيد المؤهل للقيام بالمهمة. . . ويذهب العلماء المسلمون أبعد من هذا إذ يزعمون أن المصحف كما تم جمعه كان صورة طبق الأصل لما جاء بهِ محمد، لم يزد فيه حرفاً ولا كلمة ولا نقطة ولم يفقد منه أي شيء»(٢).

ثم يقول: «فكرة أن زيداً اعتمد على ما كان متناثراً في ذاكرات الصحابة، وجب أن تؤدي إلى بعض النتائج المنطقية التي لا مفر منها. هناك احتمال ضياع أجزاء من النص لأن هذا الأخير لم يكن مجموعاً في كتاب واحد بل كان متناثراً بشكل واسع. . . المثال الأفضل الذي وجب تقديمه بخصوص هذه المسألة يتجلى في الحديث الآتي الذي يؤكد بوضوح أن أجزاء من القرآن فُقدت نهائياً إثر مقتل بعض الحفَّاظ من الصحابة في معركة اليمامة»(٣).

ويشير المستشرق جلكرايست هنا إلى ما ذكرهُ أبو داود السجستاني بشأن مقتل عدد كبير من العلماء حفظة القرآن في معركة اليمامة(٤)، قوله: «عن ابن شهاب قال: بلغنا أنه أُنزل قرآن كثير فقُتِل علماؤه يوم اليمامة الذين كانوا قد وعوه فلم يُعْلَمْ بعدهم ولم يُكْتب، فلما جمع أبو بكر، وعمر وعثمان القرآن ولم يوجد مع أحد بعدهم»(٥).

(١) جلكرايست، جمع القرآن، ص ١٧.
(٢) المصدر نفسه، ص ١٨.
(٣) المصدر نفسه، ص ١٨، ١٩.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٩.
(٥) السجستاني: المصاحف، ص ٢٣.

ثم يعلق جلكرايست على الحديث قائلاً: «لا يمكن تجاهل كون الحديث يستعمل أسلوب النفي بوضوح: «لم يعلم»، «لم يكتب»، و«لم يوجد» تأكيد ثلاثي على أن هذه الأجزاء من القرآن التي كان يحفظها قرَّاء اليمامة فقدت بدون رجعة. في المقابل يظهر أنه من الصعب تصور أية زيادة أو تغيير في القرآن بعد وفاة محمد، لأن أجزاء النص كانت موجودة بطريقة متناثرة عند الصحابة لكن إمكانية ضياع بعض الأجزاء من النص تبقى واردة»[١].

وهكذا فإن المستشرق جلكرايست لم يتوصل، إلا إلى القول بفقدان أجزاء من القرآن، واستبعاد العناية الإلهية التي تكفلت بحفظه وصيانتهِ مثلما يصرح بذلك: «وكنتجة حتمية. . . إن ما توقعناه من نتائج بخصوص جمع كتاب كالقرآن أمر تدعمه النصوص التأريخية خلافاً للفرضية القائلة بأن الحفاظ على الكتاب تم بفضل العناية الربانية دون أدنى نقصان أو تغيير. . . وإمكانية فقدان بعض أجزاء النص واردة في أحاديث نبوية تبين بعضها أن محمداً كان هو نفسه عرضة لنسيان بعض أجزاء القرآن»[٢].

وفي الموسوعة الإسلامية الميسرة، أُثيرت نقاط مهمَّة بشأن رواية جمع القرآن في عهد الخليفة الأول أبي بكر، جاء فيها: «إن أول شيء يلفت النظر في هذهِ القصة انعدام الإشارة إلى الصورة الرسمية التي نسخت بأمر النبي نفسه، وإن كانت تقلل على الأقل من الخطر الذي هدد بهِ موت القرَّاء. وعلاوةً على هذا لفت كايتاني، المستشرق الإيطالي. . النظر إلى أن الذين قُتلوا في الحرب مع مسيلمة كانوا في الأصل من حديثي العهد بالإسلام، على ما تُبيِّن القوائم التي وصلت إلينا، وما كان يمكن أن يتوقع من أي واحد منهم أن يكون على علم واسع بالقرآن»[٣].

ويتكرر التأكيد في الموسوعة أيضاً عن تناقضات روايات الجمع: «إذا كانت القصة كلها غير مؤكدة يصبح من الأهم أن نلاحظ أن هناك أحاديث أُخرى تقول إن عمر نفسه هو الذي أمر بالجمع وأشرف عليهِ. . بل ويقال

---

(١) جلكرايست: جمع القرآن، ص ١٩.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) هامتلون جب وكالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة: جـ ٢، ص ٨١٠.

لنا حقاً. . . إن عمر مات قبل إتمام المهمة»[١].

ولا نجد المستشرق بلاشير في كتابه (المدخل إلى القرآن) بعيداً عن هذهِ التوجهات الاستشراقية، فمنذُ البدء يتساءل عن أسباب ترك النبي محمد ﷺ هذا المشروع المهم (مشروع جمع القرآن)[٢]، وما يلبث أن يجيب قائلاً: «لا يمكن اليوم الإجابة عن هذا السؤال إلا عن طريق الفرضيات»[٣]. فهو يقدم هذه الفرضيات محاولاً الوصول إلى سبب منطقي على أقل تقدير يسوِّغ ترك هذا المشروع.

فيرى في الفرضية الأولى أن الله تبارك وتعالى قد تكفل بحفظ القرآن وجمعه على وفق ما جاء في النصوص القرآنية، ولأن هذا التكفل يرتبط بعقيدة المسلمين وثقتهم التامة لم يَقُم النبي ﷺ بهذا العمل[٤].

أما الفرضية الثانية، فيشير بلاشير فيها إلى الروح العربية التي لا تعير أي أهمية للمستقبل، ويؤكد طابع هذه الروح التي يراها قد تجلت في أهم مشروعين في حياة المسلمين:

الأول: عدم التفكير والاهتمام بمشروع جمع القرآن في حياة النبي ﷺ.

الثاني: عدم الاهتمام بتحديد طريقة ملائمة لاختيار خليفة للنبي ﷺ[٥].

على أساس هذين المثالين، يؤكد بلاشير على طبيعة الروح العربية التي لا تميل إلى المستقبل وإنما تكتفي بالحاضر فقط، ويتناول في بحث دقيق التناقضات التي وردت في رواياتنا الإسلامية، ولا سيما فيما يخص بأول من جمع القرآن[٦].

منهج زيد في جمع القرآن

لا يمكن تصور وسائل عمل زيد بن ثابت في جمعه للقرآن، إلا من خلال المعطيات القليلة التي زودتنا بها المصادر الإسلامية، وحتى هذه

---

(١) هاملتون جب وكالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ ٢، ص ٨١٠.

(٢) Blachere, Introduction au Coran, P. 25.

(٣) Ibid, P. 25.

(٤) Ibid, P. 25.

(٥) Ibid, P. 25, 26.

(٦) Ibid, P. 27 - 37.

المعطيات، على الرغم من قلتها، فقد احتوت على بعض التناقضات، والفجوات، التي استغلها بعض المستشرقين، لتأكيد قضية ضياع بعض القرآن. فمما جاء في الروايات عن عمل زيد بن ثابت من جمع القرآن:

أولاً: روى هشام بن عروة عن أبيه قال: «لما قتل أهل اليمامة أمر أبو بكر عمر بن الخطاب، وزيد بن ثابت، فقال: اجلسا على باب المسجد، فلا يأتينكما أحد بشيءٍ من القرآن تنكرانه يشهد عليهِ رجلان إلاَّ أثبتماه، وذلك لأنهُ قُتلَ باليمامة ناسٌ من أصحاب رسول الله ﷺ قد جمعوا القرآن»(١).

ثانياً: وروى الليث بن سعد قال: «أول من جمع القرآن أبو بكر، وكتبه زيد، وكان الناس يأتون زيد بن ثابت فكان لا يكتب آية إلا بشهادة عدلين، وإن آخر سورة براءة لم توجد إلا مع أبي خزيمة بن ثابت فقال: اكتبوها فإن رسول الله ﷺ جعل شهادته بشهادة رجلين، فكتب ، وإن عمر أتى بآية الرجم فلم نكتبها لأنهُ كان وحدهُ»(٢).

ثالثاً: عن ابن شهاب قال: «أخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد ابن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف، قد كُنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فَالتمسناها فوجدنا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾(٣)»(٤).

رابعاً: وروى خزيمة بن ثابت قال: «جئتُ بهذه الآية: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ. . .﴾ إلى عمر بن الخطاب وإلى زيد بن ثابت، فقال زيد: من يشهد معك؟ قُلت: لا واللّهُ ما أدري. فقال عمر: أنا أشهد معه ذلك»(٥).

خامساً: وروى زيد بن ثابت قال: لما كتبنا المصاحف فقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ فوجدتها عند خزيمة بن ثابت ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ. . .﴾ إلى ﴿تَبْدِيلًا﴾، وكان خزيمة يُدعى ذا

(١) السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٢.
(٢) المصدر نفسه، جـ ١، ص ١٦٣. (٣) سورة الأحزاب، الآية (٢٣).
(٤) السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٣، الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٤.
(٥) الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٧.

الشهادتين أجازَ رسول الله ﷺ شهادته بشهادة رجلين»[١].

ونجد المستشرق جلكرايست يرتكز على موقف زيد المتردد من القيام بهذهِ المهمة، ومدى صعوبة هذا العمل، محاولاً الربط بين ما جاء في الرويات الإسلامية من وصف لدقيق زيد، وبحثه، وتقصيه عن الآيات القرآنية وجمعها، وبين ما جاء من وصف لإمكانيات زيد في حفظ القرآن وإتقانهِ، فيقول جلكرايست[٢]: «إن تردد زيد إزاء المهمة التي أسندت إليه كان سببهُ من جهة كون محمد نفسه لم يهتم بجمع القرآن، ومن جهة أُخرى ضخامة المشروع، هذا ما يُظهر أن المهمة لم تكن بالسهلة بتاتاً. فإذا كان زيد يحفظ القرآن جيداً ويعرفه بأكمله عن ظهر قلب ولا يجهل أي جزء منهُ. . . فإن عملية جمع القرآن لن تكون إلا سهلة». وهذا ما يراه جلكرايست خلاف ما جاء في رواية جمع القرآن في عهد أبي بكر[٣].

عند هذا يصل جلكرايست إلى ما يرمي إليهِ ويقول: «لم يعتمد زيد على ذاكرة الرجال بل اعتمد كذلك على ما كان مكتوباً. . . والتجأ إلى كثير من الصحابة وإلى جميع المواد التي كانت أجزاء من القرآن مكتوبة عليها. . . كان هذا تصرف رجل يعي كل الوعي أن النص القرآني كان متناثراً في عدة أماكن لدرجة أنهُ وجب جمع كل ما أمكن جمعهُ من أَجل الحصول، قدر المستطاع، على نص كامل نسبيّاً»[٤].

ولم يخفِ المستشرق بلاشير تساؤلاتهِ في هذا الموضوع، وكان على رأسها: «لماذا لم يختر إلا زيداً؟»[٥]. نعم لقد أكد على سبب اختيار

---

(١) السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٢.

(٢) جلكرايست: جمع القرآن، ص ١٥؛ ينظر كذلك: Desai, Maulana, The Quraan Unimpeachable, (South Africa - 1987), P. 25.

(٣) «فعوض عن أن يعتمد فقط على ذاكرتهِ مباشرةً نجده يبحث عن النصوص في مختلف المصادر «فتتبعت القرآن أجمعه من العسب واللخاف وصدور الرجال حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره. . .». جلكرايست: جمع القرآن، ص ١٦.

(٤) جلكرايست: جمع القرآن، ص ١٦.

(٥) Desai, the Quraan Unimpeachable, p. 18.

الخليفة الأول أبي بكر لزيد بن ثابت في مهمة جمع القرآن، وتساءل أيضاً عن مقدار ما شكل حفظة القرآن الذين سقطوا في معركة اليمامة، من خطر وتهديد على عملية نقل القرآن؟[١].

وبعد جُملة من التساؤلات يُصرح قائلاً: «كما نرى، كل شيء ليس واضحاً بشكل مطلق في أحداث هذا الجمع الأول للقرآن من قبل زيد بن ثابت»[٢]. عندها يصل إلى اتهام زيد بزيادة نصوص من الوحي لم تكن موجودة ضمن مدونات الرسول ﷺ، التي كانت الأساس المُعتمَد عليهِ في عملية الجمع تلك، فيقول: «إذن، زيد جمع ثم نسخ على (أوراق) ربما على الرق، كل النصوص المكتوبة سابقاً. . . وإلى هذهِ النصوص زاد مقاطع من الوحي، التي ما زالت ذاكرة بعض المؤمنين محتفظة بها فقط»[٣].

في ظل ما استعرضناه من نصوص لرواياتنا الإسلامية وبعض تعليقات المستشرقين بشأنها، نلحظ أن التناقضات التي تضمنتها تلك الروايات، كانت السبب في ما وصل إليه الفكر الاستشراقي من الاعتقاد بأن النص القرآني قد وقع فيه التحريف.

ويجب أن ندرك تماماً أن الموروث الإسلامي قد ساهم بشكل كبير بترسيخ الاعتقاد الاستشراقي الساعي أصلاً لبث الشك، والريبة في النص القرآني، ويجب أن نعترف أيضاً بأننا كمسلمين لم نتعامل مع هذا الموروث بجدية، بعيداً عن العاطفة الدينية التي تصل في بعض الأحيان إلى حد التعصب والتطرف المبالغ فيه.

---

(١) Blachere, Introduction au Coran, p. 32.

(٢) Ibid, P. 32, 33.

(٣) Ibid, p. 32.

الفصل الرابع

طعون المستشرقين في النص القرآني

- الخليفة عثمان بن عفان وتوحيد المصاحف.
- المستشرقون وإجراءات الخليفة عثمان بنسخ المصحف.
- الآيات والسور التي أثار المستشرقون حولها الشبهات.
  - ما تسمى بـ (سورة النورَيْن).
- الرد على مزاعم المستشرقين

طعون المستشرقين في النص القرآني

لا ينفك المستشرقون كلما أتاحت لهم رواياتنا الإسلامية الفرصة من الطعن بسلامة النص القرآني، وقد رأينا كيف أن تلك الروايات كانت متناقضة، وغير متفقة بشأن جمع القرآن الكريم، ولذلك كانت عملية الجمع في نظر المستشرقين غير خالية من الهفوات التي أدت إلى ضياع بعض القرآن.

ويحاولون أيضاً تأكيد الطعن بسلامة النص القرآني من خلال البحث في خلفيات الإجراء المهم الذي قام بهِ الخليفة الثالث عثمان بن عفان، المتمثل بإعادة جمع القرآن ليكون نسخة رسمية لا يُقبل معها بالاحتفاظ أو بقراءة غيرها من مصاحف الصحابة جامعي القرآن.

الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه وتوحيد المصاحف

لقد تولى عثمان بن عفان الخلافة سنة أربع وعشرين من الهجرة النبوية الشريفة، وكانت قراءة القرآن ودراسته تتم على وفق قراءة الأمصار، ومن الطبيعي أن لا تكون تلك القراءات المتعددة والمتباعدة قراءة واحدة. فقد جاء في الروايات أنهُ في سنة (٣٠هـ)[1] توجه حذيفة بن اليمان ومعه سعيد ابن العاص إلى أذربيجان، فأقام سعيد حتى عاد حذيفة من بعض أسفاره، ثم رجعا إلى المدينة، وفي الطريق قال حذيفة لسعيد بن العاص: «لقد رأيت في سفرتي هذه أمراً، لئن تُرِكَ الناسُ ليختلفُنَّ في القرآن، ثم لا يقومون عليهِ أبداً. قال: وما ذاك؟ قال: رأيت أناساً من أهل حمص يزعمون أن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، وأنهم أخذوا القرآن من المقداد، ورأيت أهل دمشق يقولون: إن قراءتهم خير من قراءة غيرهم، ورأيت أهل الكوفة يقولون مثل ذلك، وإنهم قرؤوا على ابن مسعود، وأهل البصرة يقولون مثل ذلك، وإنهم

(١) يرى السيوطي بأن تنفيذ هذا القرار (أي قرار نسخ المصحف الإمام) بأمر الخليفة الثالث عثمان بن عفان، كان في سنة (٢٥هـ). الإتقان، جـ ١، ص ١٠٢.

قرؤوا على أبي موسى، ويسمون مصحفه (لباب القلوب). فلما وصلوا إلى الكوفة أخبر حذيفة الناس بذلك وحذرهم ما يخاف، فوافقه أصحاب رسول الله ﷺ وكثير من التابعين، وقال له أصحاب ابن مسعود: ما تنكر؟ ألسنا نقرؤه على قراءة ابن مسعود؟ فغضب حذيفة ومن وافقه، وقالوا: إنما أنتم أعراب فاسكتوا فإنكم على خطأ. وقال حذيفة: والله إن عشت لآتينَّ أمير المؤمنين، ولأشيرنَّ عليهِ أن يحول بين الناس وبين ذلك. فأغلظ لهُ ابن مسعود، فغضب سعيد وقام، وتفرق الناس، وغضب حذيفةُ، وسار إلى عثمان فأخبره بالذي رأى، وقال: أنا النذير العريان، فأدركُوا الأمة. فجمع عثمان الصحابة وأخبرهم الخبر، فَأعظموه، ورأوا جميعاً ما رأى حذيفة، فأرسل عثمان إلى حفصة بنت عمر: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها، وكانت هذه الصحف هي التي كتبت في أيام أبي بكر[١].

ومثلما يبدو الاختلاف في القراءة، وليس في النص، إذ إن تعليم المسلمين قراءة القرآن، كانت في كل مصر تتم بناءً على قراءة المعلم، وهكذا كلما تعدد المعلمون تعددت القراءات. وقد أوضحت نصوص متعددة حجم هذه الاختلافات، فالسجستاني[٢] يقول ضمن هذا السياق: «فتذاكروا القرآن، فاختلفوا فيه، حتى كاد يكون بينهم فتنة». وفي نصٍّ آخر يقول: «لما كان في خلافة عثمان جعل المعلم يعلِّم قراءة الرجل، والمعلم يُعَلِّم قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين. قال أيوب: لا أعلمه إلا قال: حتى كفر بعضهم بقراءة بعض، فبلغ ذلك عثمان فقام خطيباً فقال: أنتم عندي تختلفون فيهِ فتلحنون، فمن نأى عني من الأمصار أشد فيه اختلافاً وأشد لحناً، اجتمعوا يا أصحاب محمد واكتبوا للناس إماماً»[٣].

---

(١) ينظر: البخاري: صحيح البخاري، جـ ٤، ص ١٩٠٨؛ ابن الأثير: الكامل في التأريخ، جـ ٣، ص ٨؛ السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٦٤؛ الزركشي: البرهان، جـ ١، ص ٢٣٦.

(٢) السجستاني: المصاحف، جـ ١، ص ٢١.

(٣) الطبري، محمد بن جرير (ت: ٣١٠هـ/ ٩٢٢م): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٨٤م)، جـ ١، ص ٢١؛ السجستاني: المصاحف، جـ ١، ص ٢١، ٢٢؛ السيوطي: الإتقان، جـ ١، ص ١٠٢، ١٠٣.

وكذلك جاء: «إن ناساً كانوا بالعراق يسأل أحدهم عن الآية، فإذا قرأها قال فإني أكفر بهذه، ففشا ذلك في الناس، واختلفوا في القرآن»[١]. وفي رواية أُخرى: «كان الرجل يقرأ حتى يقول الرجل لصاحبه: كفرت بما تقول»[٢].

وواضح ما تشير إليهِ هذه النصوص أن خطراً كبيراً تعرض لهُ النص القرآني. انتهى هذا الخطر بتحذير حُذيفة بن اليمان، وقرار الخليفة عثمان بن عفان بنسخ مصحفٍ إمام تُفرض قراءته على جميع الأمصار، ويكون ذلك بالاعتماد على مجموعة من مُجيدي القراءة والكتابة من حفظه القرآن، وصحابة الرسول ﷺ. واستكمالاً لما طرحتهُ رواياتنا من صورة لهذا الحديث المهم، جاء في إحدى الروايات: «فأرسل عثمان إلى حفصة: أن أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليكِ. فأرسلت بها حفصة إلى عثمان فأمر زيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان: إذا اختلفتم فاكتبوه بلسان قُريش، فإنما نزل بلسانهم. ففعلوا، فلما نسخوا المصاحف ردها عثمان إلى حفصة وأرسل إلى كل أفق بمصحف، وحرق ما سوى ذلك»[٣].

ولقد نال عمل عثمان هذا قبول الصحابة وموافقتهم، إلا عبد الله بن مسعود، الذي اعترض على حرق مصحفهِ، وكان هذا جوهر اعتراض ابن مسعود، مثلما نقلت المصادر[٤]، الذي رجع عن موقفهِ هذا فيما بعد، كما يقول ابن أبي داود السجستاني[٥].

المستشرقون وإجراءات الخليفة عثمان رضي الله عنه بنسخ المصحف

نبتدىء بتعليقات المستشرق جون جلكرايست، صاحب كتاب جمع

---

(١) السجستاني: المصاحف، جـ ١، ص ٢٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢٥.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التأريخ، جـ ٣، ص ٨.

(٤) ينظر: محمد بن سعد البصري الزهري، (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م): الطبقات الكبرى، دار صادر، (بيروت، لا. ت)، جـ ٢، ص ١٠٥.

(٥) المصاحف: جـ ١، ص ١٥.

القرآن، الذي عُني في فصول عدَّة من كتابهِ بما قام بهِ الخليفة عثمان، والدوافع الحقيقية إلى هذا الإجراء المهم المتعلق بكتاب المسلمين الاول، ألا وهو القرآن الكريم، طارحاً بعض التناقضات الواردة في رواياتنا ضمن سياق هذا الموضوع.

في البدء يتساءل جلكرايست عن منزلة المصحف الذي جمع بأمر أبي بكر، هل كان مخصصاً بالخليفة أم كان الغرض جعله مصحفاً رسميّاً للمسلمين[١]. ثم يقول: «للإجابة عن هذه الأسئلة يجب أن نحقق في ما وقع لهذا المصحف بعد جمعه»[٢]، ثم يشير إلى ما جاء عند البخاري من أن المصحف كان عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر في حياته ثم عند حفصة بنت عمر[٣]، ويقول: «هؤلاء الثلاثة الذين تناقلوا المصحف في بداية الأمر كانوا كلهم شخصيات ذات مكانة عالية... لكن على الرغم من كل هذا فليس هناك أدنى شك أن هذا المصحف لم يُعْطَ له أي طابع رسمي في عهديهما»[٤].

ومن هذا يصل جلكرايست إلى استنتاج خطير جدّاً يقول فيه: «لو كان أبو بكر، وعمر يعلمان علم اليقين أن المصحف كان مكتملاً لتم فرضه على مجموع المسلمين في الحين»[٥].

ثم يواصل بحثه لدعم ذلك الاستنتاج الخطير، إذ ينتقل إلى إجراءات الخليفة عثمان فيقول: «حين انتقلت الخلافة إلى عثمان كانت المصاحف الأخرى تكتسح الميدان في مناطق الدولة الإسلامية الناشئة كافة، في الوقت الذي كان فيه مصحف زيد يرقد في بيت إحدى زوجات محمد. لقد جُمع هذا المصحف بأمر رسمي من الخليفة أبي بكر بدون أن يُعط لهُ في أي وقت من الأوقات أي طابع رسمي»[٦].

ويركز جلكرايست في الاختلافات الواردة ما بين نسخ المصاحف الشخصية لبعض الصحابة وبين النسخة التي جمعها زيد بن ثابت، وهذهِ

---

(١) جلكرايست، جمع القرآن، ص ٢٣.
(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٣) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) المصدر نفسه، ص ٢٤.
(٥) المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

الاختلافات يراها جلكرايست هي التي أدت إلى اختلاف القراءات بين المسلمين في الأمصار الإسلامية، وليس كما هو شائع بين المسلمين من أن الاختلاف في القراءات ناتج من طريقة التلفظ لا بسبب شكل النص[١]

الرؤية الإسلامية هذه ينتقدها بشدة جلكرايست حين يقول: «هذا النوع من الاستدلال يستند كلياً إلى مقدمات فاسدة لأن التلاوة، والتلفظ، والترتيل ليست لها علاقة سوى بالنص المنطوق ولا يمكن للاختلافات بخصوصها أن تظهر في النصوص المكتوبة لكن عثمان أمر بإتلاف نصوص مكتوبة؛ يجب كذلك أن لا ننسى أنهُ في الحقبة التي كان يُجمع فيها القرآن على شكل مصاحف لم تكن الكتابة العربية مشكولة ولا الحروف مُنقطة، لذلك فالاختلافات لم تكن لتظهر في النصوص المكتوبة. فلماذا إذن قام عثمان بحرقها؟ هناك جواب منطقي واحد لهذا السؤال ألا وهو أن الاختلافات كانت في النصوص ذاتها وليس فقط طريقة نطقها»[٢].

ويركز جلكرايست على حرق الخليفة عثمان لمصاحف الصحابة والأسباب الكامنة وراء هذا العمل فيقول: «هذه هي المصاحف التي أمر عثمان إحراقها... فإذا لم تكن فيما بينها اختلافات عميقة فلماذا قرر عثمان إحراق ما كان عزيزاً على كل المسلمين الذين يعدونه كلام الله المنزل على رسولهِ؟ لا يمكن قبول الطريقة التي يحاول بها علماء الإسلام المعاصرون تبرير ما قام بهِ عثمان، وعلى الخصوص إذا افترضنا... أنهُ لم تكن هناك أبداً اختلافات بين النصوص. ماذا سيعتقد المسلمون لو قام أحد في عصرنا هذا بإحراق مصاحف عزيزة على قلوبهم؟ ليس هناك إلا تفسير واحد لكل ما جرى ألا وهو وجود اختلافات نصية عميقة بين المصاحف استوجب معها حل واحد وهو الاحتفاظ بأحدها وتنحية المصاحف الأخرى»[٣]. وبالشك والريبة نفسها يظهر المستشرق وليم كامبل (William Campbell) صاحب كتاب (القرآن والكتاب المقدس في نور التاريخ والعلم) من موضوع حرق الخليفة عثمان المصاحف ويعقب على ذلك قائلاً: «وإني أسأل القارىء

---

(١) جلكرايست، جمع القرآن، ص ٢٨. (٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٩.

المسلم: على أي أساس تبرهن لنفسك أنه لم يحدث تحريف لفظي لنصوص القرآن؟»[١].

ثم يعود جلكرايست إلى التصريح بعدم سلامة النص القرآني من التعديلات التي كانت على يدي الخليفة عثمان، على الرغم من أن المصحف الأصلي الذي جمع في عهد الخليفة الأول، كان على قدر كافٍ من الكمال، وكان كافياً أن ينسخ في عهد عثمان دون أية حاجة إلى إعادة جمعهِ وتصحيحه كلما تطلب الأمر ذلك. ويستند جلكرايست في هذا التصريح إلى ما جاء في رواية للبخاري من قول الخليفة عثمان لأعضاء اللجنة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في عربية من عربية القرآن فاكتبوها بلسان قُريش[٢].

وبشأن ما جاء في الروايات من العثور على آية قرآنية كانت مفقودة، وجدت عند خزيمة بن ثابت، يقول جلكرايست: «المعطيات المتوافرة لا تمكننا من إصدار أية استنتاجات حول هذا الموضوع، فقط نستغرب من كون زيد لم يكتشف فقدان آية من القرآن إلا بعد مرور ١٩ سنة على وفاة محمد وبمحض الصدفة يكون قد وجدها عند الصحابي نفسه الذي وجد عنده الآيتين الأخيرتين من سورة براءة! لقد رأينا سالفاً أن خزيمة هذا هو الذي أثار انتباه زيد إلى عدم وجود آيتين من سورة براءة. فإذا كان هناك نص آخر فُقِدَ ولم يوجد إلا معه فلماذا بقي صامتاً ولم يتحدث عنهُ خلال هذه المدة الطويلة»[٣].

عند هذا يصل جلكرايست إلى نتيجة خطيرة يقول فيها: «إذا كانت هذه الرواية صحيحة (وهي كذلك بالنظر إلى معيار الصحة الذي يقدمه لنا علم الحديث) فإنها توضح بما لا يدع مجالاً للشك أن المحاولة الأولى لزيد بن ثابت لجمع مصحف مكتمل لم تكن ناجحة مائة بالمائة، حيث لم تُضف الآية من سورة الأحزاب إلا بعد الانتهاء من نسخ المصاحف خلال المحاولة الثانية التي تمت في عهد عثمان. يتبين لنا الآن أن ما يقال عن

---

(١) William Campbell, The Quran and the Bible in the light of history and science, (London - 2002), P. 75.

(٢) جلكرايست: جمع القرآن، ص ٣٠. (٣) المصدر نفسه، ص ٣١.

الكمال المطلق للقرآن وخلوهِ من الزيادة، والتحريف، والاختلاف لا يمكن أن يثبت ويصمد أمام البراهين الثاقبة، فما هو إلا نتاج للمشاعر والمتمنيات لا يمت بصلة إلى الإثبات العقلي»(١).

ونعود إلى المستشرق نولدكه الذي يركز على أعضاء لجنة الجمع وبعض ما واجهوه من صعوبات، وهو ينبه قبل كل شيء على ضرورة تفحص الروايات الموجودة بين أيدينا بأمانة وصدق، بعدما وجد أن الروايات السابقة المتعلقة بالجمع الأول للقرآن كانت متباينة وقد اتخذ منها موقفاً سلبياً تمثَّل بالرفض(٢).

بعد أن يستعرض نولدكه سِيَرَ أعضاء اللجنة، لا يخفي رأيهُ بزيد بن ثابت، الذي يجدهُ ملائماً لهذهِ المهمة كونه شخصاً كفؤاً، محاولاً الوصول من ذلك الاستعراض إلى أسباب اختيار هؤلاء الأشخاص، هل كان بحسب الكفاءة؟ أم لأسباب أُخرى، كصلة القرابة بالخليفة أو غيرها من الأسباب(٣).

ثم ينتقل إلى ما واجهتهُ اللجنة من صعوبات، تطلب الأمر منهم اتخاذ قرارات مهمة: «فعلى سبيل المثال عندما أراد زيد كتابة (تابوه)(٤) بالهاء، بينما البقية كتبوا (تابوت) بالتاء، أوضح عثمان أن الصيغة الأخيرة هي لسان قُريش. . . . إن هذا الرأي خاطىء بالتأكيد. إن هذا المثال تم اختياره. . . لأن كلمة تابوت ليست عربية الأصل، وإنما كلمة دخيلة»(٥).

ونولدكه شأنه شأن باقي المستشرقين المتخصصين بتأريخ القرآن الكريم،

---

(١) جلكرايست: جمع القرآن، ص ٣٢.

(٢) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 54.

(٣) Ibid, P. 55, 56.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة/ ٢٤٨]، وقولهُ تعالى: ﴿أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه/ ٣٩].

(٥) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 57.

يولي عنايةً ببعض الآيات التي كانت مفقودة ووجدت عند خزيمة بن ثابت، حين يقول: «اتفقت جميع الشخصيات المذكورة في الروايات الحالية على أنهُ في البداية كانت قد فقُدت الآية (٢٣) من سورة الأحزاب، لكنها وجدت بعد ذلك عند خزيمة. ووفقاً لتفسير الطبري الجزء الأول/ ص ٢٠، فقد فُقدت هذه الآية عند الجمع الأول للنص... بينما اكتشفت نهاية السورة التاسعة عند خزيمة في الجمع الثاني»(١).

وتُماثل رؤية المستشرق بلاشير رؤية زميله جلكرايست من خلال الرؤية التي يطرحها في هذا الموضوع، فهو يجد أنهُ في الوقت الذي تولى فيهِ أبو بكر الخلافة، أخذ يفكر في تكوين مصحف يضم المجموعات المتناثرة من النصوص القرآنية، ولكن النص الذي جُمعَ على وفق مبادرة أبي بكر بقي ذا طابع شخصي ولا يبدو أنهُ قد تميز من غيره من النصوص التي جمعها صحابة آخرون(٢).

ويجد بلاشير أن الخطوة الحاسمة قد تمت بعد عشرين عاماً في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ، ويقول عن هذهِ الخطوة: «إذ أقبلوا... على جمع نص جديد أُقيم على أساس أوسع... وكان المنطلق مصحف أبو بكر، فضموا إليهِ مقطوعات مبعثرة أو محفوظة غيباً فقط، وتم أخيراً إخراج مصحف رسمي قصد الخليفة إحلالهُ محل جميع المصاحف الخاصة... ومع ذلك فإن مصحف عثمان بقي غير مكتمل في جوانب كثيرة منهُ»(٣).

ويبحث المستشرق الأمريكي المتخصص آرثر جفري في دوافع الخليفة عثمان للقيام بهذا العمل، فيقول: «زعم بعض العلماء أن عثمان إنما أخذ من حفصة النص الرسمي الذي كتبهُ زيد بن ثابت لأبي بكر، ونسخ هذا النص الرسمي بلغة قريش لأن العرب كانوا يقرؤون القرآن بلغات مختلفة، وقال آخرون إن عثمان إنما أتم ما ابتدأ بهِ عمر بن الخطاب من جمع القرآن»(٤).

ثم يعلق بشأن هذين الرأيين قائلاً: «نحن نرتاب ونشك في هذين الرأيين لأن ما أدى إليهِ بحثنا في أحاديث جمع القرآن هو أن اختلاف مصاحف

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 60.

(٢) بلاشير: القرآن نزولهُ، ص ٣٠.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٠، ٣١.

(٤) ينظر: مقدمته لكتاب السجستاني: المصاحف، جـ١، ص ٧.

الأمصار كان سبباً في أن عثمان أمر زيد بن ثابت بتأليف ما في أيدي أهل المدينة من القرآن، لا على أن يكون هذا الجمع والتأليف مصحفاً لأهل المدينة فقط، كما كانت نسخة ابن مسعود مصحفاً لأهل الكوفة، ونسخة أبي موسى مصحفاً لأهل البصرة، بل جمعه ليكون المصحف الرسمي لجميع أمصار الإسلام»[١].

ولا تجد الموسوعة الإسلامية الميسرة أن النص العثماني هو نص مقبول، فقد جاء فيها: «على الرغم من أن مصحف عثمان غلب على منافسيه، إلا أنهُ لم يوفر للعالم الإسلامي نصّاً مقبولاً حقيقيّاً،... وحتى عثمان نفسه، على ما جاء في الروايات، لم يلتزم بالنص الذي اعتمدهُ ولكنهُ تلا الآية ١٠٤ من سورة آل عمران[٢] مع إضافة غير موجودة فيه الآن، وإذا صح هذا فلا عجب أن تصرَّف غيره بحرية أكبر. لقد أسهمت ظروف شتى في التغييرات المستمرة في صورة النص»[٣].

لقد استقر المستشرقون على أن التحريف قد أصاب القرآن الكريم، وتمثَّل هذا بما أفردتهُ دائرة المعارف الإسلامية الألمانية من عنوان صريح وواضح هو «التحريف»، وبقلم المستشرق بول (Bull)، الذي أكد في هذا المقال على أن القرآن كان مكتوباً، ولكن المسلمين قاموا بتغيير الصيغ القرآنية المكتوبة مسبقاً، إلى صيغ أُخرى، ولا سيما تلك التي يرد فيها ذكر اليهود[٤]، وأعتقد أن عنوان المقال كافٍ لإدراك التصور الاستشراقي المتعلق بالقرآن الكريم.

الآيات والسور التي أثار المستشرقون حولها الشبهات

قبل أن نتعرض إلى الآيات، والسور التي يثير المستشرقون حولها الشبهات، لا بد أن ندرك نقطة مهمة ألا وهي أن هؤلاء المستشرقين لا

---

(١) السجستاني: المصاحف، جـ ١، ص ٧.

(٢) قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

(٣) هاملتون جب وكالمرز: الموسوعة الإسلامية الميسرة، جـ ٢، ص ٨١٩، ٨٢٠.

(٤) ينظر: بول: «التحريف» مقال منشور في دائرة المعارف الإسلامية الألمانية، ترجمة عبد الحميد يونس وآخرين، (القاهرة ـ ١٩٣٣)، جـ ٤، ص ٦٠٤ ـ ٦٠٨.

يؤمنون بسلامة النص القرآني، والملفت للنظر أن ذلك مرتبط بالثغرات الكثيرة التي حوتها رواياتنا الإسلامية (روايات جمع القرآن)، فمنها ما يشير إلى وجود نقص، أو حصول تعديل على النص، وبالتالي فالمستشرق، وإن لم يكلف نفسهُ القيام بالتحقيق بشأن هذه الرواية أو تلك، يبني نتائج بحثه على ما هو موجود في تراثنا، ثم إن المسلمين من متخصصين وغير متخصصين، لم يبادروا للقيام بعمل جدي يكون من شأنهِ تصفية هذهِ الروايات، والبحث في مصادرها وحقيقة منشئها والطعن بكل ما هو غير سليم، أو ما يسيء إلى سلامة النص القرآني، لا بل تُرك هذا الموضوع على الرغم من أهميتهِ بكل ما يحمل تراثنا من تناقضات، واختلافات بشأنهِ، ترك إلى المستشرقين ودراساتهم التي مهما بلغت من الموضوعية، والحيادية، فهي لن تصل إلى ما يتوافق مع معتقداتنا بكوننا مسلمين.

أصبح من الواضح الآن أن غالبية المستشرقين يجدون في النص القرآني، أنهُ نصٌّ محرَّف، وقع فيهِ التحريف ليس في زمن الخليفة الأول أبي بكر فقط، وإنما في زمن الخليفة الثالث عثمان بن عفان أيضاً.

فمن الآيات التي يثيرون حولها الشبهات، هي الآية (١٣٨)[١] من سورة آل عمران، وارتباط الآيات (٣٥)[٢] من سورة الأنبياء، و(٥٧)[٣] من سورة العنكبوت بها، التي يرى المستشرق فايل (G. Weil) بأن ما جاء فيها يتعارض مع ردة فعل عمر بن الخطاب الذي لم يصدق موت النبي ﷺ أول مرة، حتى تغيرت ردة فعلهِ بعد أن قرأ عليهِ أبو بكر الآية (١٣٨) من سورة آل عمران، والآية (٣٠)[٤] من سورة الزُّمَر اللتين يجدهما فايل قد جعلتا من وفاة النبي ﷺ حقيقة واضحة، تلك الحقيقة التي جعلت عمر وبقية المسلمين يندهشون كما ولو كانوا لم يسمعوا بهذهِ الآيات من قبل[٥].

وهنا يشير فايل إشارة واضحة إلى أن هذه الآيات إنما هي إضافات

(١) قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

(٢) قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

(٣) قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾.

(٥) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 82.

ارتجالية وضعها أبو بكر، لم يستطع أحد أن يرفعها على الرغم من كونها نصوصاً غير أصلية من القرآن[١].

وتبدو آراء فايل هذه غير منطقية وغير مقبولة عند نولدكه حين يقول: «أما آراء فايل فتناقض كل ما هو معروف لدينا من أفكار عن حياة النبي محمد، لأنهُ ليس هناك ما يؤكد بأن محمداً ترك صحابته بشيءٍ من الشك حول موتهِ»[٢]، مُشيراً نولدكه ليس فقط إلى الآيتين (١٣٨) من سورة آل عمران، و(٣٠) من سورة الزُّمَر اللتين توضحان فكرة وفاة النبي محمد ﷺ، وإنما أيضاً إلى الآيات (١٨٥)[٣] من سورة آل عمران، و(٥٧) من سورة العنكبوت، و(٣٤)[٤] من سورة لُقمان[٥].

أما المستشرق الألماني الآخر هرشفيلد (H. Hirschfeld) فقد جاء بدعوى جديدة، وهي أن جميع النصوص القرآنية التي يرد فها اسم محمد هي غير أصلية (أي إنها غير قرآنية)، وأشار إلى الآيات (٤٠)[٦] من سورة الأحزاب، و(٢)[٧] من سورة محمد، و(٢٩)[٨] من سورة الفتح[٩].

وأضاف لدعواه بأن محمداً هو ليس الاسم الحقيقي للنبي وإنما هو مصطلح سماوي (ديني)، وقد اتفق معهُ في هذا الرأي كل من المستشرق الألماني شبرنجر (A. Sprenger) والمستشرق الألماني بيتكه

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 82, 83.

(٢) Ibid, P. 83.

(٣) قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَـٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾.

(٥) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 83.

(٦) قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾.

(٧) قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾.

(٨) قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ . . .﴾.

(٩) Noldeke, Geschichte des Qorans, P. 83.

(Fr. Bethae)[١]، والمستشرق الإيطالي كايتاني (Leone Caetani).

في حين فنَّدَ نولدكه هذا الكلام الذي وجدهُ ضعيفاً، لا يستند إلى حجج قوية: «خاصةً وأنهُ ليس هناك أدنى شك من أن اسم محمد هو اسم شائع الاستعمال حتى قبل إسلام العرب»[٢].

ننتقل بعد ذلك إلى حادثة الإسراء والمعراج، التي يقف منها عدد كبير من المستشرقين موقفاً سلبيّاً، فالمستشرق فايل ينكر صحة الآية (١)[٣] منها فيقول: «اختلفت هذهِ الآية بعد موت محمد، وربما ضمت للقرآن منذُ عهد أبي بكر. إن المسرى العجيب للرسول إلى القدس لا يمكن أن يدعيه محمد لِنفسهِ، وهذا ما يؤكد القرآن عليهِ ويشدد على براءتهِ من هذا الادعاء كونه كان بمثابة واعظ (خطيب) ومُحذر، وليس صاحب مُعجزات»[٤]. ويشير في نهاية النص للآية (٧)[٥] من سورة الرَّعد لكونها تنفي حصول المعجزات للرسول الكريم ﷺ.

وخارج نطاق النصوص القرآنية، يعتمد المستشرقون على مجموعة من الروايات الإسلامية (رغم ضعفها) للاستدلال على أن القرآن ناقص أو قد جرى عليه التعديل بين عهدي الخليفة الأول أبي بكر والخليفة الثالث عثمان بن عفان[٦]، ومن ذلك ما يشير إليه المستشرق جون جلكرايست في رواية وردت في كتاب موطأ مالك جاء فيها عن أبي يونس مولى السيدة عائشة قوله: «أمرتني عائشة أن أكتب لها مصحفاً، ثم قالت: إذ بلغت هذه الآية فآذني ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾[٧] فلما

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qorans, P. 84.

(٢) Ibid, P. 84.

(٣) قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

(٤) Noldeke, Geschichte des Qorans, V. 2, P. 85.

ينظر كذلك: واشنطن إيرفينج: محمد وخلفاؤه، ترجمة هاني يحيى نصري، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء ـ ١٩٩٩)، ص ١٦٧ ـ ١٨٠.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾.

(٦) جون جلكرايست: جمع القرآن، ص ٢٣.

(٧) سورة البقرة، الآية (٢٣٨).

بلغتها آذنتها فأملت عليَّ (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قالت عائشة سمعتها من رسول الله ﷺ»[١].

ثم يعلق على هذهِ الرواية قائلاً: «هذهِ عائشة زوج محمد رسول الإسلام تؤكد وجوب إضافة عبارة «وصلاة العصر» بعد عبارة «والصلاة الوسطى» مستشهدة في ذلك بمحمد نفسهِ»[٢].

ويرى المستشرقون أيضاً أن المصاحف التي كانت شائعة ومتداولة قبل خطوة الخليفة الثالث بإحراقها، كانت لدى فئة عريضة من المسلمين، وكان لها المصداقية نفسها التي تمتع بها مصحف زيد بن ثابت[٣].

وعلى هذا فالاختلافات التي يدرجونها بين تلك المصاحف ومصحف زيد بن ثابت يرون فيها أسانيد، وحججاً على وجود التحريف بنص القرآن، وسأستعرض أهم الحالات التي يركزون فيها والتي تمثل الاختلافات بين مصحفي عبد الله بن مسعود وأُبيٍّ بن كعب، وبين مصحف زيد بن ثابت، ثم نستعرض ما يدعيهِ المستشرقون من أن الشيعة يقولون بتحريف القرآن.

أولاً: بدل القراءة الرسمية للآية ٢٠٤[٤] من سورة البقرة (ويشهد الله) تقرأ (ويستشهد الله)[٥].

ثانياً: بدل قراءة (مُذبذبين) في الآية (١٤٣)[٦] من سورة النساء في مصحف زيد، تقرأ (مُتذبذبين)[٧].

---

(١) ينظر: جلال الدين السيوطي: عبد الرحمٰن بن الكمال (ت ٩١١هـ/ ١٥٠٥م)، الدر المنثور، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٩٣)، جـ ١، ص ٧٢٢.

(٢) جون جلكرايست: جمع القرآن، ص ٣٣.

(٣) ينظر: المصدر نفسه، ص ٣٤.

(٤) قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ﴾.

(٥) Noldeke, Geschichte des Qurans, V. 3, P. 83; A. Jeffery, Materials for The History of the taxt of the Quran, (New York - 1975), P. 120.

(٦) قوله تعالى: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾.

(٧) Noldeke, V. 3, P. 85; Jeffery, P. 128.

ثالثاً: بدل قراءة (أمرنا مُترفيها ففَسَقوا) الواردة في الآية ١٦[١] من سورة الإسراء في مصحف زيد قراءة (بعثنا أكابر مجرميها فمكروا) في مصحف أُبيٍّ بن كعب[٢].

ويصرح كل من جلرايست والمستشرق الفرنسي بلاشير باحتواء مصحف أُبيٍّ بن كعب سورتين غير موجودتين في مصحف زيد، هما سورتا الحفد[٣] والخلع[٤].

على أن أكثر ما ركز عليهِ هؤلاء المستشرقون، لدعم قولهم بتحريف النص القرآني، هو ما نسبوه إلى المذهب الشيعي من موقف سلبي تجاه هذا النص.

وبطبيعة الحال نجد هذا الموضوع واضحاً، ومتكاملاً عند رائد هذهِ الدراسات المستشرق نولدكه الذي يقول: «إن الاعتراضات، والاحتجاجات التي أصدرتها الطائفة الشيعية إزاء النص القرآني، كانت متعددة ومتنوعة، ولم تقتصر فقط على آيات، وكلمات مفردة... وعلى وفق معلومات مؤلفي القرن الرابع أنهُ هناك تقريباً ٥٠٠ موقع في القرآن تم تحريفه»[٥].

ثم يعود ليقول: «لكن المؤسسة الشيعية استخدمت النص العثماني ككتاب مقدس لغاية يومنا هذا، دون الأخذ بنظر الاعتبار كل التُهم ضدهُ، إلا أن هذا يمثل حلّاً مؤقتاً،... لأن القرآن الأصلي وغير المزيف كان في حيازة الأتباع الغامضين للإمام عليٍّ، الإمام الثاني عشر، قاموا بإخفائه إلى أن يظهره الإمام الأخير (المسيح الشيعي) أو مثلما أسموه المهدي القائم، وهناك بعض الطوائف الشيعية، تنتظر ذلك بفارغ الصبر. فتحدث بعضهم عن

---

(١) قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

(٢) Noldeke, V. 3, P. 85; Jeffery, P. 140.

(٣) سورة الحفد: «اللهم إنا نعبدُ وَلكَ نُصلي ونسجد وإليكَ نسعى ونحفد، نرجو رحمتك ونخشى عذابك بالكفار ملحق». ينظر: جون جلكرايست: جمع القرآن، ص ٣٤؛ Blachere, Introduction au Coran, P. 189.

(٤) سورة الخلع: «اللهم إنا نستعينك ونستغفرك ونثني عليك ولا نكفرك ونخلع ونترك من يفجرك».

(٥) Noldeke, Geschichte des Qurans, V. 2, PP. 94 - 97.

هذا الإمام بأنهُ أُعطيت لهُ نسخة القرآن»[١].

ثم يستعرض نولدكه ما يعبر عنهُ بنقاط الاختلاف بين القرآن الشيعي والنص العثماني للقرآن الحالي. ففيما يتعلق بالسور الناقصة في النص العثماني يقول نولدكه: «من بين السور التي كانت في الأصل أطول، سورة ٢٤ ـ النُّور ـ هي أكثر من مئة[٢] آية، وكذلك سورة ١٥ ـ الحِجْر ـ كانت تضم ١٩٠[٣] آية، أما بالنسبة إلى الطول السابق لسورة ٣٣ ـ الأحزاب ـ فقد زودتنا المصادر الشيعية بمعلومات مذهلة»[٤].

وفيما يتعلق بالحذف والتبديل الذي يدعيه نولدكه قد جرى على النص القرآني، ناسباً هذهِ الدعوة إلى لسان الشيعة، يشير إلى الآية (٣٠)[٥] من سورة الفرقان على أنهُ حُذفَ منها اسم محدد؟، كذلك سورة البيِّنة التي حُذفَ منها أسماء سَبعين رَجُلاً من القرشيين بقصد، والآية (٦٥)[٦] من سورة التَّوْبَة، يرى نولدكه أن الطائفة الشيعية رأت فيها بياناً واضحاً لسبعين رجلاً من المنافقين الذين لم يبايعوا الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بالخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم[٧].

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qurans, V. 2, P. 96, 97.

إن جُلَّ علماء المذهب الشيعي يرفضون أن تنسب لهم هذه التهم، ولو تأملنا قليلاً في هذا الكلام لوجدنا التناقض الواضح عليه، فهل يعقل أن المؤسسة الشيعية تعتمد النص الحالي للقرآن، بمعنى أنها ترجع إليه في كل صغيرة وكبيرة، في الوقت الذي ينسب إليها أنها تقول بتحريف هذا النص وتزويره وهي تمتلك نصاً غير محرف غيره؟ هل يعقل هذا الطرح!!! إن أي شخص سليم العقل لا يقرُّ هذا التناقض، وعلى أية حال فالموقف الشيعي قد بحثناه بالتفصيل وأدركنا حينئذ أنه يقوم على الاعتراف الصريح بأن النص الحالي للقرآن الكريم هو النص الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من غير زيادة أو نقصان، وأنه لا يوجد نصٌّ آخرُ غيرهُ تؤمن به الطائفة الشيعية، ويمكن متابعة ذلك في باب الرد على مزاعم المستشرقين في نهاية الفصل الرابع من الكتاب.

(٢) سورة النُّور في نص القرآن العثماني (٦٤) آية.

(٣) سورة الحِجْر في نص القرآن العثماني (٩٩) آية.

(٤) Noldeke, Geschichte des Qurans, V. 2, P. 98.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا﴾.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

(٧) Noldeke, Geschichte des Qurans, V. 2, P. 98.

ويعتقد نولدكه أن النصوص القرآنية المُحرَّفة، التي جمعها الشيعة وأعلنوا عنها، هي فقط التي تتعلق بالإمام علي عليه السلام والأئمة الباقين من ذريتهِ، أي من آل البيت عليهم السلام، ويحاول دعم رأيهِ هذا بالاعتماد على قول الإمام أبي عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: «لو أنك قرأت القرآن بشكلهِ الأصلي، فإنك ستجد الأئمة بأسمائهم»[١].

ثم يواصل نولدكه مستعرضاً أمثلة مما يُعبِّر عنهُ بادعاءات الشيعة ضد النص العثماني للقرآن، فيدعي أن أغلب صياغات النص الأصلي للقرآن كانت تتألف من كلمات (علي، المحمدين (من آل بيت محمد))[٢]، فتقرأ عبارة (هذا صراط مستقيم) في الآيات (٦١)[٣]، و(٦٤)[٤] من سورة الزُّخرُف، والآية (٦١)[٥] من سورة يس، والآية (٣٦)[٦] من سورة مريم، والآية (٥١)[٧] من سورة آل عمران، بدل عبارة (صراط عليين)، ويذكر هذا المستشرق مجموعة أُخرى من الآيات القرآنية، ويشير إلى أنها قد حُذِفَ منها ما يشير إلى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام[٨].

ثم يفرد نولدكه عنواناً رئيساً في كتابه، يسميه (سورة النورين ـ الشيعية)، ويبتدىء تحت هذا العنوان الخطير بالقول: «وفقاً لبعض المؤلفات الشيعية توجد هناك العديد من السور، التي توجد في القرآن، لكنها مستبعدة من النص العثماني، إلا أن واحدة فقط منها ما زالت معروفة الآن، هذه ما تسمى بسورة النورين»[٩].

نعم، لقد اعتقد هذا المستشرق أن الشيعة يمتلكون عدداً من السور

---

(١) Noldeke, Geschichte des Qurans, V. 2, P. 98.

(٢) Ibid, V. 2, P. 98, 99.

(٣) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

(٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

(٥) قوله تعالى: ﴿وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

(٦) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

(٧) قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

(٨) Noldeke, Geschichte des Qurans, P. 100; Blachere, Introduction au Coran, P 184, 185.

(٩) Noldeke, Ibid, P. 100.

القرآنية التي حُذفت من النص العثماني وأنهُ لم يستطع تعرف إلا واحدة منها، هي سورة النورين. ويعود الفضل في هذهِ المعرفة (مثلما يخبرنا) إلى مصادر فارسية حديثة، نُشرت بحدود القرن السابع عشر الميلادي، متمثلة بشخص يُدعى محسن فاني، وآخر يُدعى كاظم بِك، استطاع الأخير التوصل إلى نص هذهِ السورة بعد مسيرة بحث دامت ما يقرب من ثمانية عشر عاماً، ولكن من دون أن يذكر أصل المصدر الذي أُخذ منهُ نص السورة. وأنقل نص هذهِ السورة، كما جاءت عند نولدكه في كتابهِ تأريخ القرآن، وباللغتين العربية والألمانية[١]:

ما تسمى بـ (سورة النورَيْن)

١ يا أيُّها الَّذِين آمنوا بالنورين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذِّرانكم عذابَ يَوم عظيم ٢ نوران بعضهما من بعض وإنَّا لسميع عليم ٣ إنَّ الذين يوفون بعهد الله ورسوله في آيات لهم جنَّاتُ نعيم ٤ والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنَقْضهم ميثاقهم وما عاهدَهم الرسولُ يُقذَفون في الجحيم ٥ ظلموا أنفسهم وعصوا لِوصيِّ الرسول أُولئك يُسقَون من حميم ٦ إنَّ الله الذي نوَّر السموات والأرض بما شاء، واصطفى من الملائكة، والرُسُل وجعل من المؤمنين ٧ أولئك من خَلقهِ يفعل الله ما يشاء لا إلٰه إلاَّ هو الرحمٰن الرحيم ٨ قد مَكر الذين من قبلهم برسلهم فأخذتهم بمكرهم إنَّ أخذي شديد أليم ٩ إنَّ الله قد أهلك عاداً وثمودَ بما كَسبوا وجعلهم لكم تذكرةً فلا تتقون ١٠ وفْرعونَ بما طغى على موسى وأخيه هارون أغرقته ومن تبعه أجمعين ليكون لكم آيةً وإنَّ أكثركم فاسقون ١١ إنَّ الله يجمعهم يومَ الحشر فلا يستطيعون الجوابَ حين يُسألون ١٢ إنَّ الجحيم مأواهم وإنَّ الله عليم حكيم ١٣ يا أيها الرسول بَلِّغْ إنْذاري فسَوف يعلمون ١٤ قد خَسِر الذين كانوا عن آياتي وحكمي معرضين ١٥ مَثَلُ الذين يوُفون بعهدك إنِّي جزيْتُهم جنَّاتِ النعيم ١٦ إنَّ الله لذو مَغفرة وأجر عظيم ١٧ وإنَّ عليّاً لمن المتقين ١٨ وإنَّا لنوفِّيه حقَّه يومَ الدين ١٩ وما نحن عن ظُلْمهِ بغافلين ٢٠ وكرَّمْناه على أهلك أجمعين ٢١ وإنَّه وذُرِّيَّته لصابرون ٢٢ وإنَّ عدُوَّهُم إِمام المجرمين ٢٣ قُلْ للذين كفروا

(١) راجع : Noldeke, V. 2, P. 102, 103.

بعدما آمنوا طلبتم زينة الحياة الدنيا واستعجلتم بها ونَسيتم ما وَعَدكم اللّهُ ورسوله ونَقضتم العهود بعد توكيدها وقد ضربنا لكم الأمثال لعلّكم تهتدون ٢٤ يا أيها الرسول قد أَنزلنا إليكَ آياتٍ بيناتٍ فيها من يتوفَّه مؤمناً وَمن يتولّه من بعدك يُظهرون ٢٥ فأَعرضْ عنهم إِنَّهم مُعرضون ٢٦ إِنَّا لهم مُحضرون في يوم لا يُغْني عَنهم شيء وَلا هم يُرحَمون ٢٧ إنَّ لهم في جَهنمَ مقاماً عنه لا يعدِّلون ٢٨ فَسبِّحْ باسم رَبِّك وكُنْ من الساجدين ٢٩ ولقد أرسلنا موسى وهارون ما استُخلف فبغوا هارون فَصبْرٌ جميل فجعلنا منهم القِردَةَ، والخنازير، ولعَنَّاهم إلى يوم يُبْعَثون ٣٠ فاصبر فسوف يُبْلَونَ ٣١ ولقد أتينا بك الحُكْم كالذين من قبلك من المرسلين ٣٢ وجعلنا لك منهم وَصيّاً لعلَّهم يَرجعون ٣٣ ومن يتولَّ عن أمري فإنِّي مُرْجِعه فليتمتعوا بكُفرهم قليلاً فلا تسألْ عن الناكثين ٣٤ يا أيها الرسول قد جَعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عَهداً فُخذه وكُنْ من الشاكرين ٣٥ إنَّ عَليّاً قانتاً بالليل ساجداً يَحذر الآخرةَ ويرجو ثواب ربِّهِ قُلْ هل يسْتوي الذين ظَلموا وهم بعذابي يَعلمون ٣٦ سيجعل الأغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندْمون ٣٧ إِنَّا بشرناك بذُريَّة الصالحين ٣٨ وإنَّهم لأمرنا لا يخلفون ٣٩ فَعَليْهم منِّي صلاة ورحمة أحياءً وأمواتاً ويومَ يُبْعَثون ٤٠ وعلى الذين يَبْغون عليهم من بعدك غَضَبي إنَّهم قَومُ سوءٍ خاسرين ٤١ وعلى الذين سَلكوا مَسلكهم منِّي رحمة وهم في الغرفات آمنون ٤٢ والحمدُ لله ربِّ العالمين آمين.

الرد على مزاعم المستشرقين

مما لا شك فيه، أن القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة لرسول الله ﷺ، وهو البيِّنة الواضحة لصدقه، وحقيقة رسالته، والدستور، والشريعة الذي ينظم للمسلمين حياتهم، ففيه دعوة جميع الأمم إلى الإسلام وفيهِ الحجة على باقي الأديان، وفيه التحدي باستحالة الإتيان بمثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[1]، أو الإتيان بعشر سور من مثلهِ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[2]. أو الإتيان

(١) سورة الإسراء، الآية (٨٨).
(٢) سورة هود، الآية (١٣).

بسورة واحدة من مثله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[١].

فالقرآن إذن هو المعجزة الخالدة التي عجزت الألسن عن الإتيان ولو بسورةٍ واحدة من مثلهِ، وهو أحد الثقلين اللذين خلفهما رسول الله ﷺ للمسلمين بعده لتأمين هدايتهم وحفظ شريعتهم. وقد لاحظنا في الفصول السابقة، ما وصل إليهِ هؤلاء المستشرقون من القول بتحريف القرآن، وحصول التغير في نصه والنقصان، منطلقين في ذلك مما حملهُ تراثنا من روايات الوضّاعين، ومبالغات الناقلين، غير ملتفتين إلى الأدلة الناصعة الواضحة على ما يخالف قولهم هذا وما يثبت بطلان دعواهم. فمن القرآن الكريم نستشهد بقولهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[٢]. وقوله جل وعلا: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾[٣]. وقولهُ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾[٤].

إن الله تبارك وتعالى يؤكد كما هو واضح في هذه الآيات أنهُ هو من تولى صيانة القرآن وحفظه من دسائس الأباطيل، وألاعيب المحرِّفين المزوِّرين، وقد انعكس هذا الاهتمام والتكفل الإلهي بحفظ القرآن وصيانته على النبي محمد ﷺ، فأصبح ذلك من أولويات المهام المحمدية التي سعى لإنجازها قبل وفاتهِ ﷺ، لذلك وجدناه شديد الاهتمام بكتابة القرآن، وجمعهِ في صورة كتابية قد سبق أن بيّناها بالتفصيل.

ما نريد أن نركز فيه هنا من أحاديث النبي ﷺ، ذلك الحديث الذي ورد عن زيد بن أرقم الذي نقل فيهِ قوله ﷺ يوم غدير خم: (إني تاركٌ فيكم الثقلين كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به، وأهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي أذكّركم الله في أهل بيتي...)[٥].

---

(١) سورة يونس، الآية (٣٨).
(٢) سورة فصلت، الآيتان (٤١، ٤٢).
(٣) سورة الحجر، الآية (٩).
(٤) سورة القيامة، الآية (١٦ ـ ١٩).
(٥) لمراجعة هذا الحديث ينظر: الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن (ت =

وأعتقد أن المرء لا يحتاج إلى عناءٍ كبير، لإدراك الحقيقة الناصعة الظاهرة من تأكيد النبي ﷺ أن كتاب الله (القرآن الكريم) في هذهِ الخطبة التي سبقت وفاته ما يقارب شهرين ونصف الشهر(١)، التي يستشف منها أمران هما:

الأمر الأول: أن القرآن الكريم كان على هيئة شبه مكتملة، مما دعا النبي ﷺ تأكيد ضرورة الالتزام بنصهِ، والتمسك بهِ، فبذلك لا يَضِلُّ المسلمون عن حقيقة دينهم ولا ينحرفوا.

الأمر الثاني: دراية النبي ﷺ وعلمه بقرب موعد أجلهِ الشريف، ولذلك قبل أن يغادر هذهِ الدنيا يوصي المسلمين ويؤكد على التمسك بما هو حق، وبما لا يأتيهِ الباطل من بين يديهِ ولا من خلفهِ.

إن تأكيد النبي ﷺ هذا على التمسك بالنص القرآني، لا يشير إلا إلى

= ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م): سنن الدارمي، تحقيق فواز أحمد وخالد السبع، دار الكتاب العربي، (بيروت ـ ١٩٨٦م)، جـ ٢، ص ٥٢٤؛ النسائي، أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م): السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٩١م)، جـ ٥، ص ٥١؛ النيسابوري، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م): صحيح ابن خزيمة، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، (بيروت ـ ١٩٧٠م)، جـ ٤، ص ٦٢؛ الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد عبد الله (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م): المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٩٠م)، جـ ٣، ص ١٦٠؛ البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م): سنن البيهقي الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، (مكة المكرمة ـ ١٩٩٤م)، جـ ٧، ص ٣٠؛ ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م): تفسير ابن كثير، دار الفكر، (بيروت ـ ١٤٠١هـ)، جـ ٤، ص ١١٤؛ السيوطي: الدر المنثور، جـ ٢، ص ٢٨٥. وحديث الثقلين هذا من الأحاديث التي لا يشك المسلم في صدورها عن النبي ﷺ، فقد رواه عنه أكثر من ثلاثين من الصحابة، وأورده من علماء أهل السُّنة ما يقارب الـ ٥٠٠ شخصية من مختلف طبقاتهم منذُ زمن التابعين حتى عصرنا الحاضر من مؤرخين ومفسرين ومحدِّثين وغيرهم. ينظر: الميلاني، علي الحسيني: التحقيق في نفي التحريف عن القرآن الشريف، انتشارات الشريف الرضي، ط ٢، (قم ـ ١٩٩٦م)، ص ٤٣.

(١) ينظر: اليعقوبي: تاريخ، جـ ٢، ص ١١٢.

أنهُ ﷺ كان مطمئناً من إكمال كل ما من شأنه حفظ النص وعدم ضياعهِ أو تزويره، لذلك كان يوصي بالتمسك بهِ. ولو كان في خَلَد النبي ﷺ غير ذلك، من قبيل احتمالية ضياع قسم من القرآن أو تزويره، لما وقف بين المسلمين يؤكد ضرورة التمسك بهِ، لأنهم حينها قد يتمسكون بما هو ليس من أصل القرآن.

إن المنطق السليم يحتم الإقرار بسلامة النص القرآني، ولا سيما أن الشواهد على ذلك كثيرة، ومتنوعة، منها ما جاء في القرآن نفسه، ومنها ما عبَّر عنهُ الحديث النبوي الشريف، فضلاً عن شواهد كثيرة أُخرى سنأتي على ذكر بعضها.

إن من أفظع المآسي، وأفجع المصائب في تأريخ الإسلام، هو ظهور الروايات المفتريات، سواء أكان منها ما يتعلق بعصر النبي محمد ﷺ أم بالعصر الذي تلاه (العصر الراشدي)، ولقد حذَّر النبي ﷺ المسلمين من هذه الفتنة بقولهِ: (لقد كثر عليَّ الكذبة وستكثر، فمن كذب عليَّ متعمداً فليتبوَّأ مقعدهُ من النار. فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي، فما وافق كتاب الله فخذوا بهِ، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا بهِ)[١].

والملاحظ أن النبي ﷺ قد جعل القرآن هو المعيار في تصديق، أو تكذيب الحديث، ولكننا مع الأسف على الرغم من ذلك التحذير والإنذار قد وجدنا أحاديث كثيرة موضوعة[٢].

إن استقرار فكرة أن القرآن إنما جُمعَ بعد وفاة النبي ﷺ في أذهان

---

(١) ينظر: البخاري: صحيح البخاري، جـ ١، ص ٣٨.

(٢) كتب التأريخ نقلت لنا أمثلة من هؤلاء واعترافاتهم. فقد ذكر الطبري عن ابن أبي العوجاء الدهري، المعروف، أنهُ حُبس في سنة ١٥٥هـ، بأمر من والي الكوفة آنذاك محمد بن سليمان: «فلما أيقن أنهُ مقتول قال: أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف أُحَرِّمُ فيه الحلال وأُحِلُّ فيها الحرام، والله لقد فطَّرتكم في يوم صومكم وصَوَّمتُكم في يوم فطركم». ينظر: الطبري: تأريخ الرُسل والمملوك، جـ ٦، ص ٢٩٩؛ وذُكر عن آخر، هو أبو عصمة فرج بن أبي مريم المروزي، أنهُ قيل له: «من أين لك عن عكرمة عن ابن عباس في فضل سورة القرآن سورة، سورة؟! فقال: إني رأيتُ الناس قد أعرضوا عني واشتغلوا بفقه أبي حنيفة ومغازي محمد بن إسحاق فوضعتُ هذا الحديث حسبة». ينظر: أحمد أمين: فجر الإسلام، (القاهرة ـ لا. ت)، ص ٢١٥.

المسلمين، يبقي الباب مفتوحاً يسيراً أمام أعداء الإسلام للاعتماد على أحاديث دالة على سقوط الكثير من النصوص القرآنية وضياعها، ولا سيما خلال عملية الجمع. والغريب أن المسلمين كانوا ذاهلين عن مغزى تلك الروايات، وكانوا يتلقونها كأحاديث تصب في إطار فضائل الصحابة فتقبلوها بقبولٍ حسن.

إن ما جاء في دعاوى المستشرقين من أن وقوع التحريف في النص القرآني قد تم في زمن الشيخين رضي الله عنهما لم يسندهُ دليل نقلي أو حتى عقلي، ولا سيما أنهم لم يزيدوا على دور النبي ﷺ المتمثل بكونه هو الجامع للقرآن، إلا بحرصهم على مواصلة الحفظ من الضياع، ذلك الحرص الذي تكلل في عهد الخليفة الثالث بتوحيد المصحف على لغة قريش، ونشرهِ بين الأمصار الإسلامية الرئيسة آنذاك.

وأما عهد الإمام عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه، فلم يرد فيهِ ما يشير إلى التحريف في النص القرآني، وحسبنا ما ذكرهُ الصغير في هذا الشأن:

١ - إن حرج الإمام عليٍّ عليه السلام في الدين بل وفي الجزئيات التشريعية معلومة الحال، فكيف تجاه أصل الدين، ونظام الإسلام، وهو القرآن، فلو سبق أن امتدت إليه يد التحريف، لما وقف متردداً في إرجاع الحق إلى نصابهِ، وإلغاء سمات التحريف، فكيف يصح أن يقع في عهده، وهو من هو في ذات الله.

٢ - إن الإمام عليٍّ عليه السلام احتج بالقرآن على أهل الجمل، ودعا إليهِ في التحكيم مع أهل صفِّين، فلو كان في القرآن ما ليس منهُ، أو أنهُ لم يشتمل على كل القرآن، لما صح له الاحتجاج بهِ، ولا قبوله في التحكيم، وهذا أمر مشهور لا يحتاج معهُ إلى برهان.

٣ - إن خطب الإمام عليٍّ عليه السلام في نهج البلاغة، تشير إلى القرآن في كثير من التفصيلات هداية واسترشاداً وتوجيهاً للناس، فلو كان هناك، مما يُدَّعى، شيءٌ لأبان ذلك على الأقل وأنكره، ولاحتج فيهِ على من تقدمه، فلما لم يفعل ذلك علمنا بسلامة القرآن[1].

---

(١) ينظر: محمد حسين علي الصغير: تأريخ القرآن، ص ١٥٨، ١٥٩.

لقد اتهم المستشرقون الطائفة الشيعية بأنها صاحبة الدعوى بتحريف القرآن من خلال ما تناقلتهُ كتب الشيعة من أن جزءاً كبيراً قد ضاع من القرآن، وأن القرآن الحقيقي هو القرآن الشيعي الذي سيظهر على يدي الإمام القائم المهدي (عج) آخر الأئمة الاثني عشر من نسل آل محمد، وبناءً على هذا فالنص الحالي (هو نص محرف).

وبالرجوع إلى أقوال أئمة الشيعة وعلمائهم، ومواقفهم، يمكن التأكد من صحة هذهِ الدعوى الاستشراقية من عدمها، والوقوف على حقيقة الموقف الشيعي من النسخة الحالية من القرآن الكريم ودرجة اعترافهم، أو عملهم بها.

فالإمام عليُّ بن أبي طالب ﷺ يصف القرآن قائلاً: «فالقرآن آمر زاجر، وصامت ناطق، حجَّة الله على خلقهِ، أخذ عليهم ميثاقه، وارتهن عليهِ أنفسهم، أتم نوره، وأكمل بهِ دينه، وقبض لنبيِّهِ صلَّى الله عليهِ وآلهِ وسلَّم وقد فرغ إلى الخلق من أحكام الهدى بهِ، فعظَّموا منهُ سبحانهُ ما عظَّم من نفسهِ، فإنهُ لم يخفِ عنكم شيئاً من دينهِ، ولم يترك شيئاً رضيه أو كرههُ إلاَّ وجعل لهُ علماً بادياً، وآية محكمة، تزجر عنهُ أو تدعو إليهِ...»[1].

وقال علي ﷺ في كتاب لهُ إلى الحارث الهمداني: «وتَمسَّك بحبل القرآن واستنصحهُ، وأَحِلَّ حلالهُ، وحرِّم حرامهُ...»[2]، وأيضاً قوله: «واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لا يغش، والهادي الذي لا يضلُّ، والمحَدِّث الذي لا يكذب....»[3].

وعن عليٍّ بن سالم عن أبيهِ قال: «سألت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام، فقلت لهُ: يا ابن رسول الله ما تقول في القرآن؟ فقال: هو كلام الله، وقول الله، وكتاب الله، ووحي الله وتنزيله، وهو الكتاب العزيز الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾»[4].

---

(١) الميلاني: التحقيق في نفي التحريف، ص ٤٨.

(٢) ينظر: المصدر نفسهُ، ص ٤٧.

(٣) ينظر: المصدر نفسهُ، ص ٤٦.

(٤) الشيخ الصدوق، ابن علي بن الحسين بن بابويه (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م): الأمالي، المكتبة الإسلامية، (قم ـ ١٩٨٤م)، ص ٥٤٥.

وعن الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام قوله في القرآن هو: «كلام الله، لا تتجاوزوه، ولا تطلبوا الهدى في غيرهِ فتضلوا»[١]. وقد جاء في كتابهِ للمأمون: «وإن جميع ما جاء بهِ محمد بن عبد الله هو الحق المبين، والتصديق بهِ وبجميع من مضى قبلهُ من رسل الله وأنبيائهِ وحججهِ، والتصديق بكتابهِ العزيز الذي (لا يأتيهِ الباطل من بينِ يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيم حميد) وإنهُ المهيمن على الكتب كلِّها، وإنهُ حق، من فاتحته إلى خاتمتهِ، تؤمن بمحكمه ومتشابههِ، وخاصِّه وعامِّه، ووعدهِ ووعيدهِ، وناسخهِ ومنسوخهِ، وقصصهِ وأخبارهِ، لا يقدر أحد من المخلوقين أن يأتي بمثلهِ»[٢].

هذهِ الكلمات وأمثالها مما لم نذكره، تنصُّ على أنَّ الله تعالى جعل القرآن نوراً يستضاء بهِ، ومنهاجاً يعمل على وفقهِ، وحكماً بين العباد، ومرجعاً في المشكلات، ودليلاً عند الحيرة، ومتبعاً عند الفتنة. وعلى هذا فإن الأمر يقتضي بأن يكون ما بأيدينا من القرآن، هو القرآن نفسه الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وآله، وعرفه أمير المؤمنين عليٌّ، وسائر الأئمة من ذريتهِ عليهم السلام، مثلما استعرضنا لقسم يسير من أقوالهم المعبرة عن نظرتهم إلى النص القرآني وتأكيدهم التمسك به والعمل بموجبه، ولو كان للشيعة قرآن آخر لوصَّوا بالتمسك به وترك ما سواه.

وقد روى المحدِّثون من الإماميَّة أحاديث كثيرة عن الأئمة الطاهرين تتضمن تمسُّكهم بمختلف الآيات عند المناظرات وفي كل بحث من البحوث، سواء في العقائد أو الأحكام أو المواعظ والحكم والأمثال، فهم عليهم السلام تمسَّكوا بالآيات القرآنية في كل باب على ما يوافق النص الحالي للقرآن[٣].

إن أهم ما يوجه للطائفة الشيعية من القول بالنقصان هو بسبب ما ورد في كتاب فصل الخطاب للميرزا النوري، فقد احتوى كتابه على روايات منقولة عن المسلمين بكل أطيافهم، ولكن السؤال المهم هنا: هل إن الميرزا

---

(١) الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام، دار العالم للنشر، (طهران ـ ١٩٦٨م)، جـ ٢، ص ٧٥.

(٢) الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا عليه السلام، جـ ٢، ص ١٣٠.

(٣) ينظر: الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن، جـ ١٢، ص ١١١.

النوري يمثل الطائفة الشيعية بأقواله، أو آرائه؟! وهل الطائفة الشيعية مُلزمة بما صدر عن النوري حول سلامة النص القرآني؟!

إن الأقوال الصريحة لعلماء الشيعة تتعارض تماماً مع ما جاء في كتاب فصل الخطاب، وهذا التعارض دليل أكيد على عدم تبني المذهب الشيعي لأفكار التحريف بكل أشكالها، لأن علماء المذهب دائماً وأبداً يؤكدون على أن القرآن الموجود بين أيدينا هو القرآن الذي أنزلهُ الله تبارك وتعالى على نبيه المصطفى ﷺ، لا أكثر من ذلك ولا أقل، ولسان حالهم يقول إنه تقرر عندنا منذ اليوم الأول أنهُ لا كتاب صحيح من أوله إلى آخره سوى القرآن الكريم.

نعم، هناك روايات شاذة، ولكن لا يمكن الحمل عليها، فقد أعرض عنها علماء المذهب وكانوا منذ وقت مبكر مدركين لخطورتها فبادروا إلى التصريح بشكلٍ واضح بتركها والإعراض عنها لأنها غير صحيحة، وتداولها يعني الإجماع على تحريف القرآن، ويمكن ملاحظة ذلك من خلال أقوال مجموعة من علماء الشيعة القدماء منهم والمحدثين:

فالشيخ محمد بن علي بن بابويه الملقب بالصدوق، المتوفَّى سنة (٣٨١هـ/ ٩٩١م) والقريب من عهد الأئمة عليهم السلام وأصحابهم ذكر في أحد مصنفاتهِ (كتاب الاعتقادات) الاعتقاد الشيعي بوضوح قائلاً: «اعتقادنا في القرآن أنهُ كلام الله ووحيه، وتنزيلهُ، وقوله، وكتابه، وأنهُ لا يأتيهِ الباطل من بين يديهِ ولا من خلفهِ تنزيلٌ من حكيم عليم، وأنهُ القصص الحقُّ، وأنهُ لقول فصل وما هو بالهزل، وأنَّ الله تباركَ وتعالى محدثه، ومنزله، وربُّه، وحافظه والمتكلِّم بهِ. اعتقادنا أن القرآن الذي أنزلهُ الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفَّتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك»[١].

أما الشيخ الطوسي، المتوفَّى سنة (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م) صاحب تفسير (التبيان في تفسير القرآن) يقول في مقدمتهِ: «وأما الكلام في زيادتهِ ونقصانه، فمما لا يليق بهِ أيضاً، لأنهُ الزيادة فيهِ مجمع على بطلانها، والنقصان منهُ؛ فالظاهر أيضاً من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق الصحيح في مذهبنا، . . . وهو الظاهر في الروايات، غير أنهُ رويت روايات كثيرة، من

(١) الشيخ الصدوق: الاعتقادات، ص ٩٢.

جهة الخاصة والعامة، بنقصان كثير من آي القرآن، ونقل شيء منه من موضع إلى موضع، طريقها الآحاد التي لا توجب علماً ولا عملاً، والأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها، لأنهُ يمكن تأويلها»(١).

ولا يخالف هذا الشيخ الطبرسي، المتوفى سنة (٥٤٨هـ/ ١١٥٣م) صاحب تفسير (مجمع البيان في تفسير القرآن) إذ يقول: «من ذلك الكلام في زيادة القرآن ونقصانهِ، فإنهُ لا يليق بالتفسير، فأما الزيادة فيهِ فمجمع على بطلانها، وأما النقصان منهُ، فقد روى جماعة من أصحابنا، وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييراً، أن نقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه»(٢).

ومن أعلام الشيعة وعلمائهم المعاصرين السيد محسن الحكيم الذي يصرح في إطار معتقد الشيعة بالنص العثماني للقرآن قائلاً: «إن سلف المسلمين كافة، وعلماء الإسلام عامة، منذُ بدأ الإسلام إلى يومنا هذا، يرون أن القرآن في ترتيب سوره وآياتهِ، هو كما بين أيدينا، ولم يعتقد أحد من السلف في التحريف»(٣).

والسيد أبو القاسم الموسوي الخوئي، وهو يقول: «إن أي حديث، حول أي تحريف في القرآن لا يعدو أن يكون خرافة، فإن القرآن الكريم لم يعتره أي تغيير من أي نوع»(٤).

وفي ضوء ما تقدم من أقوالٍ لأئمة الشيعة وعلمائهم، يجب أن لا يبقى أدنى شك في أن لغة الاتهام التي نسبت إلى الشيعة هي لغة خاطئة وفيها كثير من التجني والتضليل، والغريب أن بعض مفكري الإسلام، ورجالاتهِ يستمرون في هذا الخط، كقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «ولقد ظنَّ بعض الشيعة أن عثمان قد بدل في نص القرآن، أو أنهُ على وجه التحديد أسقط شيئاً يتعلق بعلي بن أبي طالب»(٥)، أو القول المستخف بالمذهب

---

(١) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، جـ ١، ص ٣.

(٢) الطبرسي: مجمع البيان، جـ ١، ص ١٥.

(٣) ينظر: محمد حسين علي الصغير: تأريخ القرآن، ص ١٦٨.

(٤) المصدر نفسهُ والصفحة نفسها.

(٥) محمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القرآن الكريم، (الكويت ـ ١٩٧١)، ص ٣٩.

الشيعي للأستاذ المتخصص بتاريخ القرآن عبد الصبور شاهين: «تتردد في كتب هؤلاء الشيعة ثلاثة ألفاظ يعبر كل منها عن شيء ما، مكنون في مكان ما، مع شخص ما، هو الإمام المنتظر، وسوف ينكشف سر هذه المجاهيل في وقت ما... إنهم يعتقدون أنه كان لأمير المؤمنين عليه السلام قرآن مخصوص جمعه بنفسه بعد وفاة رسول الله ﷺ، وعرضه على القوم فأعرضوا عنه، فحجبه عن أعينهم، وكان عند ولده عليهم السلام، يتوارثه إمام عن إمام، كسائر خصائص الإمامة، وخزائن النبوَّة، وهو عند الحُجَّة، عجَّل الله فرجه، يظهره للناس بعد ظهورهِ ويأمرهم بقراءتهِ، وهو مخالف لهذا القرآن الموجود، من حيث التأليف وترتيب السور والآيات، بل لعلي زيادات ليست في المصحف الإمام، فهذا المصحف الإمام مُدان إذن بتهمة عدم مطابقة الأصل، أي إن تحريفاً قد وقع فيه»[١].

وعلى هذهِ الشاكلة هناك الكثير من العبارات، والأقوال لعدد من أئمة الفكر الإسلامي، غير متكلفين على أنفسهم البحث في حقيقة الموقف الشيعي من هذهِ القضية، الموقف الذي لا يؤخذ إلا من أئمة المذهب وعلمائهِ، وهو لا يتعدى عبارة واضحة طالما رددها علماء المذهب: إن القرآن الحالي الموجود بين أيدينا هو القرآن الذي أنزلهُ الله تعالى على نبيه المصطفى ﷺ ليس بأكثر من ذلك ولا أقل.

إن أفضل ما استند عليهِ المستشرقون من روايات، وأحاديث تنص على تحريف القرآن، لا تعدو عن كونها أخبار الآحاد، وهي أخبار متناثرة هنا وهناك، لا تصلح لأن تكون دليلاً أو حجة على قضية ما، فما بالك بقضية تخص سلامة القرآن الكريم، ولا تصلح أن تكون برهاناً على دعوى، لكونها لم تبلغ حد الشهرة فضلاً عن التواتر، ولأنَ الضعف، والكذب، والتدليس واضح الأمارات في الرواة، والاضطراب والتناقض متوافر في الأسانيد[٢].

إذن، ما اعتمد عليهِ المستشرقون، لم يكن من الروايات المُعتبرة، المُقر بمصداقيتها، تلك الروايات التي نجدها سواء في كتب السُّنة أو كُتب

---

(١) عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن، ص ١٦٦، ١٦٧.

(٢) ينظر: محمد حسين علي الصغير: تأريخ القرآن، ص ١٥٩، ١٦٠.

الشيعة، وهي روايات وأحاديث تفيد بظاهرها بتحريف القرآن، بمعنى نقصانه وضياع شيء مما نزل على النبي ﷺ.

إن رواية الخبر المطلق بلا شك هي أعم من الاعتقاد بمضمونه، فقد عني محدِّثو الشيعة منذُ القرون الأولى بجمع الروايات الواصلة إليهم عن الأئمة، وتبويبها وتنظيمها، صوناً لها من الضياع والنسيان وما شابه ذلك، من غير نظر في متونها وأسانيدها، ولذا تجد في رواية أحدهم ما يعارض رواية الآخر، بل تجد ذلك في أخبار الكتابين بل الكتاب الواحد للمؤلف الواحد، وترى المحَدِّث يروي في كتابهِ الحديثي خبراً ينصُّ على عدم قبول مضمونه في كتابهِ الفقهي أو الاعتقادي، لذلك فالرواية هي أعمُّ من القبول والتصديق بالمضمون[١].

فلا يجوز إذن نسبة مطلب إلى راوٍ أو محدِّث بمجرد روايتهِ أو نقلهِ لخبر يدل على ذلك المطلب، إلاَّ إذا نصَّ على الاعتقاد بهِ أو أوردهُ في كتاب الذَّم بصحَّة أخباره أو ذكره في كتاب صنَّفهُ في بيان اعتقاداتهِ[٢].

عند هذا لا بد من ذكر حقيقة مؤكدة، وهي أنهُ لا يوجد كتاب واحد من بين كتب الشيعة وصفت أحاديثهُ جميعها بالصِّحة، وقوبلت بالتسليم، والقبول لدى الفقهاء، والمحدِّثين، ولذا نجد أنَّ أحاديث الشيعة ـ وحتى الواردة في الكتب الشيعية الأربعة[٣] التي يُعتمد عليها في الاستشهاد بالحديث، واستنباط الأحكام الشرعية ـ قد خضعت لنقد علماء الرجال، وأئمة الجرح والتعديل، فكل خبر اجتمعت فيهِ شرائط الصِّحة، وتوافرت فيهِ مقتضيات القبول أُخذ بهِ، وكل خبر لم يكن بتلك المثابة ردَّ، أيّاً كان مخرِّجهُ وراويه والكتاب الذي أخرج فيهِ[٤].

---

(١) ينظر: الميلاني: التحقيق في نفي التحريف، ص ٩٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٩٩ ـ ١٠٠.

(٣) هي كتب: أصول الكافي، للكليني (ت ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م)، وكتاب من لا يحضره الفقيه، للشيخ الصدوق (ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م)، وكتابي التهذيب والاستبصار فيما اختلف من الأخبار، للشيخ الطوسي (٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م).

(٤) ينظر: الميلاني: التحقيق في نفي التحريف، ص ١٠٠؛ سيد سعيد أختر الرضوي: رسائل، مؤسسة أنصاريان، (قم ـ ١٩٩٦)، ص ٩٩ ـ ١٠١).

فعلى سبيل المثال، إن كتاب أصول الكافي، وهو أهم الكتب الشيعية الأربعة وأوثقها لدى هذهِ الطائفة، وهو الذي أثنى عليهِ العلماء والمحدِّثون والفقهاء وتلقَّوه بيد الاحترام والتعظيم، وزع العلماء أحاديثه البالغة (١٦١٩٩) حديثاً على أساس تصنيف الأحاديث، وقد لوحظ أنَّ أكثرها عدداً الأحاديث الضعيفة[١].

نستخلص مما تقدم أن أحاديث «الكتب الشيعية» أحاديث غير قطعيَّة الصدور عن النبي ﷺ، والأئمة عليهم السلام عند الإمامية لكونها خاضعة للفحص والتدقيق، ومن ثم فإن المذهب الشيعي ليس بالضرورة أن يكون معتقداً لكل المضامين الواردة في تلك الأحاديث، هو لا يعتقد إلا بما يصدق، ويصح، ويثبت.

وعلى هذا فالشيعة لا يعتقدون بعصمة أي مصنف أو مفسر أو محدِّث كائناً من كان عن الخطأ والزلل، وبناءً على هذا لا يقولون بصحة أيَّة مجموعة للأحاديث بتمامها، وإن الكتاب الوحيد الذي يعتقدون بصحتهِ ومصونيتهِ عن كل نقص أو خلل هو كتاب الله المجيد القرآن الكريم الذي وصفهُ الله تعالى بأنهُ الكتاب الذي لا يأتيهِ الباطل من بين يديهِ ولا من خلفهِ[٢].

يتبين مما سبق أن الطعون التي ادعاها المستشرقون بحق سلامة القرآن الكريم، ونسبوها إلى لسان الشيعة، هي مجرد أحاديث ضعيفة لا يعتقد بها أئمة الشيعة ولا علماؤهم، ولا يميلون إلى القول بها، ولا تصديقها ولا العمل بموجبها، وإنما هي كما بيَّنَّا أحاديث ضعيفة وردت في كتب الحديث ضمن عملية جمع الأحاديث وحفظها من الضياع، دون القيام بتمحيصها وغربلتها، وقد استفاد هؤلاء المستشرقون من هذهِ الأحاديث الضعيفة للتصريح بوقوع التحريف في القرآن عن لسان الشيعة.

---

(١) الميلاني: التحقيق في نفي التحريف، ص ١٠٢.

(٢) ينظر: الميلاني: التحقيق في نفي التحريف، ص ٩٩ ـ ١٠٧؛ الرضوي: رسائل، ص ٨٣ ـ ٩٠؛ مرتضى الرضوي: المنتقى من كتاب آراء علماء المسلمين في التقية والصحابة وصيانة القرآن الكريم، (بيروت ـ لا. ت)؛ مرتضى الرضوي: عصمة القرآن من الزيادة والنقصان، مؤسسة دار الهجرة، (قم ـ ٢٠٠١).

إن وجود الروايات الشاذة وحصول الارتباك في رواياتنا الإسلامية، الخاصة بموضوع جمع القرآن، منشؤهُ الاعتقاد الخاطىء بأن النبي ﷺ توفي دون أن يجمع القرآن الكريم.

إن الموضوع يحتاج إلى عناية كبيرة في البحث، والتزام موضوعي بعيد عن الميل الطائفي، فالطعن الاستشراقي بالنص القرآني لا يطال طائفة دون أخرى، فهو يمس بالقرآن الكريم، كتاب المسلمين جميعاً، بناءً على ذلك لا بد للمسلمين من توجيه أفكارهم ضمن منظومة واحدة، لأن ما يواجهونه من خطر هو واحد.

إن المتابعة التاريخية للدعوة الإسلامية منذ بدايتها وحتى وفاة النبي ﷺ، تقدم لنا تقريراً وافياً عن حرص النبي ﷺ الشديد لحفظ النص القرآني وجمعه، وقد سبق أن بينّا ذلك بالتفصيل، على هذا الأساس كان الأولى بنا أن نعتقد ونؤمن بأن النص القرآني قد جمع على يدي رسول الله ﷺ، وتحت إشرافه، واكتمل الجمع قبل وفاته، وزاد على ذلك بأنه ﷺ كان يعمل على حفظه في صدور المسلمين حينما كان يدعو لحفظه ويشجع على ذلك، بل ذهب أكثر من ذلك ببيانه وتوضيحه كثيراً من النصوص القرآنية التي كان من الضروري أن تُفسَّر للمسلمين، حتى إذا ما توفي رسول الله ﷺ كان القرآن مجموعاً محفوظاً.

جاءت بعد وفاة النبي ﷺ مرحلة مهمة، كانت صعبة على المسلمين بدون رسول الله ﷺ، ولأن كثيراً من المفاهيم ما زالت غير متبلورة آنذاك، أو أنها كانت على أعتاب التبلور والنضج في فكر المسلمين، فقد أخفقوا في التعبير عنها، مما جعلهم يبالغون في أمر ما دون شعورهم بذلك، وكان مفهوم جمع القرآن من المفاهيم التي حصل بشأنها الاختلاف لهذا السبب، فإذا ما قرأت روايات الجمع تدرك لأول وهلة أنها تشير بصورة غير مباشرة إلى أن النبي ﷺ قد توفي تاركاً القرآن مفرقاً غير مجموع، وأن فلاناً (هناك أكثر من صحابي ينسب لهُ ذلك) قد انتبه لذلك، فقام بما لم يقم به رسول الله ﷺ فحفظ القرآن من الضياع وقام بجمعه، بعد أن بحث وتقصى وجمع كل ما استطاع جمعه، ولأننا نميل إلى هذا الصحابي أو ذاك، بالغنا في أدوارهم بشأن جمع القرآن وكثرت رواياتنا في هذا الجانب، كلٌّ يريد الاستئثار بشرف

جمع القرآن حتى أُتخمت رواياتنا الإسلامية بالمبالغات، واحتوت على كثير من الثغرات والتناقضات، لا سيما إذا ما قورنت الروايات المعتمدة عند هذه الطائفة مع تلك، وهذا ما كان يبحث عنه بعض المستشرقين لأجل أن يطعنوا بالنص القرآني.

إن آراء المستشرقين حول سلامة النص القرآني قد اعتمدت بشكل كبير على الروايات الإسلامية، وإذا ما كانت هذه الآراء تطعن في سلامة النص القرآني فلأنها قد وجدت الثغرات في تلك الروايات، أعتقد أن الواجب يدعو للنظر بجرأة في مضامين هذه الروايات، وتحديد موقف إسلامي موحد تبنى عليه كل الأفكار المتعلقة بهذا الموضوع (موضوع جمع القرآن الكريم).

الخاتمة

بعد أن منَّ الله تعالى علينا بفضلهِ لإنجاز هذه الدراسة، لا بد من ذكر أهم النتائج التي توصل إليها الباحث، وهي على الشكل الآتي:

أولاً: تناولنا في الفصل الأول علاقة الاستشراق بالقرآن الكريم، وقد وجدنا أن القرآن الكريم كان أحد أهم الموضوعات الشرقية التي أثارت اهتمام المستشرقين، هذا الاهتمام الذي بدأ منذُ وقت مبكر يعود إلى السنة (١١٤٣م) حين تمت أول ترجمة لاتينية للنص القرآني، ولتستمر بعدها الدراسات والترجمات إلى مختلف اللغات الأوربية.

وجدنا أن هذا الاهتمام الذي بدأ كبيراً بموضوع القرآن الكريم، هو نتيجة للدافع الديني الذي كان يحرك، ويغذي العقلية الاستشراقية في الخوض في هذهِ الدراسات، لا بل ويوجه هذهِ العقلية نحو الأهداف التي تضعها المؤسسة الدينية.

من المؤكد أن هناك دوافع أُخرى غير الدينية قد دعمت هذهِ الدراسات، وقد لاحظنا أنه على مدى ما يزيد على القرنين والنصف الأخيرين لوحظ تخصُّصٌ في الدراسات القرآنية عند المستشرقين، منها ما يهتم بالجانب اللغوي للقرآن، ومنها ما يهتم بالجانب التأريخي، ومنها ما يهتم بتفسير النصوص القرآنية، والملاحظ أن غالبية هذهِ الدراسات التخصصية تشترك بصفة واحدة تقريباً وهي أن مؤلفيها يبحثون عن كل ما من شأنهِ تأكيد الثغرات، ونقاط الضعف في النص القرآني.

ثانياً: إن الدراسات الاستشراقية ومنذُ قرنين ونصف، أخذت تبحث في موضوع تأريخ النص القرآني، وعملية البحث هذه قد سارت باتجاهين:

الاتجاه الأول كان يبحث في تسلسل زمني لنزول السورة القرآنية، لأنهم يرون أن عنصر الزمن لم يعالج في ترتيب السور القرآنية، ولأنهم يفضلون أن يتعاملوا مع القرآن بكونه كتاباً تأريخياً، لذلك انشغل عدد من المستشرقين

بموضوع إعادة ترتيب السور بحسب زمن نزولها، على وفق مناهج بحثية متعددة، تارة تكون بالاعتماد على مصادر السيرة، وعلاقتها بالنص القرآني، وتارةً أُخرى بالاعتماد على لغة القرآن وأسلوبهِ الخطابي، وتارة ثالثة بالاعتماد على مضامين النصوص القرآنية وما تقدمهُ من دلالات كأسماء، أو ألفاظ، أو أماكن وغيرها مما فيه إشارة إلى زمن معين أو بالاعتماد على هذهِ المعطيات جميعاً، وهكذا توصل بعض المستشرقين إلى ما عبروا عنهُ بنظريات في إعادة ترتيب السور القرآنية.

ومن خلال البحث توصلنا إلى أن هذهِ النظريات التي توصل إليها هؤلاء المستشرقون، ما هي إلا محاولات فاشلة غير مثمرة في إعادة الترتيب، ذلك أن كل الطرق البحثية التي اتبعوها لم تستطع أن توفر نتائج دقيقة، وصحيحة في إعادة الترتيب، ومن ثم فهي وإن اكتسبت شهرة كبيرة في أوساط المستشرقين حتى عند بعض الشرقيين، إلا أنها لا تعدو أن تكون محاولات فاشلة، قد اعترف بذلك رائد هذهِ الدراسات ومؤسسها المستشرق الألماني تيودور نولدكه حين سئل قبل وفاتهِ بوقت قصير، إن كان يشعر بالندم لأنهُ لم يعكف على دراسة علم يعود بالفائدة العلمية على الجنس البشري، كدراسة الطب أو الزراعة أو أي فرع غير الدين واللغات والفلسفة؟ أجاب نولدكه: «إذا كان من ندم فلأنني درستُ علوماً لم أظفر منها في النهاية بنتائج حاسمة قاطعة»، وهذا القول إشارة صريحة لما قام به من عمل في إعادة ترتيب النص القرآني.

على أننا لم نغفل أن نبين في ثنايا البحث أن التسلسل الحالي للسور القرآنية هو تسلسل توقيفي، فرض بأمر الله تبارك وتعالى، وبَيَّنهُ النبي الكريم ﷺ من خلال قراءتهِ القرآن، ومراجعتهِ السنوية لما ينزل منهُ مع الأمين جبريل عليه السلام، وتدوينهِ ألفاظهِ، وغير ذلك من الشواهد المؤكدة أن تسلسل النص القرآني هو توقيفي بأمر الله تعالى.

أما الاتجاه الثاني فنجد فيهِ أن الدراسات الاستشراقية تبحث في موضوع تدوين القرآن، وجمعه، ومن المؤسف جدّاً أن تُراثنا قد احتوى عدداً كبيراً من الروايات، والأحاديث الضعيفة الموضوعة. لقد وجد الباحث أن المستشرقين يقومون بعملية تقصي وبحث بشأن تلك الروايات، ثم يوظفوها لطروحاتهم، وصولاً إلى القول بتحريف النص القرآني.

إن إهمال بعض مصادرنا القديمة هذا الأمر، وعدم تنبُّه مؤلفيها إلى خطورة إيراد هذهِ الروايات والأحاديث الدالة على تناقضات كبيرة بشأن جمع القرآن، وإعراض علماء المسلمين ومفكريهم المعاصرين عن تناول هذا الموضوع ومعالجتهِ بموضوعية تامة، خوفاً من حساسيته، كل هذا قد جعل الباب مفتوحاً أمام المستشرقين ليناقشوا ويحللوا ويصرحوا بكل ما يتوافق وفكرهم الاستشراقي، البعيد عن مُسلَّمات العقيدة الإسلامية، وفي أهم، وأقدس ما يرتبط بنا لكوننا مسلمين.

ثالثاً: لقد وجد الباحث أن المصادر العربية القديمة قد خلطت في مفهوم (جمع القرآن) ولم تقم بتوضيحهِ بشكل وافٍ. ولقد توصل الباحث إلى أن هذا الخلط وعدم الوضوح في مفهوم جمع القرآن هو الذي أربكَ الروايات الإسلامية، أو على الأقل كان أحد الأسباب الرئيسة في إرباكها، فجاءت الروايات لتشير إلى عدد من الصحابة ممن ساهموا في عملية حفظ النص القرآني من الضياع وتُعَبِّر عنهم بأنهم جامعو القرآن، في حين أن الرؤية الصريحة، والواضحة لهذا الأمر تبدو من خلال إدراكنا التام هذا المفهوم، فإذا ما أدركنا المعنى الحقيقي لجمع القرآن عندها سوف لن يحصل اللبس ولن نقع في إشكاليات، فالرسول ﷺ وكما ورد في ثنايا البحث كان يحرص على الحفظ الشفهي لكل ما ينزل من القرآن مباشرةً ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾، ثم يبادر شكل فوري إلى تدوين تلك النصوص القرآنية النازلة على أدوات الكتابة المتوافرة آنذاك، وقد أخبرتنا كُتب التأريخ عن عدد من كَتَبة الوحي الذينَ كان الرسول الكريم ﷺ يستكتبهم في تَدوين النصوص القرآنية، ثم أكدت لنا روايات إسلامية أن الرسول الكريم في شهر رمضان من كل سنة كان يراجع ما نزل من القرآن مع الأمين جبرئيل عليه السلام، تلك المراجعة التي لا تُعَبِّر إلا عن حجم الحرص الإلهي لجمع القرآن وحفظهِ من الضياع.

وعلى هذا فالرسول الأكرم ﷺ هو الأولى، والأحق في أن ننسب جمع القرآن إليهِ، وإلا كَيف يكون الجمع وما استعرضناه من حرص، واهتمام، وعمل قام بهِ ﷺ من أجل حفظ النص القرآني، وبعد أن توفي رسول الله ﷺ تولى الصحابة والمسلمون حفظ ما جمعهُ النبي خلال سنوات الدعوة،

وتكللت تلك الجهود بما قام بهِ الخليفة الثالث عثمان بن عفان بتوحيد المصاحف.

مرة أُخرى أقول إن عدم وضوح مفهوم جمع القرآن لمؤلفي المصادر القديمة، ورواة الحديث، أدى بهم إلى الخلط تحت هذا العنوان، ونسب هذا الدور المُهم إلى أسماء معيَّنة من الصحابة، فظهرت روايات منها مَنْ يقول إن الخليفة الأول أبا بكر رضي الله عنه هو أول مَنْ جمعَ القرآن، ومنها مَن يقول إن الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو أول من جمع القرآن، ومنها من يقول إن الخليفة الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه هو أول مَن جمع القرآن، ومنها مَن ينسب الجمع الأول إلى الإمام عليٍّ بن أبي طالب عليه السلام، ومنها مَن يَقول بأن سالماً مولى أبي حُذيفة هو أول مَنْ جمع القرآن، وهكذا وفَّرت هذِه الروايات الفرصة لخيال المستشرقين بأن يقول أحدهم بأن الحجاج بن يوسف الثقفي هو أول مَن جَمعَ القرآن؟؟؟.

رابعاً: ولأن الدراسة قد تخصصت بدراسات المستشرقين في تأريخ القرآن كان على الباحث أن يتناول العلاقة ما بين النص التأريخي (القصصي) القرآني وما بين النص التأريخي التوراتي، ولأن كثيراً من المستشرقين يؤكدون أن النص القرآني هو نص متأثر بالنص التوراتي ولهُ علاقة وثيقة به، ويُلوِّح بعضهم بالقول بأن النص القرآني مأخوذ أو مُستقى من النص التوراتي أصلاً، ولذلك قام الباحث بإجراء مقارنة (لقصةِ نبي الله يوسف عليه السلام) الواردة في الكتابين، وقد تبين من هذهِ المقارنة أن النص القرآني هو أبلغ، وأوسع من النص التوراتي لا بل فيه تفاصيل أُخرى لم يأتِ النص التوراتي على ذكرها، وبذلك يمتاز النص القرآني عن النص التوراتي، وهذهِ الميِّزة تَجعل منهُ نصّاً غير تابعٍ، غير مُقَلِّدٍ، لأن من شِيم الاستقاء أن يكون النص المُقَلِّد نصّاً تابعاً مسايراً في الفكر غير مخالف النص الأصلي، وهذا لم نجده في النص القرآني.

وبعد، فإني إذ أختتم عملي المتواضع هذا أسأل الله سبحانهُ وتعالى أن يوفقنا به ويسدد خُطانا في سبيل خدمة الدين والذود عنهُ قدر المستطاع أمام تخرصات المضللين الحاقدين من أعداء الدين ومزاعمهم.

والله ولي التوفيق

قائمة المصادر

أولاً: المصادر العربية

- ابن الأثير، محمد بن محمد بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ/ ١٢٣٢م).

ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية، ط ٢، (بيروت ـ ١٩٩٥).

- ابن إسحاق، محمد (١٥١هـ/ ٧٦٨م).

ـ **سيرة ابن إسحاق، المسماة بكتاب المبتدأ والمبعث**، تحقيق محمد حميد الله، معهد الدراسات والأبحاث للتعريب.

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي (ت ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م).

ـ **صحيح البخاري**، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٨٦م).

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن موسى (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م).

ـ **سنن البيهقي الكبرى**، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز، (مكة المكرمة ـ ١٩٩٤م).

- الترمذي، محمد بن عيسى السلمي (ت ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).

ـ **سنن الترمذي**، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرين، دار إحياء التراث العربي، (بيروت ـ لا . ت).

- الحاكم النيسابوري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م).

ـ **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٩٠م).

- ابن الحبيب، الحسن بن عمر (٧٧٩هـ/ ١٣٧٧م).

ـ **المقتفى من سيرة المصطفى**، تحقيق مصطفى محمد حسين الذهبي، دار الحديث، (القاهرة ـ ١٩٩٦).

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي الشافعي (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م).

ـ **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، (بيروت ـ ١٩٩٢م).

- الخطيب البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت (ت ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠م).

ـ **تقييد العلم**، تحقيق يوسف الغش، ص ٢، (بلا ـ ١٩٧٤م).

- ابن الجزري، محمد بن محمد.
- **غاية النهاية**، تحقيق برجشتراسر، مكتبة الخانجي، (مصر ـ ١٩٣٢م).
- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمٰن بن علي (ت ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م).
- **فنون الأفنان في عجائب علوم القرآن**، تحقيق رشيد عبد الرحمٰن العبيدي، مطبعة المجمع العلمي العراقي، (بغداد ـ ١٩٨٨).
- الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمٰن (ت ٢٥٥هـ/ ٨٦٨م).
- **سنن الدارمي**، تحقيق فواز أحمد وخالد السبع، دار الكتاب العربي، (بيروت ـ ١٩٨٦م).
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م).
- **معرفة القراء الكبار على الطبقات والأمصار**، تحقيق بشار عواد وآخرين، مؤسسة الرسالة، (بيروت ـ ١٩٨٣م).
- الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر (ت ٧٢١هـ/ ١٣٢١م).
- **مختار الصحاح**، تحقيق محمود خاطر، مكتبة لبنان، (بيروت ـ ١٩٩٥).
- الزركشي، محمد بن بهادر بن عبد الله (ت ٧٩٤هـ/ ١٣٩١م).
- **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق أحمد أبي الفضل إبراهيم، دار المعرفة، (بيروت ـ ١٩٧١م).
- الزهري، محمد بن سعد بن منيع البصري (ت ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م).
- **الطبقات الكبرى**، دار صادر، (بيروت ـ لا . ت).
- السجستاني، أبو بكر عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث (ت ٣١٦هـ/ ٩٢٨م).
- **المصاحف**، تحقيق آرثر جفري، المطبعة الرحمانية، (مصر ـ ١٩٣٦م).
- السيوطي، جلال الدين (٩١١هـ/ ١٥٠٥م).
- **الإتقان في علوم القرآن**، المكتبة الثقافية، (بيروت ـ ١٩٧٣م).
- الشيباني، أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ/ ٨٥٥م).
- **مسند أحمد**، مؤسسة قرطبة، (مصر ـ لا . ت).
- الشيخ الصدوق، ابن علي بن الحسين بن بابويه (٣٨١هـ/ ٩٩١م).
- **الأمالي**، المكتبة الإسلامية، (قم ـ ١٩٨٤م).
- **عيون أخبار الرضا** عليه السلام، دار العالم للنشر، (طهران ـ ١٩٨٦م).
- الطبرسي، أمين الدين أبو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م).
- **مجمع البيان في تفسير القرآن**، دار إحياء التراث، (بيروت ـ ١٩٧٦).
- الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ/ ٩٢٢م).

- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٨٤م).
- **تأريخ الرسل والمملوك**، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٨٦م).

● الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي (ت ٤٦٠هـ/ ١٠٦٧م).
- **التبيان في تفسير القرآن**، تحقيق أحمد بن حبيب العاملي، مكتب الإعلام الإسلامي، (قم ـ ١٩٨٧م).

● الغزي، محمد بن محمد بن محمد (ت ١٠٦١هـ/ ١٦٥٠م).
- **إتقان ما يحسن من الأخبار الدائرة على الألسن**، تحقيق خليل محمد العربي، دار الفاروق الحديثة، (القاهرة ـ ١٩٩٤م).

● القرطبي، محمد بن أحمد بن أبي بكر فرج (ن ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م).
- **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق أحمد عبد العليم البردوني، دار الشعب، ط ٢، (القاهرة ـ ١٩٥٢م).

● القلقشندي، أحمد بن علي بن أحمد (ت ٨٢١هـ/ ١٤١٨م).
- **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، دار الكتب المصرية، (القاهرة ـ ١٩٦٣).

● ابن كثير القرشي، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م).
- **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، (بيروت ـ لا . ت).
- **تفسير ابن كثير**، دار الفكر، (بيروت ـ ١٩٨٠).

● المقدسي، شهاب الدين عبد الرحمٰن بن إسماعيل بن إبراهيم (ت ٦٦٥هـ/ ١٢٦٦م).
- **كتاب المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز**، تحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر، (بيروت ـ ١٩٧٥).

● ابن منظور، محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت ٧١١هـ/ ١٣١١م).
- **لسان العرب**، دار صادر، (بيروت ـ لا . ت).

● ابن النديم، محمد بن إسحاق (٣٨٥هـ/ ٩٩٥م).
- **الفهرست**، دار المعرفة، (بيروت ـ ١٩٧٨م).

● النسائي، أبو عبد الرحمٰن أحمد بن شعيب (ت ٣٠٣هـ/ ٩١٥م).
- **السنن الكبرى**، تحقيق عبد الغفار سليمان البنداري وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، (بيروت ـ ١٩٩١).
- **فضائل القرآن**، تحقيق فاروق حمادة، دار إحياء العلوم، ط ٢، (بيروت ـ ١٩٩٢م).

● النيسابوري، أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (ت ٣١١هـ/ ٩٢٣م).

- **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، (بيروت - ١٩٧٠).

- ابن هشام، محمد بن عبد الملك (٢١٨هـ/ ٨٣٣م).
- **السيرة النبوية**، تحقيق همام سعيد ومحمد بن عبد الله (الأردن - ١٩٨٨).

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر (ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).
- **تأريخ**، (بيروت - ١٩٦٠م).

ثانياً: المصادر العربية الحديثة

- الأعرجي، ستار جبر حمود.
- **الوحي ودلالاته في القرآن الكريم والفكر الإسلامي**، دار الكتب العلمية، (بيروت - ٢٠٠١م).

- أمين، أحمد.
- **فجر الإسلام**، (القاهرة - لا . ت).

- الأنباري، عبد الرزاق علي.
- «**جمع القرآن الكريم**» بحث منشور في مجلة المورد (عدد خاص)، (بغداد - ١٩٨١)، المجلد التاسع، العدد الرابع.

- البدري، محمد عبد الله المهدي.
- **القرآن الكريم تأريخه وعلومه**، دار القلم، (دبي - ١٩٨٤).

- بدوي، عبد الرحمٰن.
- **موسوعة المستشرقين**، دار العلم للملايين، ط ٣، (بيروت - ١٩٩٣).

- البنداق، محمد صالح.
- **المستشرقون وترجمة القرآن الكريم**، (بيروت - ١٩٨٠).

- جعبط، هشام.
- **أوربا والإسلام صدام الثقافية والحداثة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، (بيروت - ١٩٩٥).

- حسنين، عبد المنعم محمد.
- **الاستشراق وجهوده وأهدافه في محاربة الإسلام والتشويش على دعوتهِ**، مجلة الجامعة الإسلامية، (المدينة المنورة - ١٩٧٧)، العدد الثاني.

- الحسيني، إسحاق موسى.
- **الاستشراق نشأتهُ وتطوره وأهدافهُ**، (بيروت - ١٩٦٧).

- حميش، سالم.
- **الاستشراق في أفق انسداده**، (الرباط ـ ١٩٩١).
- الحكيم، محمد باقر.
- **القصص القرآني**، المركز العالمي للعلوم الإسلامية، (قم ـ ١٩٩٥م).
- الخربوطلي، علي حسني.
- **المستشرقون والتأريخ الإسلامي**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط ٢، (القاهرة ـ ١٩٨٨).
- الخطيب، عبد الكريم.
- **القرآن، نظمهُ، جمعهُ، ترتيبهُ**، دار الفكر العربي، (القاهرة ـ ١٩٧٢م).
- خلف الله، محمد أحمد.
- **الفن القصصي في القرآن الكريم**، مكتبة النهضة المصرية، ط ٢، (القاهرة ـ ١٩٥٧).
- خليل، عماد الدين.
- **في التأريخ الإسلامي، موقف ودراسات**، مطبعة الزهراء، ط ٢، (الموصل ـ ١٩٨٥).
- الداقوقي، حسين علي.
- «**معركة طلس أو الصراع الحضاري بين العرب والصين**»، بحث منشور في مجلة دراسات للأجيال، (بلا ـ ١٩٨٧)، العدد الثالث.
- دراز، محمد عبد الله.
- **النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن**، دار القلم، ط ٢ (الكويت ـ ١٩٧٠).
- **مدخل إلى القرآن الكريم**، ترجمة محمد عبد العظيم علي، دار القرآن الكريم، (الكويت ـ ١٩٧١).
- الدعمي، محمد عبد الحسين.
- **المتغير الغربي: الشرق الاستشراق**، (بغداد ـ ١٩٨٦).
- الرضوي، سيد سعيد أختر.
- **رسالة**، مؤسسة أنصاريان، (قم ـ ١٩٩٦).
- الرضوي، مرتضى.
- **عصمة القرآن من الزيادة والنقصان**، مؤسسة دار الهجرة، (قم ـ ٢٠٠١).
- **المُنتقى من كتاب آراء علماء المسلمين في التَّقية والصحابة وصيانة القرآن الكريم**، الإرشاد للطباعة والنشر، (بيروت ـ لا . ت).

- زقزوق، محمود حمدي.
  - **الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري**، ط ٢، (قطر ـ ١٩٨٣).
- الزنجاني، أبو عبد الله.
  - **تأريخ القرآن**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، (القاهرة ـ ١٩٣٥).
- الزيادي، محمد فتح الله.
  - **ظاهرة انتشار الإسلام وموقف بعض المستشرقين منها**، (ليبيا ـ ١٩٨٣).
- السباعي، مصطفى.
  - **الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم**، (الكويت ـ ١٩٦٨م).
- سليمان، علي حيدر.
  - **تأريخ الحضارة الأوربية**، دار واسط، (بغداد ـ ١٩٩٠).
- شاهين، عبد الصبور.
  - **تأريخ القرآن**، دار القلم، (القاهرة ـ ١٩٦٦).
- ابن الشريف، محمود.
  - **الأديان في القرآن**، دار المعارف، (القاهرة ـ ١٩٧٠).
- الصالح، صبحي.
  - **مباحث في علوم القرآن**، دار العلم، ط ١٠، (بيروت ـ ١٩٧٧).
- الصغير، محمد حسين علي.
  - **تأريخ القرآن**، الدار العالمية، (بيروت ـ ١٩٨٣).
  - **«ظاهرة الوحي والمستشرقون»**، بحث منشور في كتاب: المستشرقون وموقفهم من التراث العربي الإسلامي، (النجف ـ ١٩٨٦).
  - **المستشرقون والدراسات القرآنية**، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، (لبنان ـ ١٩٨٣).
- الطباطبائي، سيد محمد حسين.
  - **الميزان في تفسير القرآن**، دار الكتب الإسلامية، ط ٣، (طهران ـ ١٩٧٦م).
- عاشور، سعيد عبد الفتاح.
  - **أوربا العصور الوسطى**، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ٩، (القاهرة ـ ١٩٨٣).
- العالم، عمر لطفي.
  - **المستشرقون والقرآن**، مركز دراسات العالم الإسلامي، (مالطة ـ ١٩٩١).
- العاملي، علي الكوراني.
  - **تدوين القرآن**، دار القرآن الكريم، (طهران ـ ١٩٩٧م).

- العاني، عبد القهار داود.
  - **دراسات في علوم القرآن**، مطبعة المعارف، (بغداد ـ ١٩٧٢).
- عرفة، محمد أحمد.
  - **نقض مطاعن في القرآن الكريم**، مطبعة المنار، (القاهرة ـ ١٩٣٢).
- عقيقي، نجيب.
  - **المستشرقون**، ط ٤، (القاهرة ـ ١٩٤٦م).
- العلي، صالح أحمد.
  - **دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام**، مؤسسة الرسالة، (بيروت ـ لا. ت).
- عياد، محمد كامل.
  - «**صفحات من تأريخ الاستشراق**»، بحث منشور في مجلة المجمع العربي السوري، (سوريا ـ ١٩٦٥)، المجلد ٤٠، الجزء ١.
- غلاب، محمد.
  - **نظرات استشراقية في الإسلام**، (القاهرة ـ لا. ب).
- فتاح، عرفان عبد الحميد.
  - **دراسات في الفكر العربي الإسلامي**، دار الجيل، (بغداد ـ ١٩٩١م).
  - **المستشرقون في الإسلام**، (بغداد ـ ١٩٦٩).
- فروخ، عمر.
  - «**المستشرقون ما لهم وما عليهم**»، بحث منشور في مجلة الاستشراق، (العراق ـ ١٩٨٧)، العدد الأول.
- القاضي، عبد الفتاح.
  - **تأريخ المصحف الشريف**، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني، (القاهرة ـ لا. ت).
- المدرس، علاء الدين شمس الدين.
  - **الظاهرة القرآنية والعقل**، مطبعة العاني، (بغداد ـ ١٩٨٦).
- المقدادي، الشيخ فؤاد كاظم.
  - **الإسلام وشبهات المستشرقين**، المجمع العالمي لأهل البيت E، (طهران ـ ١٩٩٧م).
- الميلاني، علي الحسيني.
  - **التحقيق في نفي التحريف**، انتشارات الشريف الرضي، (قم ـ ١٩٩٦م).

● نادفي، سيد مظفر الدين.
- **التأريخ الجغرافي للقرآن**، ترجمة عبد الشافي غنيم عبد القادر، لجنة البيان العربي، (مصر - ١٩٥٦م).

● ابن نبي، مالك.
- **إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث**، (القاهرة - ١٩٧٠م).
- الظاهرة القرآنية، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر، (لبنان - لا. ت).

● نقرة، التهامي.
- «**القرآن والمستشرقون**»، بحث منشور في كتاب مناهج المستشرقين، المنظمة العربية للتربية والثقافة والفنون، (الرياض - ١٩٨٥).

● ياسين، محمد سعدي.
- **البرهان على سلامة القرآن من الزيادة والنقصان**، (بيروت - ١٩٦٤م).

ثالثاً: المصادر الأجنبية المترجمة

● إيرفنج، واشنطن.
- **محمد وخلفاؤهُ**، ترجمة هاني يحيى نصري، المركز الثقافي العربي، (الدار البيضاء - ١٩٩٩).

● أركون وآخرون، محمد.
- **الاستشراق بين دعاته ومعارضيه**، ترجمة هاشم صالح، (بيروت - ١٩٩٤م).

● بارت، رودي.
- **الدراسات العربية والإسلامية في الجامعات الألمانية**، ترجمة مصطفى ماهر، (القاهرة - ١٩٦٧).

● باركر، أرنست.
- **الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، دار النهضة العربية، (بيروت - ١٩٦٧).

● بروكلمان، كارل.
- **تأريخ الشعوب الإسلامية**، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، ط ٩، (بيروت - ١٩٨١).

● بلاشير، ريجيس.
- **القرآن نزولهُ، تدوينهُ، ترجمته وتأثيره**، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، (بيروت - ١٩٧٤).

● بودلي، رونالد فكتور.
- **حياة محمد الرسول**، ترجمة عبد الحميد جودة السحار ومحمد فرج، (القاهرة - ١٩٦٤).

● بوكاي، موريس.
- **القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم**، دار المعارف، ط ٤، (القاهرة - ١٩٧٧).

● جب، هاملتون.
- **بنية الفكر الديني في الإسلام**، ترجمة عادل العوَّا، مطبعة جامعة دمشق، ط ٢، (دمشق - ١٩٦٤).

● جب، هاملتون وكالمرز.
- **الموسوعة الإسلامية الميسرة**، ترجمة راشد البراوي، مكتبة الأنجلو المصرية، (القاهرة - ١٩٨٥).

● جلكرايست، جون.
- **جمع القرآن**: كتاب موجود على شبكة الإنترنت على الموقع:
WWW.an - swering - islam. org/ Arabic/ Gilchrist/ Jam

● جولدتسهر، أجنتس.
- **العقيدة والشريعة في الإسلام**، ترجمة محمد يوسف وعلي حسن عبد القادر وعبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة، ط ٢ (القاهرة - لا. ت).
- **مذاهب التفسير الإسلامي**، ترجمة عبد الحليم النجار، مطبعة السنَّة المحمدية، (القاهرة - ١٩٥٥).

● خودابخش، صلاح الدين.
- **حضارة الإسلام**، ترجمة علي حسني الخربوطلي، دار الثقافة، (بيروت - ١٩٧١).

● دي لاسي، أوليري.
- **الفكر العربي ومركزهُ في التأريخ**، دار الكتاب اللبناني، (بغداد - ١٩٨٦).

● رنسيمان، ستيفن.
- **تأريخ الحروب الصليبية**، ترجمة السيد الباز العريني، (بيروت - ١٩٦٧).

● سارتون، جورج.
- **تأريخ العلم**، ترجمة محمد خلف الله وآخرين، دار المعارف، ط ٣، (القاهرة - ١٩٧٦).

● كارليل، توماس.
- **الأبطال**، ترجمة محمد السباعي، (بيروت - ١٩٦١).

● كراتشوفسكي.
- **دراسات في تأريخ الأدب العربي**، ط ٢، (موسكو - ١٩٦٥).
● لوبون، غوستاف.
- **حضارة العرب**، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط ٤، (نابلس - ١٩٦٤م).
● لويس، برنارد.
- **تأريخ اهتمام الإنكليز بالعلوم العربية**، ط ٢، (بيروت - لا . ت).
● وات، مونتجومري.
- **تأثير الإسلام على أوربا في العصور الوسطى**، ترجمة عادل نجم عبُّو، (الموصل - ١٩٨٢م).
- **محمد في مكة**، ترجمة شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت - ١٩٥٢).
- **محمد في المدينة**، ترجمة شعبان بركات، منشورات المكتبة العصرية، (بيروت - ١٩٥٢).
● يونغ، لويس.
- **العرب وأوربا**، ترجمة ميشيل أزرق، دار الطليعة للنشر والطباعة، (بيروت - ١٩٧٩).

رابعاً: الرسائل الجامعية

● الشاوي، عبد الباسط عبد الصمد.
- **الغزو الأوربي للفكر العربي الإسلامي**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الشريعة، جامعة بغداد، ١٩٨٧.
● الغزالي، مشتاق بشير حمود.
- **تطور الاستشراق البريطاني في كتابة السيرة النبوية الشريفة**، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية (ابن رشد)، جامعة بغداد، ٢٠٠١.

خامساً: المصادر الأجنبية

● Arberry, A. J.
- **British Orient lists**, (London - 1946).
● Blachere, Regis.
- **Introduction au Coran**, (Paris - 1959).
- **Le Probleme du Mohammed**, (Paris - n. y).
● Campbell, William.
- **The Quran and the Bible in the light of history and science**, (London - 2002).

- Daniel, Norman.
- **Islam and the West the making of an Image**, (Edinburgh - 1960).
- Dermengham, Emile.
- **The life of Mohammed**, (Paris - 1930).
- Desai, Maulana.
- **The Quraan Unimpeachable**, (South Africa - 1987).
- Gabrieli.
- **Muhammad and conquests of Islam**, (London - 1968).
- Hals, Emanuel Keller.
- **Der Islam**, (Stuttgart - 1956).
- Hofmann.
- **Tagebuch eines deutschen muslims**, (Germany - 1991).
- Jeffery, A.
- **Materials for the history of the taxt of the Quran**, (New York - 1975).
- Geiger, Abraham.
- **Was hat Mohammed ausdem Judentum aufgenommen**, (Leipzig - 1902).
- Muir, sir William.
- **The life of Mohammed from original sources**, (Edinburgh - 1923).
- Noldeke, Theodor.
- **Geschichte des Qurans**, (Germany - 1961).
- Painter, A.
- **History of the middle ages**, (New york - 1954).
- Paret, Rudi.
- **Der Koran**, (Stuttgart - 1963).
- Sale, George.
- **The Koran**, (London - 1921).
- Sell, Edward.
- **The historical development of the Quran**, (London - 1898).
- Sprenger, A.
- **Leben und die lehre Mohammed**, (Berlin - 1869).
- Southern, R. W.
- **Western views of Islam in the middle ages**, (Harvared - 1962).
- **The Encyclopaedia of religion**, (New York - 1987).
- **The New Encyclopaedia Britannica**, (Chicago 0 1986).
- Tritton, R. S.
- **Islam belief and practices**, (London - 1957).
- Watt, Montgomry.
- **Islamic revelation in the modern world**, (London - 1969).
- Winter, L. W.
- **Der Koran**, (Munchen - 1964).



القرآن الكريم
في دراسات المستشرقين

اختلفت أهداف المستشرقين من دراسة الإسلام. والذين اقتصر هدفهم على الطعن في الإسلام ركزوا أبحاثهم على القرآن الكريم، متتبعين الأحاديث والأخبار والروايات الضعيفة والموضوعة، أو التي أخذ بها بعض المنحرفين من الفرق الإسلامية، فاعتمدوها نصوصاً صحيحة بنوا عليها آراءهم ومطاعنهم، حتى وصل الأمر ببعضهم إلى اقتراح ترتيب جديد لآيات القرآن الكريم.

والمؤلف الباحث الذي أذهله تجنّي المستشرقين على الإسلام أمضى ثماني سنوات في هذا البحث الأكاديمي الذي نال به درجة الماجستير، ضمّن بحثه الموضوعات الآتية:

- التطور التأريخي لعلاقة الاستشراق بالقرآن الكريم.
- تنزيل القرآن الكريم في المنظور الاستشراقي.
- تدوين القرآن الكريم وجمعه في عهدي النبوة والخلافة الراشدة في المنظور الاستشراقي.
- طعون المستشرقين في النص القرآني.

وقد بين التحامل في آراء المستشرقين، ورد أباطيلهم بأسلوب علمي رصين يليق بدراسة علمية أكاديمية.

الناشر


ISBN 978-9953-18-458-6
9789953184586